محمد حسنين هيكل



اللغز الذي نعرفه !!

بقلم

سمير الجمل

مكتبة جزيرة الورد

محمد حسنين هيكل

اللغز الذي نعرفه !!

بقلم

سمير الجمل



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اســم الكتاب : محمد حسنين هيكل .. اللغز الذي نعرفه!!

المـــــؤلف : سمير الجمل

رقم الايداع ٩٧-٩٠/٢٠١٧

الترقيم الدولى / ٢-٨٥-٦٥٦٥-٩٧٧-٩٧٨

الطبعة الأولى ٢٠١٧

مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

طبعة أولى وأخيرة

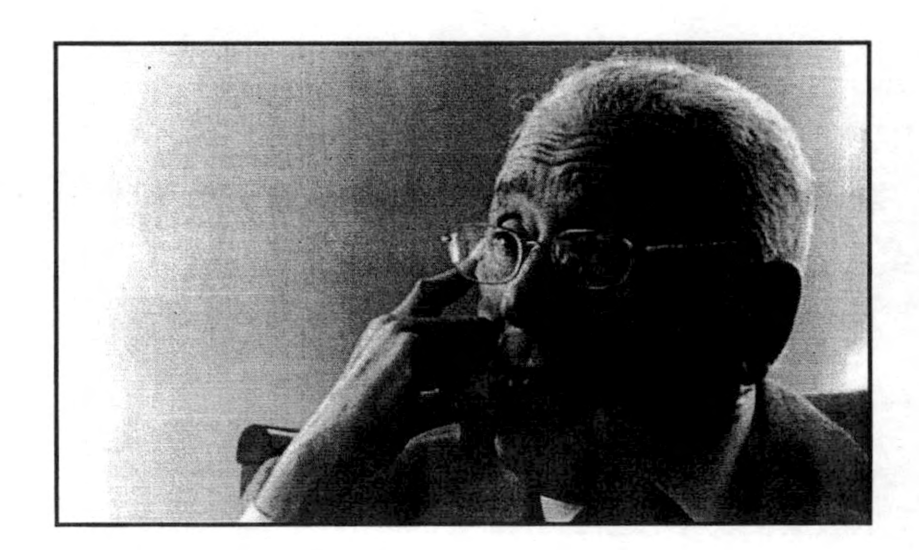
إلى أجمل مانشيتات الحياة ... عمر ويوسف وعلي وزينب ..

وإلى الصفحات الثابتة ... محمد ومي وميادة ورجاء ..

إلى الملاحق ... تامر وأحمد وبسمة

سمير

الترويسه
عن المخبر... والخبر



التريسه

عندما يتحول المخبر .. إلى خبر .

* وعندما يسأل الناس .. هل يستمد هذا الصحفي قوته من علاقته بالرئيس .. أم أن الرئيس يتخذه قلمًا يكتب له تاريخه .

* عندما تتساقط الأسماء والأوراق والكتب .. ويرتفع الرجل عبر كل العصور .. وهو يعرف متى يظهر! ومتى يختفي ! .. أين يسكت ! .. وأين يتكلم!

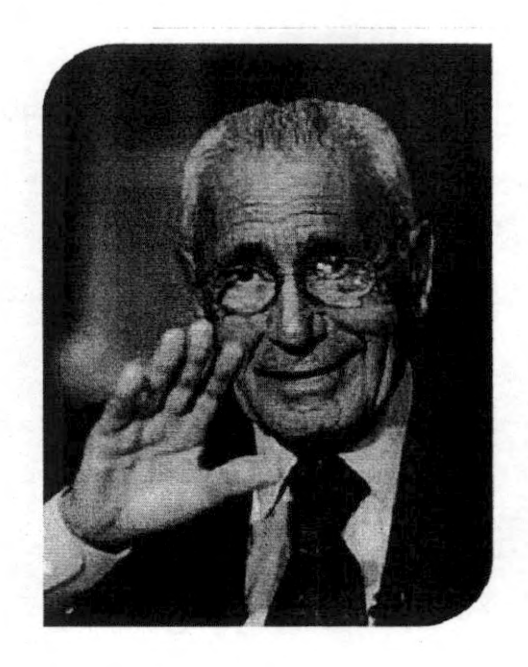
* عندما تراه في قلب الحدث بعلاقات أولاده في دنيا البزنس مع أبناء الرئيس .. ثم تجده يهاجم الرئيس .. هنا تتحرك علامات الاستفهام حول الرجل الذي يستطيع أن يجمع في وقت واحد بين أن يكون هو اللاعب والمتفرج والحكم!

* عندما تبحث عن اسمه وتكتشف أنه تجاوز الحدود وظهر مع الملوك والرؤساء وتسأل كيف وصل؟ وكيف اتصل؟

* عندما تريد أن تعرف المزيد عن قصة ارتباط الصحافة والسياسة .

* اقرأ حكاية الجورنالجي «محمد حسنين هيكل» وقد تصل إلى فك شفرة اللغز .. أو يزداد الأمر تعقيدًا .. ويمكنك في كل الأحوال أن تخرج بالعديد من الحكايات والأسرار والوقائع .. والأحداث لجورنالجي عاش (٧) عصور ونصف ... إذا احتسبنا فترة الحكم الانتقالية بعد ثورة ٢٥ يناير .

صورة شخصية



محمد حسنين هيكل

الميلاد :٢٣ سبتمبر، ١٩٢٣

الوفاة :١٧ فبراير، ٢٠١٦

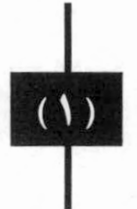
أحد أشهر الصحفيين العرب والمصريين في القرن العشرين. ساهم في صياغة السياسة في مصر منذ فترة الملك فاروق حتى وفاته سنة ٢٠١٦، فقد تولى مناصب صحفية هامة مثل رئيس تحرير جريدة الأهرام .

* اسمه سيكون أول ما يخطر في البال عندما يتعلق الأمر بتاريخ الصحافة المصرية.. الجورنالجي محمد حسنين هيكل، الذي عاصر تقلبات السياسة، والثقافة، والحكم، والعسكر، في مصر منذ عهد الملكية وصولا إلى ثورتي ٢٥ يناير و٣٠ يونيو.

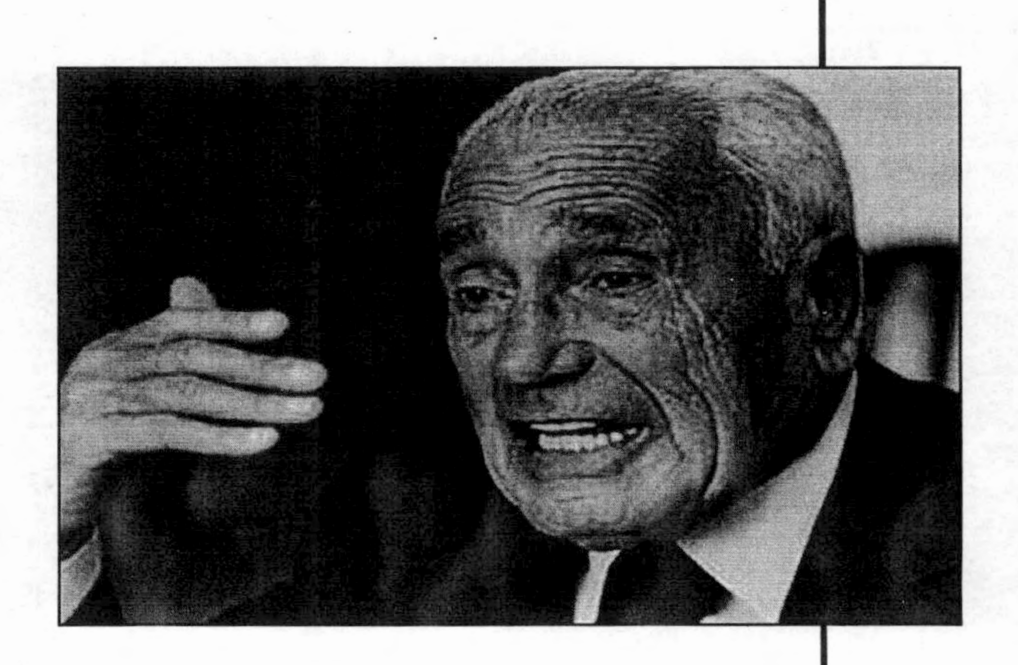
* الاسم المثير للجدل في علاقاته المتباينة منذ ١٩٥٢ بدءا بصديقه عبد الناصر الذي لاتزال آثاره واضحة في توجهات هيكل إلى السادات الذي سجنه ثم العلاقة الإشكالية مع مبارك. ويعتبره الكثير من الصحافيين والكتاب السياسيين في مصر وخارجها علماً من أعلام الصحافة والكتابة والتوثيق بينما يراه آخرون كاتب سلطة يتخذه الرؤساء قلماً يكتبون به تاريخهم وفق ما يناسبهم وثمة من يعتبره نموذجاً لفكر سياسي عتيق لم يعد صالحاً لتفسير أحداث زمان الاضطرابات الحالي.

«الجورنالجي» الشهير يعرف كيف يكون في قلب الحدث الآني بعلاقات أولاده في عالم الأعمال والأموال مع أبناء الرئيس لكنه يعرف متى يهاجم الرئيس.

في سلسلة حكاية الجورنالجي نحاول رصد ما يمكن من سيرة محمد حسنين هيكل المعقدة والشائكة والمتخمة بالأسرار التي تجعل الأمر اشبه بمحاولة لفك شفرة لغز. وقد يزداد الأمر تعقيدا حين يصبح الأمر متعلقا بصفحات لايريد هيكل ولا شركاؤه فيها أن تُعرف أو تقرأ. لكن في كل الأحوال في سيرة هيكل العديد من الأسرار والوقائع والأحداث لجورنالجي حتى النفس الأخير.



هل هو الصحفي الثعلب الذي عـرف كيف يحمي قلمه في كل العصور ؟!



بمناسبة مرور ١٤٠ عامًا على تأسيس جريدة الأهرام جلس محمد حسنين هيكل بين جمع كبير من صحفي المؤسسة ويبدو أنها كانت وصيته الأخيرة أو خطبة الوداع حيث قال : ما يزال الخبر الصحفي ملكًا متوجًا على راس فنون العمل الصحفي رغم الفضائيات ووسائل التواصل الإلكترونية .. ودعاهم إلى الحفاظ على مكانة الصحيفة الأولى مصريًا وعربيًا بتقديم الأفضل للقارئ على الدوام .

وخرج هيكل وتطلع إلى المبنى العريق الذي بناه على أكتافه عبر ١٧ عامًا .. عندما جاء إلى الأهرام وهو مفلس وقد هبط توزيعه .. ليقفز به إلى عنان السماء .. ويحوله إلى مؤسسة عالمية تنطق بلسان عربي .. لم يكن الأهرام بالنسبة لهيكل جريدة يرأس تحريرها بل حالة عشق وغرام بدأت من الصفر وبلغت القمة .. واختلط فيها ما هو صحفي بما هو سياسي بما هو خاص وبما هو عام .. حتى أصبح الرجل هو الجريدة .. والجريدة هي الرجل .

(من هو؟)

تحاول أن تكتشف المجهول وهذا طبيعي.. لكن ماذا عن محاولتك اكتشاف المعلوم ومعرفة المعروف ولكنه محمد حسنين هيكل الذي تسأل نفسك مراراً وتكراراً عنه وكل المعلومات متاحة أمامك وشريط طويل من التاريخ هو قطعة من تاريخ وطن.. دخل قصر الملك فاروق، وجلس في بيت عبدالناصر، وحاور السادات في حديقة منزله، وخرج من السجن لكي يقابل مبارك وتكلم عن مرسي ومعه، والتقى مع السيسي ثم انتقده.. اعترف له زملاء المهنة بالأستاذية، لكن بعضهم وصفه بالثعلب الذي يعرف كيف يتعامل مع فريسته، وقالوا إن هيكل تفوق على نفسه في حب هيكل فقط.. ولكنهم جميعا لم ينكروا عليه مقدرته الاحترافية.

وبرغم المناصب والكتب والمواقف والأفعال كان يعتز أشد الاعتزاز بلقب الجورنالجي.. ودليله على ذلك انه عاش لسنوات طويلة على اسمه فقط بدون منصب أو وظيفة، اكتفى بأن يحمل قلمه ورأسه.. وفي سنواته الأخيرة استثمر الاعلام المرئي وتخلى عن أوراقه واستبدل القارئ بالمتفرج.

وجلبت عليه وجهات نظره الكثير من المتاعب حتى انقلب عليه اقرب تلامذته ومنهم عادل حمودة الذي اعترف انه عاش في جلباب هيكل وأصدر كتابه «خريف هيكل»، على غرار خريف الغضب للجورنالجي الذي شن فيه هجوما حادا على السادات حتى انه عايره بأمه السوداء وحياته البائسة.

الحريق

والسؤال: كيف لرجل أناني كما اتهمه البعض أن يحلق بمؤسسة مثل الأهرام وتلاميذه حتى أصبحوا من كبار الأساتذة، والذين اتهموا مقالاته الشهيرة بصراحة انها زخارف أدبية فيها القليل من المعلومات الهامة والاستعراض اللغوي.. رد عليهم رجل الشارع البسيط بأنه كان ينتظر هيكل كل جمعة بعد خروجه من الصلاة حتى أصبحت فرصة لبيع الصحف الأخرى على شرف هيكل.

ولا يأتي ذكر هيكل إلا وجاء ذكر الرئيس الراحل جمال عبدالناصر.. حيث عريضة الاتهام فيها أن الصحافي الأوحد أزاح مصطفى أمين من طريقه وتمرد عليه.. وانه ميكروفون عبدالناصر ولسان حاله وكاتم أسراره.. فهل جاء غضب السادات عليه تصفية لحسابات ناصرية قديمة.

الصورة

تقف أمام آلاف الصور للأستاذ هيكل مع ملوك ورؤساء في عواصم من الشرق والغرب والشمال واليمين وفي مناسبات كبرى، في مكتبه وبيته ومزرعته.. لكن تظل صورته وهو يمارس رياضة الجولف هي التي تلخص الرجل وتدل عليه

ويكملها سيجاره الكوبي وبدلته الأنيقة.. وهكذا اجتمعت رحلة الرجل وصعوده من الصفر إلى القمة من محرر للحوادث إلى حدث سيتوقف أمامه تاريخ البلد والمنطقة.. وهو ما رصده تلميذه مكرم محمد أحمد في يوم الوادع حيث كتب تحت عنوان «مصري عظيم».

- خلف هيكل ووراءه سيرة حافلة وارثا صحافيا ضخما تمثل في عشرات الكتب وآلاف المقالات.. كان كاتبا سياسيا من طراز فريد، يحيط نفسه بالموهوبين والمبدعين وصناع الفكر، وبعد توليه مسؤولية تحرير جريدة الأهرام، نجح في تشكيل أهم هيئة تحرير في تاريخ الصحافة المصرية، ضمت فريق عمل متكامل من الشباب والمخضرمين تعددت انتماءاتهم الفكرية وجمعهم انتماء قوي لصحيفتهم، ضم الفريق توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وحسين فوزي ولويس عوض وصلاح جاهين وصلاح طاهر إلى جانب عشرات الصحافيين الشباب.

نقل هذا الفريق المتميز الأهرام من صحيفة محافظة تعاني الركود، هبط توزيعها إلى حدود ٦٠ ألف نسخة إلى واحدة من أهم عشرة صحف في العالم وأقواها مصداقية وتأثيرا في الرأي العام العربي والشرق الأوسط يقترب توزيعها من المليون نسخة وتصارع صحفاً عالمية رغم أنها صدرت في نظام شمولي لم يكن يحتفي كثيرا بالرأي الآخر!

صنع هيكل من الأهرام واحة شديدة الخصوبة والتأثير، وجسر اتصال هو الأوحد الذي يربط مصر بالغرب، وبدون شك أحسن هيكل استثمار علاقة الصداقة التي ربطته بالرئيس عبدالناصر وطوعها لمصلحة الأهرام التي أصبحت في عهده صوتا مسموعا في العالم أجمع.

كان هيكل فخورا بنفسه وأهرامه وفريق عمله إلى أن وقعت نكسة ٦٧ التي شكلت ضربة قاصمة لثورة يوليو ونظام عبدالناصر وحكمه، وبرغم أن هيكل هو الذي صك تعبير النكسة بدلا من الهزيمة ليقلل من حجم الصدمة على المصريين،

ورغم الظروف الحالكة السواد تمتع بشجاعة أن يدير دفة الأهرام إلى مرحلة جديدة، عندما كتب بعد الهزيمة مقاله الأشهر عبدالناصر ليس أسطورة.. داعياً إلى ضرورة تقنين الثورة في نظام حكم يقوم على المؤسسات والادارة الحديثة وحكم القانون مطالبا بانهاء عصر زوار الفجر الذين كانوا يأخذون كل صاحب رأي مخالف من الدار إلى النار!.

أبو الشباب

تعرض هيكل في سنواته الأخيرة لهجوم حاد من أقلام شابة اعتبرته من متحف الماضي فلا الزمان زمانه ولا المكان مكانه، فقد تغيرت الدنيا.. فهل تحول هيكل في أخر أيامه إلى كاتب الأيام الخوالي، أو في قول آخر كاتب العواجيز.. هذا ما يكشفه مقال للكاتب محمد حسين جاء فيه: لا أريد أن اكتب رثاء، لأن رحيل الأستاذ محمد حسنين هيكل ليس مجرد رحيل رجل، تكتب فيه كلمات الحزن والأسى والمديح، واستعراض الدور والقيمة والمقام، لأنني اعتقد أن بعض الرجال عندما يرحلون، فانهم يبقون بيننا، لأننا نكتشف أنهم أصبحوا أحد أصول الوطن، وأحد مكوناته الحقيقية، التي تظل باقية فيه دائما وأبدا.. أريد أن أتحدث عن أحد المشاهد، التي كانت تحمل رسالة واضحة، عن أحد أسرار الأستاذ هيكل، والتي أبقته حتى النهاية محتفظا بسحره وقدرته على أن يتجدد، ويثير الاهتمام والجدل.. كان المشهد كثيرا ما يثير انتباهي: شباب من مختلف الطبقات والأعمار، يجلسون في هدوء وتركيز شديدين أمام شاشات الفضائيات، يتابعون أحاديثه الطويلة، وكأنهم يشاهدون مباراة مثيرة في كرة القدم.. كنت أتساءل: ماذا في الرجل، يدفع هؤلاء الشباب إلى الاهتمام بما يقوله، وهو بالنسبة لهم قادم من التاريخ البعيد، ويتحدث بلغة لم يعد أحد يتحدث بها، ويطرح آراء لا يجدون مثيلا لها في أسواقهم الصاخبة في وسائط الدنيا الحديثة؟!.. في الحقيقة، لم تكن الاجابة صعبة، ففي كل الأحوال، وبعيدا عن قامة وقيمة الرجل، التي قد تكون غائبة عن

كثير من الشبان، فان الأستاذ هيكل كان بحكم تجربته الطويلة ودوره الكبير ليس ككاتب وجورنالجي فقط، ولكن كأحد شهود وصناع الأحداث في مصر الحديثة، وفي أخطر مراحل التحولات السياسية والاقتصادية والعسكرية، كان عندما يتحدث يبدو كأنه الزمن يتحدث، وكانت ملامح وجهه العتيقة، وشعره الغارق في الشيب، تضفي عليه سمات الحكمة بالاضافة إلى ما يمتلكه من كاريزما وجاذبية تجعل حضوره مثيرا للانتباه.

كان الشباب ينصت إلى الأستاذ هيكل، كصوت قادم من الماضي، يشرح لهم حاضرهم، ويقرأ لهم طالعهم ومستقبلهم، وهو صوت لم يطعن في السن، ولم يهن حتى النهاية، وكان عذبا في الحديث وصاحب لسان واضح، ينطق بلغة نضرة ومتجددة وشديدة الحيوية والثراء.. عناصر كثيرة اجتمعت في الرجل، الذي رحل عن عالمنا أمس، جعلته حتى آخر أيام عمره الذي تجاوز التسعين، حاضرا عند كل الأجيال، ومؤثرا في عقل مصر وضميرها، وضامنا مكانا في ذاكرتها ووجدانها، خاصة أنه أحد المؤسسين العظماء للذاكرة المصرية الحديثة.

من الفوران ..إلى الفوران

يحكي هيكل عن بدايته الصحافية وكيف بدأت في حالة فوران تعيشها مصر.. وقد ترك البلاد وهي أيضا في حالة فوران تواجه الحروب الداخلية والخارجية ويقول هيكل: كانت حالة الفوران وقت بدايتي ترتفع أحيانا إلى درجة الغليان ثم يهدأ البخار وتعود الفقاقيع إلى الظهور على سطح الحياة تنبئ بأن أشياء تجري عند القاع وتتفاعل أفكار وتيارات وقوى ومصالح تحتك ببعضها وتصطدم أحيانا وتحدث أثر ذلك شحنات تتراوح حركتها وطاقتها وتتفاوت بمقدار ما تتأثر بما يجري على السطح من أفعال وردود أفعال تلك كانت فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة وكانت تلك الحرب قد ربطت مصر نهائيا بالعالم الخارجي بقواه وأفكاره.

وعن بداية رحلته في الصحافة يقول هيكل: كان ذلك هو حال مصر في تلك الفترة، وكان ينعكس على أحوال أهلها، وكان أكثر ظهوره على شبابها، ولم أكن بالطبع بعيدا عن المجموع، وفي هذا المناخ العالمي والوطني والانساني دخلت أخبار اليوم للمرة الأولى في ربيع ١٩٤٦ لم أكن موجودا حين أنشأها الأستاذان مصطفى وعلي أمين في نوفمبر سنة ١٩٤٤، ولم أكن منتميا إلى المدرسة الصحافية، التي ظهرت مع انشائها، كنت قادماً اليها من خلفية مغايرة وتجربة مختلفة، وكان قدومي اليها في ظروف غريبة أما الخلفية فقد كانت تتمثل في أنني قضيت فترة التكوين المهني الأولى ١٩٤٢ ١٩٤٤ في جريدة الاجيبشيان جازيت The Egyptian Gazette وكانت وقتها أكبر الصحف الأجنبية التي تصدر في مصر عن شركة الاعلانات الشرقية التي تملكها أسرة فيني وكان التحاقي للتدريب بها فرصة أتاحها لي ولثلاثة غيري من الشباب الناشئ، واحد من خيرة محرريها وهو سكوت واطسون كنا بين الجالسين أمامه في محاضرة عن عناصر الخبر واذا به يتطرق من موضوع محاضراته إلى ذكرياته أيام كان مراسلا في الحرب الأهلية الاسبانية، وكنا نستمع اليه في انبهار وشبه خشوع، فلقد طاف بنا فيما يشبه الملحمة بين تضاريس ومعالم تلك الحرب التي انقسمت أوروبا بسببها بين الفاشية والديموقراطية. وحين ختم محاضرته كانت دعوته لمن يريد منا أن يتدرب عمليا أن يلقاه في اليوم التالي بمكتبه في الاجيبشيان جازيت. وفى اليوم التالي وقبل أن يصل هو إلى مكتبه كنا نحن الأربعة قد سبقناه اليه ننتظر، وهكذا وجدت نفسي في جو الصحافة العملية لأول مرة أعمل بين رجلين كان لهما تأثير واضح على نشأتي الصحافية الأولى: سكوت واطسون نفسه وكان إلى جانب كفاءته المهنية مثقفا يساريا صاغته تجربة الحرب الأهلية في أسبانيا بكل عناصرها الفكرية والإنسانية العظيمة، ثم «هارولد إيرل» رئيس تحرير جازيت وكان صحافيا كلاسيكيا قديرا يعمل في نفس الوقت مراسلا لجريدة مانشستر جارديان في مصر.

ولقد بدأت مساعد مخبر صحافي في قسم الحوادث وظللت فيه قرابة سنة حتى جاءنا، هارولد إيرل، باقتراح مثير دعانا إلى مكتبه يوما. نحن الشبان الأربعة، يقول لنا إن هناك حربا تجري على أرض مصر، ومع ذلك فان أحدا لم يصفها بعين مصرية ولم يكتبها بقلم مصري، ثم سألنا هل فينا من هو مستعد للمخاطرة في تجربة جديدة وعلى مسؤوليته وحدها، وتحمست للتجربة، وعلني في ذلك كنت متأثرا بإعجابي بواطسون وتجربته في الحرب الأهلية الاسبانية، وهكذا بعد شهر وجدتني في العلمين شاهدا مصريا على الحرب العظمى الثانية، وأعترف أن تجربة العمل كمراسل حربي قد استهوتني، ومن قبل، وأثناء عملي في قسم الحوادث بدت لي الجريمة وكأنها ذروة المأساة الإنسانية على مستوى الفرد.. فعندما يعجز شخص عن حل تناقضاته مع الآخرين بالعقل فانه يلجأ للعنف، وفى تجربتي الجديدة بدت لي الحرب وكأنها ذروة المأساة الإنسانية على مستوى الشعوب والأمم. فعندما يعجز مجتمع عن إدارة صراعاته بالعقل مع مجتمعات أخرى غيره. يكون التجاؤه إلى القوة، وأحسست، بخيالي الشاب وقتها. أن الظروف أتاحت لي أن ألمس بأطراف أصابعي مأساة الإنسان والإنسانية وعند الذرى العالية لهذه المأساة، وكان جو القاهرة في تلك الأيام معجزة من معجزات التاريخ لا تتكرر بسهولة. كان البحر الأبيض هو بؤرة الحرب، وأصبحت القاهرة بشكل ما عاصمة الحرب وعاصمة العالم، كانت كل عواصم الشمال الكبرى في أوروبا. لندن وباريس وروما وغيرها. مكشوفة لحريق القنابل أو مكبوتة بظلام الاحتلال. والقاهرة وحدها في مركز فريد قريبة من بوكان الحرب بدرجة كافية. وبعيدة في نفس الوقت عنه بدرجة كافية، وأصبحت ملتقى النخب من كل نوع: قادة الحرب في السياسة وفي ميادين القتال يعيدون بقراراتهم كتابة المقادير. صحافيون ومراسلون رفعتهم الكلمة إلى مصاف النجوم. كتاب من كل جنس ومذهب واتجاه يحلمون بعالم جديد بعد الحرب ويظنون أنهم يرونه في لحظة الخلق الأولى هناك عند الينابيع المقدسة التي طهرتها النار. ولم أكن أعيش في هذا الجو فقط،

ولكني كنت آكله وأشربه، وأصحو به وأنام وكان النوم عزيزا في تلك الأيـام، فقـد كنت أشعر شعورا غامرا أن المقادير أتاحت لي أن أكون في وسط لحظة تاريخية لا تعوض لم نكن نستطيع أن نذهب إلى العالم، وهذا هـو العـالم يجـيء إلينـا بحروفـه وكلماته. بكتبه وأناشيده.. بأفكاره وأحلامه وأوهامه أيضا، تلـك كانـت الخلفيـة المغايرة وفى أعقابها جاءت التجربة المختلفة. بدأت بمحض مصادفة وكانت نقطة تحول دخلت مكتب رئيس التحرير هارولد ايرل لشأن مـن شـؤون عمـلي، وكـان عنده زائر قدمني له: الأستاذ محمد التـابعي صـاحب مجلـة آخـر سـاعة ورئـيس تحريرها، وبدا لي أن الأستاذ التابعي قد تابع بعض نشاطي أو أن هارولد ايـرل قـد حدثه عنه، وكان الأستاذ التابعي رقيقاً معي ومجاملا وفى اليـوم التـالي اتصـل بـي يدعوني إلى لقاء معه. وذهبت وسألني الأستاذ التابعي كيف أرى مستقبلي؟. وكـان السؤال مفاجئا، فلقد كنت أتصور أن عمـلي في جازيـت يكفينـي، ولكـن الأسـتاذ التابعي كان له رأى مختلف مهمـا فعلـت في الجازيـت فـان المسـتقبل محصـور وضيق فهي جريدة تصدر في مصر بلغة أجنبية ثم إن توزيعها بعـد الحـرب سـوف يتقلص بالطبيعة ويعود إلى بضعة ألوف بدلا من عشرات الألوف.

ثم أضاف الأستاذ التابعي: أي صحافي مصـري مجالـه في الصـحافة المصـرية باللغة العربية وبقرائه فيها. هذا هو المستقبل ثم رفع سيجارته المنتصبة في مبسمها الذهبي بين شفتيه، وراح ينظر الي بعينيه اللتين يختلط فيهمـا الرمـادي والأخضـر والأزرق وقد تدلت نظارته على أنفه وامتد بصره إلى من فوق اطار النظـارة وهكـذا انتقلت من الجازيت إلى آخر ساعة ولم يكن الانتقال سهلا.. ففي حـين أن رئيسـي الأول هارولد ايرل رأى أن الجريمة والحرب هما مجال التكوين الأصلح والأمثل للصحافي، فان رئيسي الثاني محمد التابعي كان يـرى أن المسـرح والبرلمـان همـا المجال الأنسب والأوفـق ولبضـعة أسـابيع وجـدت نفسـي في كـواليس مسـارح القاهرة بدلا من ميادين القتال، ثم وجدت نفسي في شرفة مجلس النواب بدلا من

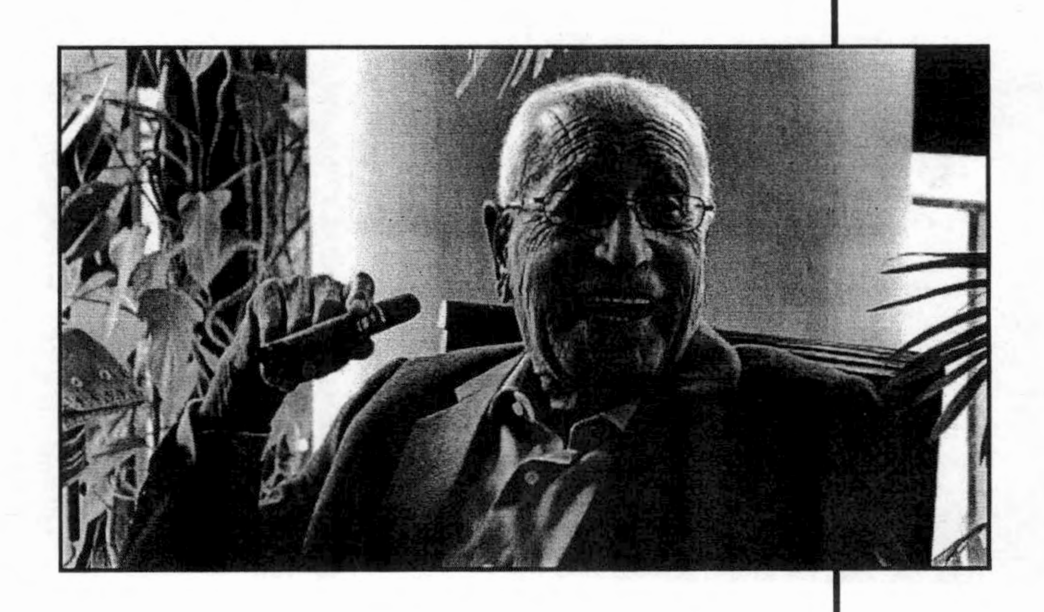
محافظة القاهرة التي تصب فيها كل أخبار كل جريمة تحدث في مصر وربما كان الأستاذ التابعي على حق على الأقل فيما يتعلق بمجلس النواب فلقد أتاح لي مقعد آخر ساعة في شرفة المجلس أن اقترب من أجواء السياسة المصرية.

في مدرسة التابعي

ويواصل هيكل حديثه عن البداية.. ونكتشف من حديثه أن محمد التابعي هو أستاذ الأستاذ لأسباب عديدة يشرحها قائلا: وكانت تجربة العمل مع الأستاذ ممتعة وأشهد أني تعلمت منه الكثير، ولقد وجدتي شديد الاعجاب بأسلوبه الحلو السلس، وفي البداية رحت أقلده وفي الحقيقة كانت تلك الفترة، مهنيا، فترة العثور على توازن معقول بين ثلاثة تأثيرات واضحة تجاذبتني: عقلانية هارولد ايرل ورومانسية سكوت واطسون ثم حلاوة أسلوب محمد التابعي كانت آخر ساعة في ذلك الوقت مجلة وفدية، وفي أجوائها وجدت نفسي بحكم طبيعة المصادر المتاحة أقرب إلى الوفد، مع احساس غالب بأن ذلك مجرد تأثير مناخ وليس نتيجة مؤكدة لاختيار وقرار. وكان الوفد خرج من الحكم باقالة ٨ أكتوبر ١٩٤٤ الشهيرة وأصبحت آخر ساعة في المعارضة أمام حكومة ائتلاف أحزاب الأقلية التي شكلها الدكتور أحمد ماهر باشا، رئيس حزب السعديين. وصدرت مجلة أخبار اليوم الأسبوعية بعد شهر واحد من إقالة النحاس وكان صدورها ونجاحها حدثا صحافيا ضخما، وكذلك كان حدثا سياسيا ولقد كان واضحا أن النجاح الفوري الذي حققته مجلة أخبار اليوم يرجع إلى عاملين. أولهما سلسلة المقالات المثيرة التي راح الأستاذ مصطفى أمين لعدة شهور يكتبها تحت عنوان عام يقول: لماذا ساءت العلاقة بين القصر والوفد؟.. وكانت مقالات حافلة بالأسرار والحكايات والقصص ومشوقة إلى اكبر حد والعمل الثاني والفضل فيه للأستاذ علي أمين حيث بدت أخبار اليوم في شكل جديد تماما أمام القارئ واستلهمه من جريدة صنداي اكسبريس الانكليزية لكن القارئ رحب بها وهكذا دخل مصطفى وعلي أمين إلى دائرة الأساتذة عند هيكل وهذا ما يحتاج إلى المزيد من التفاصيل.

(٢)

قبلات وأحضان «علي أمين» فتحت باب أخبار اليوم.. وأغلقت «النافذة» الإنسانية !!



هل اعترف هيكل بفضل محمد التابعي ومصطفى وعلي أمين في كتابه بين الصحافة والسياسة.. وقد قيل إنه أوحى إلى جمال عبدالناصر بحبس مصطفى أمين بتهمة التجسس.. هذا السؤال وغيره من الأسئلة الشائكة.. سوف نجد إجابته في سرد تفاصيل عشرات الحكايات في رحلة هيكل الطويلة الحافلة والمثيرة.

لكن لابد دائما من العودة إلى البدايات كما جاءت على لسانه بعد أن تعرف على التابعي في أجواء ما بعد الحرب العالمية الثانية والعواصف التي أحاطت بمصر وقد سلطت الصحافة مدفعيتها ضد حزب الوفد خاصة جريدة أخبار اليوم، وهنا نسأل وما هو محل هيكل من الأعراب في هذه الأجواء؟.. وفي ذلك قال: كان الوفد في موقف لا يحسد عليه: مطرود من الحكم بالإقالة.. ومحاصر تحت دك المدفعية الثقيلة بأخبار اليوم ويبدو لي أن هذا بعض ما حفز الأستاذ التابعي في ذلك الوقت إلى محاولة أخيرة لتطوير آخر ساعة حتى تستطيع أن تقف مع الوفد في وجه المدفعية الثقيلة الجديدة. وربما كانت هناك أسباب أخرى منها أن التابعي كان يعتبر نفسه أستاذا لمصطفى وعلي أمين، وربما شق عليه معنويا أن يرى مجلة أسبوعية سياسية جيدة يصدرانها تسبق مجلته وتفوقها بكثير من نواح عديدة ومع أني كنت قد أصبحت سكرتير تحرير آخر ساعة، فان عملية التطوير الجديدة تولاها التابعي بنفسه، وظلت معظم بنودها في رأسه ينفذها واحدا بعد واحد، ولقد كانت لي بغير تجاوز آراء وملاحظات، لكن التابعي كان بعواطفه كلها مندفعا إلى ما يراه. ومن سوء الحظ أن التجربة لم تنجح. وفوق ذلك فان مصروفات آخر ساعة. بحكم وجوه الاتفاق على مشروع التطوير. زادت بأكثر من توقعات التابعي، إلى جانب أن الشحنة العاطفية التي دفعت محاولة التطوير كانت قد استنفدت نفسها، وهكذا قرر التابعي ربما في نوبة ملل أو نوبة يأس أن الوقت قد حان ليرفع عن كاهله أعباء ملكية مجلته ودارت مفاوضات لم أعرف أمرها في حينها، حتى دعاني التابعي ذات يوم في بداية سنة ١٩٤٦ ليقول لي كل الإسرار مرة واحدة. لقد قرر أن يبيع آخر ساعة.. وقد أتفق على بيعها فعلا.. والمشتري الجديد هو أخبار اليوم..

الأستاذان مصطفى وعلي أمين، كانت العلاقة بين الأستاذ التابعي وبيني قد أصبحت علاقة حميمية وكنت فيما أظن أقرب تلاميذه إليه، ولعلي كنت أخرهم وكان شديد التقدير لعملي، ثم أنه كان يعتبرني اكتشافا قام به هو شخصيا. وكانت هذه العلاقة تسمح لي أن أتحدث إليه بغير حواجز، وأحسب أنه دهش لموقفي صباح ذلك اليوم الذي أفضى فيه إلى بكل الأسرار مرة واحدة. ربما كان يتوقع مني رأيا مخالفا لتصرفه أو عتابا لأنه لم يطلعني على ما فعل في حينه. ولم يكن ذلك موقفي فقد كنت أحس بأزمة الرجل نفسيا وماديا وأدركت في لحظة أنه لم يكن ليصل إلى هذا القرار ألا وقد ضاقت به السبل، على الأقل في إطار ما رآه وقلت له ما معناه إنني مع أسفي لانتقال ملكية آخر ساعة منه إلى غيره. ألا أنني أستطيع فهم دواعيه ومادام الاتفاق قد تم وانتهى أمره فلا فائدة من اجترار الكلام، وإنما المهم أن يتم الانتقال بالطريقة اللائقة وكانت هناك مفاجآت أخرى قال لي الأستاذ التابعي فجأة: أنهم يريدون أن أعمل معهم.. أكتب مقالا أسبوعيا في أخبار اليوم.. ولم تكن هذه نهاية المفاجآت، فقد أضاف الأستاذ التابعي: وهم يطلبونك أيضا.. لقد أصروا عليك بالتحديد ولم أملك نفسي لحظتها من أن أسأله عن نوع الاتفاق الذي عقده وما إذا كان نوع عقود الإقطاع الروسي قبل الثورة حينما كانت الأرض تباع بما عليها ومن عليها؟ ومازلت نادما على هذه الملاحظة حتى الآن فقد أحسست أنني أحرجته، ولقد تغلب على الحرج بسرعة وقال: أنهم لا يريدون من كل طاقم آخر ساعة ألا أربعة بالتحديد، هو التابعي وأنا والدكتور سعيد عبده، وقلت له إنني أريد أن أفكر في المسألة كلها ثم نعود لاستئناف الحديث فيما بعد، وفى مصر عادة ليس هناك سر، ومن باب أولى في الصحافة المصرية. وهكذا فان ما سمعته همسا من الأستاذ التابعي في الصباح ما لبث أن أصبح حديثا شائعا في المساء. وبدأ إيقاع الحركة يزيد. اتصل بى مساء نفس اليوم الأستاذ اميل زيدان صاحب دار الهلال ودعاني للقائه، وإذا هو يعرض علي رئاسة تحرير مجلة الاثنين، وكانت مجلة سياسية تصدر وقتها عن دار الهلال، وكان رئيس تحريرها مصطفى

أمين، وفي عهده بلغت أوج انتشارها وبعد خروجه منها. وشكرت للأستاذ اميل زيدان عرضه وفضله راجيا منه أن يترك لي فرصة التفكير أياما قليلة وأحسست أنني أقرب إلى قبول العرض لأكثر من سبب بينها إن مجلة الاثنين بدت لي تحديا مستقلا، وأعترف أيضا أن رئاسة تحريرها بدت في ذلك الوقت إطراء لخيلاء الشاب. فها هي رئاسة تحرير مجلة سياسية من مجلات الدرجة الأولى تعرض علي وأنا لم أتجاوز بعد سن الثالثة والعشرين. كذلك دارت أفكاري، وعلى هذا النحو كادت تستقر عندما ذهبت إلى آخر ساعة مبكرا كالعادة صباح اليوم التالي. وحينما عرفت أن الأستاذ التابعي قد وصل واستقر في مكتبه قصدت إليه ورويت له تفاصيل لقائي مع الأستاذ أميل زيدان ثم أظهرت له اتجاهي إلى قبول عرضه.

والحق أنني كنت أتصور أن الأستاذ التابعي سوف يوافقني على رأيي خصوصا أنني في سري تخوفت للحظة أن يكون هو الذي عرض اسمي على الملاك الجدد. لكنى وجدته يقول لي: راجع نفسك.. أن مجالك سوف يكون أوسع وأرحب في أخبار اليوم.. ثم أضاف بصوت مشحون بالتأثر والكبرياء معا أنه لا يريدني أن اتركه وحده خصوصا وأنهم متمسكون بي.

ولم يتوقف سيل المفاجآت فإن باب مكتب الأستاذ التابعي انفتح فجأة ودخل منه أحد الملاك الجدد الأستاذ علي أمين، لم أكن قد لقيته من قبل، ولكنه أقبل على فاتحا ذراعيه يقبلني على الخدين ويقول لي انه لا يهنئني بانضمامي إلى أخبار اليوم، ولكنه أيضا يهنئ أخبار اليوم بانضمامي إليها، ولم أكن أعرف بعد أنني انضممت إلى أي شيء. وربما لاحظ هو آثار الدهشة على فقال على الفور والحماسة ظاهرة في صوته أنه كان يتابع عملي وكان يتمنى أن أعمل معه في أخبار اليوم لكنه لم يشأ فيما مضى أن يحرم الأستاذ التابعي من جهودي، وها هي الظروف تتيح لنا كل الفرص مرة واحدة وتطوع الأستاذ التابعي ليحدثه عن عرض دار الهلال بأن أتولى رئاسة مجلة الاثنين، وهز على أمين رأسه بشدة نفيا ورفضا، وقال مكانه الحقيقي معنا في أخبار اليوم.

من زاوية أخرى

استوقفني عنوان دراما رحلة الصعود والانصراف الأخير والذي كتبه أنور عبداللطيف الصحافي في الأهرام عندما وداع هيكل واستثمر في ذلك مقابلة إنسانية أجراها مع الأستاذ تناولت العديد من جوانب حياته وتحت عنوان بين الكوليرا والحرب كتب هذه الأسطر التي تلخص البداية من زاوية أخرى: بدأ محمد حسنين هيكل عمره الصحافي في ٨ فبراير عام ١٩٤٢ بموضوع عن بيوت الليل في صحيفة الإجيبشيان جازيت ثم غطى فيها أخبار الحرب وأخلص لمهنته وترقى في بلاطها من محرر سوبر في أخبار اليوم إلى رئاسة تحرير آخر ساعة فسافر مع محمد يوسف كبير المصورين لتغطية وباء الكوليرا في محافظة الشرقية ومن الحياة في ظل الموت بالوباء إلى الحياة في ظل الموت بالحروب في كل أنحاء الشرق الأوسط حتى نال جائزة فاروق الأول ثلاث مرات، وهو دون الخامسة والعشرين، كل ذلك كان مقدمات تؤهله لرئاسة تحرير الأهرام عام ١٩٥٧، واقترب في نفس الفترة من صناعة القرار السياسي وكان صديقا موثوقا من رجال ثورة يوليو ٥٢ وبصفة خاصة من الرئيس جمال عبدالناصر ناصحا أمينا له، ألقى عليه العروض الوزارية، لكنه تمسك بعمله الصحافي قائلا: أنا صحافي يعمل بالسياسة ولست سياسيا يعمل بالصحافة.. وأن لقب الجورنالجي أفضل إلى قلبه من معالي الوزير أو دولة رئيس الوزراء، وظل مخلصا لهذا الوصف إلى نهاية العمر.

صنع نهضة الأهرام الحديثة وودع صحافة الأسلوب التي تعلمها من أستاذه محمد التابعي وصحافة الخبر المشوق المثير التي نجح فيها مصطفى وعلي أمين، وأنطون باشا الجميل، وأسس صحافة الحقيقة والمصداقية وما وراء الخبر، واحتل مقعد المؤسس الثاني عندما نقل الأهرام من صحيفة العائلة إلى قاطرة لمؤسسة صحافية تدار بأحدث تكنولوجيا العصر، وانطلقت بالقواعد والأصول

التي أرساها.. أسس مدرسة صحافية بعلاقات عمل وقيم كانت جديدة على الحياة المؤسسية في مصر.. صاحب الأستاذ هيكل منذ بداية عمله في الأهرام الأستاذ توفيق بحري، وكان أول سكرتير تحرير في الصحافة المصرية يقوم بإخراج ورسم صفحات الجريدة على ماكيت بحجم الصفحة وبفضل الأستاذ صار للأهرام مدرسة في الإخراج تتوازى مع المدرسة التحريرية الحديثة، وبفضل رفقاء درب الأستاذ هيكل وأعضاء مدرسته مكرم محمد أحمد ومحمود عبدالعزيز وعلى حمدي الجمال وصلاح هلال وسلامة أحمد سلامة وصلاح جلال والدكتور بطرس غالي في السياسة الدولية وبرز من هذه الكتيبة من النجباء إبراهيم نافع الذي انطلقت الأهرام وتوسعت كميا وتحولت إلى إمبراطورية إعلامية احتفلنا مع الجيل الجديد منذ أيام بدخولها العام الأربعين بعد المئة الأولى منذ أسسها سليم وبشارة تقلا عام ١٨٧٥.

امتداد لمن؟

وما زلنا مع أنور عبد اللطيف حيث يقول: سألت هيكل مرة.. أنت امتداد لمن؟ فقال: الناس والتجارب الإنسانية ليست مثل هذا الخط المستقيم ولا خطوط متوازية أو متقاطعة.. لكنهم مثل المجرات الكونية.. كل كوكب مقدر له مدار.. ويمكن أن يكون سؤالك بصيغة أخرى.. انت تأثرت بمن؟ أقول لك إنني تأثرت في البدايات بأربع شخصيات أو نماذج بشرية: هارولد ايرل في الإجيبشيان جازيت، وفيليب حنين رئيس القسم الداخلي بها ومحمد التابعي صاحب آخر ساعة، ومحمود عزمي الصحافي.

بدأ هيكل العمل في صحيفة الشركة الإجيبشيان جازيت ثم الصحيفة الحزبية آخر ساعة المعبرة عن حزب الوفد ثم بالصحيفة العائلية الأهرام وتحولت بفضله إلى مثال للصحيفة القومية بعد قرارات تنظيم الصحافة ١٩٦١، وفى كل أنماط الملكية حافظ على استقلاله واعتبر كرامة المهنة من كرامة الصحافي، وقداستها من وقداسة الرسالة التي يؤديها.. تحمس لمشروع ثوار يوليو.. واقترب من جمال

عبدالناصر وآمن إلى حد الإعجاب بمشروعه التنموي القومي.

وظل مخلصا له بعد أن فارق ناصر الدنيا في سبتمبر ١٩٧٠ وساند الرئيس السادات في معركته مع مراكز القوى في عام ١٩٧١ وهنا لابد من سؤال من وحي ما جاء في مقال أنور عبداللطيف: كيف يجتمع إخلاص هيكل لعبدالناصر بزمانه وتوجهاته ورجاله ومنهم سامي شرف وشعراوي جمعة ومحمد فايق وغيرهم ممن أطلق عليهم السادات وصف مراكز القوى.. وقد أيد هيكل هذا الأمر.. وكأنه بذلك يطوى صفحة ناصر بكل ما فيها ويمهد لفتح صفحة السادات الذي منحه المكافأة الفورية بان كلفة بكتابة التوجيه الاستراتيجي وهو خطاب يشرح للجنود والضباط أبعاد الموقف ويعطى صورة عن خطة التحرك للأمام وقد وقعه القائد الأعلى للقوات المسلحة وهو السادات وأرسله إلى القائد العام المشير احمد إسماعيل في إطار الحشد لمعركة العبور العظيم عام ١٩٧٣.

لكن هل من علامات المودة أن يأتي خروج هيكل من الأهرام على يد السادات.. وسأترك أنور يحكى ما جرى: فوجئ الصحافيون والقرار في صباح الأحد ٣ فبراير ١٩٧٤ بخبر نشر في أعلى العمود الأول من الصفحة الأولى بعنوان تعيين علي أمين مديرا لتحرير الأهرام، وبعد أسبوع صدر قرار آخر بتعيينه رئيسا للتحرير. ويصف مصطفى سامي أحد رواد مدرسته الصحافية مشاعره في ذلك اليوم المشهود الذي سيطرت فيه الصدمة على مشاعر المحررين: كان أصدق تعبير بالتقدير والعرفان للأستاذ هيكل عندما سافر إلى الخارج وبعد ستة أشهر من غيابه عن الأهرام، أبلغنا المرحوم الزميل حسن أبوالعينين مندوب الأهرام في وزارة الداخلية. في ذلك الوقت بموعد عودته إلى القاهرة فوجئ الأستاذ هيكل بجميع محرري الأهرام وقد امتلأت بهم قاعة كبار الزوار في مطار القاهرة يستقبلونه بباقات الورد.

لم تكن مسألة الخلاف بين السادات وهيكل في وجهات النظر وهذا أمر وارد

جدا.. وقد اختلف مع احمد بهاء الدين خاصة عندما كتب مقاله الشهير انفتاح السداح مداح وهو ما أثار غضب السادات.. لكنه ظل محتفظا بمسافة الود بينه وبين بهاء.. بعكس ما جرى مع هيكل.. وهنا أتوقف مع تحليل لكاتب كبير عاصر بعض هذه الأحداث ولكنه رفض ذكر اسمه حيث قال: السادات أراد أن يمسح علامات جمال عبدالناصر كلها من فوق الطريق.. فقد كان كارها لكل ما هو يساري والناصرية هي أقرب لليسار منها لليمين.. ولذلك ابتعد عن الاتحاد السوفيتي واتجه إلى الأميركان بكل حماس.. كان من الصعب عليه أن يقبل ميراث جمال متمثلا في صحافي كان يشعر بأنه الأقرب وربما الأوحد الذي يخاطب الرئيس في أي وقت.. فالسادات يريد أن يكون له رجاله خاصة بعد أن أزاح قيادات ناصر وألقى بها إلى غياهب السجون لذلك اقترب منه رشاد رشدي وأنيس منصور وهو صاحب اتجاه يناسب السادات أكثر كما انه صاحب كتاب عبدالناصر المفترى عليه والمفتري علينا.

وبالطبع توسعت دائرة الشك بين السادات وهيكل.. وعندما تتحدث عما جرى بينهما لابد أن تجد مصطفى أمين يطل برأسه.. هيكل يقدم وثائقه التي تقول بأنه ظل وفيا للرجل والسؤال عن أسرته وتقديم كل عون له في سجنه وكم من مرة طلب من عبدالناصر أن يعفو عنه ويتركه يرحل خارج البلاد مع شقيقه علي أمين الذي كان يعيش في لندن.. لكن ناصر كان جوابه أنه جاسوس وهناك اعترافات مكتوبة بخط يده تؤكد على ذلك.

ويوضح ضياء الدين بيبرس في كتابه هوامش على قصة محمد حسنين هيكل أنه قد نجم عن اختلاف منهج هيكل في التصرف ككاتب وصحافي في عهدي عبدالناصر والسادات مقارنة في منتهى الغرابة.

فبينما كان هيكل في حياة عبدالناصر يؤكد أنه لا يعبر عن رأي القيادة السياسية فيهز الناس رؤوسهم باسمين ويزدادون يقينا بأنه صوت سيده.. فانه في عهد

السادات بدا حريصا على إعطاء الانطباع بأنه يعبر عن النظام. كأن يوضح أن الرئيس السادات اتصل به ليستشيره أو أن الرئيس السادات أرسل إليه كريمته ذات صباح تدق بابه لتستدعيه إلى بيته في غفلة من رقابة الهواتف أو كيف طلب منه السادات أن يذهب سراً إلى أميركا ليتفاوض مع كسينجر.

لقد كانت هناك علاقة قوية بين عبدالناصر وهيكل وصفها هيكل نفسه في كتابه عبدالناصر والعالم سنة ١٩٧٢ بأنها حظ وشرف.

ويضيف عليها أنيس منصور: أن هيكل رجل موهوب، ومن مواهبه قدرته على أن يظل على مقربة من عبدالناصر رغم المحاولات العديدة لإبعاده.

أن هيكل لم يكن الصدى والظل لعبدالناصر دائما، لقد كان الصوت والضوء أيضا، فقد كان حريصا أن يؤكد للقارئ أن المعنى لعبد الناصر والشكل له وكثيرا ما كان يسرف في الشكل تأكيدا لذاته، وفي كثير من الأحيان عندما كان ينقل لنا رأيا لعبدالناصر يقول وسمعته يقول بالحرف الواحد، مع أنه ليس في حاجة إلى أن يقول ذلك، ولكن هذه العبارات في الوقت الذي تؤكد لنا أنه قريب وأنه استطاع أن يرى ويسمع الألفاظ من مخارجها فانه في نفس الوقت يريد أن يوهمنا أن الذي يكتبه عادة شيء مختلف، مع أنه في الحالتين يقول نفس المعاني بأسلوبه هو، انه بذلك يدفع عن نفسه صفة أنه ينقل ما يريده عبدالناصر وهو المعنى الذي استقر عند كل القراء منذ بدأت علاقته به.

أن العلاقة التي كانت تربط الكاتب بجمال عبدالناصر كانت ذات كيان خاص، وأصبحت بعد وفاته أخبار الدولة الرسمية القابلة للنشر متاحة لكل الصحف وبدأ تقليد جديد، هو الحرية الكاملة لكل الأقلام في الاجتهاد الصحافي.

وكتب ثروت أباظة في مقاله خطاب جدير بالمناقشة الذي نشرته جريدة الأهرام يوم ١٩ ابريل ١٩٧٧: أما حديثي عن هيكل في ميدان الكلمة فأنا اعتقد أن

هيكل ظل لفترة طويلة هو الكوة التي نتلمس منها أخبارنا من حالك الظلام، ومن هنا جاءت أهميته، وأنني اعتقد أن الأستاذ هيكل نال فرصة في هذه الفترة، وأنه بالحاسة الصحافية أحسن استغلالها في كل شيء.

أما حين تصبح الأخبار مشاعة بكل الجرائد على السواء فإن هيكل يفقد أهميته. وقد حاول أن يكون في العهد الجديد كما كان في العهد القديم ولكن استحال عليه هذا، فقد رأى عهد السادات أن الجميع عند رئيس الجمهورية يجب أن يكونوا سواء، لا فضل لأحد منهم على الآخر.

وبعد فالأستاذ هيكل محلل سياسي حين تتوفر عنده المصادر، أما إذا لم تتوفر فهو إذن كما قلت لا يساوي في ميدان الكلمة الكثير.

وقال السادات في حديث نشرته الأخبار يوم ٩ يناير ١٩٧٣ أننا نمارس الديموقراطية الصحيحة وفي نطاقها يجب أن يعبر القلم عن آرائهم والانحراف لن أسمح به، ويسرني ويسعدني أني كنت صحافيا، وأن صداقة تربطني ببعض الصحافيين عندكم، عملوا معي على ترابيزة واحدة، ولي معرفة وثيقة بأسلوب الممارسة، ولا فرق بين زيد وعمرو والكل متساوون.

أن هيكل صحافي ممتاز، يعنى بالصياغة ليؤكد أنه ليس مجرد ناقل أو ساعي بريد بين عبدالناصر والقارئ.

ويوضح أنيس منصور أن الكاتب عادة يصارح الحاكم على مرأى من الناس، ولكن هيكل كان يصارح الناس على مرأى من الحاكم وفي مأمن منه أيضا، وأن اختيار عنوانه بصراحة لمقالاته يوهم بأن هناك شيئا يستطيع أن يصارح به الحاكم كما يتمنى كل كاتب أو ناقد، ولكنه لم يكن يصارح الحاكم، إذ كيف يصارح من هو صوته وصداه أو ضوءه وظله.

كان في استطاعة هيكل أن يمد يده إلى جيب عبدالناصر ويلتقط كل الأخبار بل

كانت الجيوب هي التي تسعى إليه، ولم يكن له إلا الصياغة فهي صناعة وموهبة.

أن انتصارات هيكل الصحافية لم تكن انتصارات لأنها بلا منافسة من أحد، فهي إذن بلا مجد، وقد حقد عليه الكثيرون، ولم يكتب عنه أحد من الصحافيين رغم أنه صحافي ورئيس تحرير وناشر ومؤرخ وشاهد على العصر ومحدث وراوية وكاتم أسرار ثورة يوليو فهو محروم من كلمة الحق.

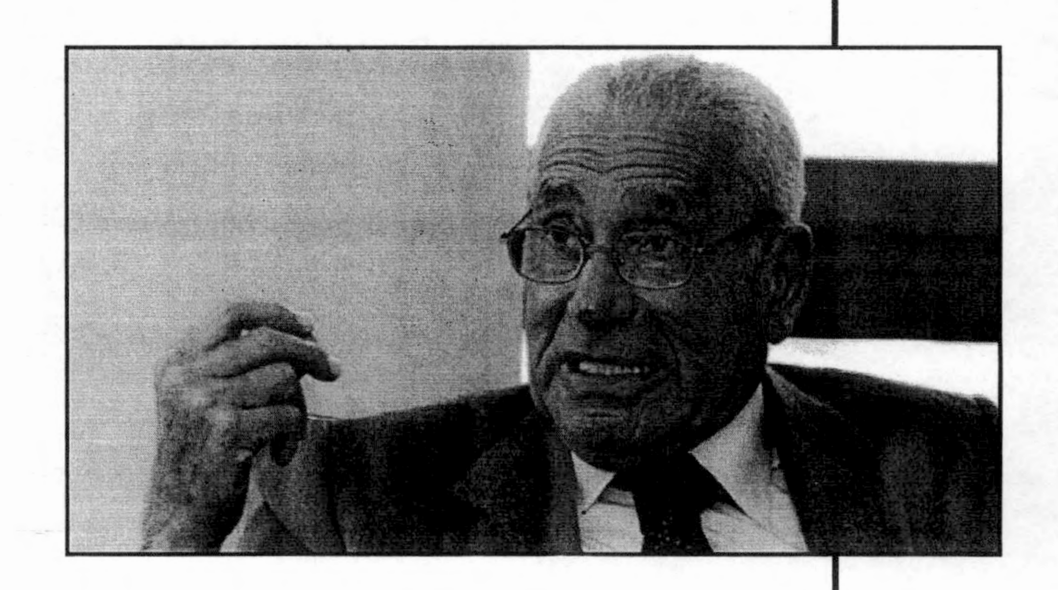
لقد هوجم هيكل أثناء رئاسته لتحرير الأهرام بعد وفاة عبدالناصر، فقد هاجمه عبدالهادي ناصف عضو الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي بمقال في جريدة الجمهورية بعنوان تحية مردودة من الرجال إلى هيكل وهاجمه موسى صبري رئيس تحرير جريدة الأخبار بمقال بعنوان المبشرون بالهزيمة وحلله ونقده أنيس منصور في مجلة آخر ساعة بمقال بعنوان محمد حسنين هيكل: صداقة الحظ والشرف.

هكذا تحدث كبار الكتاب من أبناء جيل هيكل عنه لكن كيف رأى هو ما جرى..؟ وسجله بقلمه.. وهل كان خروج مصطفى أمين من السجن على يد السادات في ٢٧ يناير ١٩٧٤ وخروج هيكل من الأهرام بعد أربعة أيام فقط من هذا التاريخ ثم دخول علي أمين إلى الأهرام في سيناريو غريب الأطوار.. يقلب كل الموازين في واحدة من مفاجآت السادات التي لا تنتهي!



(٣)

مدفعيـــة أنـــيس منصـــور وثـــروت أباظـة تطلق قـذائفها نحـو هيكل وعبد النـاصر !!



حائر هو عندما بدأ يكتب مقدمة كتابه بين الصحافة والسياسة.. لا هو.. بالكتاب الشخصي الذي يحكي فيه سيرته الذاتية والمهنية.. ولا هو كتاب سياسي مثل باقي كتبه.. ومع ذلك ستجد عبر صفحات الكتاب التي زادت على ٤٠٠.. أن الأوراق اختلطت وتداخلت بين الخاص والعام وبين الصحافة والسياسة ويبدو انه من الصعب الفصل بينهما مهما كانت قدرات الذي يخوض في هذا الحقل حتى لو كان هيكل.. حيث يقول:

ترددت بين أسلوبين في تناول الموضوع: هل اكتبه على شكل دراسة أم اكتبه على شكل تجربة ذاتية لكنني وجدت أن الدراسة سوف تدفعني في النهاية إلى إصدار أحكام وأنا أوثر أن اترك الأحكام للناس وللتاريخ. ومن ناحية أخرى فقد كان شكل التجربة الذاتية ينطوي على كثير من المحاذير منها أن تبدو القصة وقد كنت طرفا رئيسا فيها.. صراع حيتان هائجة في البحر حولته بجراحها إلى بقعة حمراء من الدماء أو تسوية حسابات قديمة كان يجب أن تذهب إلى زوايا النسيان لكن نوازع النفس.. والنفس إمارة أعادت بعثها مرة أخرى للحياة وأقول صادقا أن ذلك كله ومثله ليس صحيحا لا هو صراع حيتان هائجة ولا هي تسوية حسابات قديمة وإنما هي كما قلت واحدة من أغرب القصص في علاقة الصحافة بالسياسة في مصر ثمراتها مازالت مستمرة في تأثيرها تتواصل كل صباح.

وقد قرأنا وجهات نظر من عارضوا هيكل أو من يمكن أن يقال عنهم الساداتية مثل أنيس منصور وثروت أباظة وغيرهما.. فماذا عن مريدي هيكل الذين اعتبروا أنفسهم تلاميذًا في مدرسته الأهرامية الكبرى.. وقال الكاتب صلاح الدين حافظ في السياق:

الأستاذ يستحق منا ومن كل تلاميذه الكثير ما هو أكثر وما هو أهم يستحق منا أن نعيد تذكير الأجيال الجديدة من الشباب بالدور المركب الذي قام به عبر عمره المديد دور الصحافي المتداخل مع دور السياسي مع الكاتب والمؤرخ والمفكر

المتطرف والنظر المترابط مع دور الممارس والحركي النشيط..الأستاذ جمع كل ذلك في إطار مهنة واحدة، غلفتها موهبة مبكرة لامعة مبشرة، صقلها بالدراسة والعلم والثقافة والقراءة والاطلاع، لأنه يؤمن بأن الصحافة مهنة متجددة، والثقافة نهر دافق لا ينضب، والعلم مسيرة دائمة الاندفاع، والموهبة مهما بلغت تموت إذا علاها صدأ الكسل والادعاء والسلبية والانعزال..يناقش ويحاور، يتفق ويختلف دون أن يخاصم أو يعادي،.. أما خلاف الرأي فلا يفسد للود عنده قضية، وكم عدد الذين اختلفوا مع أفكاره وكتاباته ومؤلفاته، نقدوه وهاجموه، وتصور كثيرون أن هؤلاء أصبحوا خصومه وأعداءه، لكننا نفاجأ بهم في محرابه زواراً وحضوراً ومشاركين ومحاورين، تصيبنا الدهشة لوهلة، ولكن لا يسود الاستغراب طويلا.

أما حين يتعرض أحد لمصداقيته أو يطعن في حقائق ما يكتبه ووثائق ما يورده، فإنه يثور ويحتد، ويرد بمزيد من الحقائق تدعمها الوثائق، التي احترف اقتناءها واستخدامها ونشرها في الوقت المناسب والمكان المناسب.

كنت شابا يافعا حديث العمل في مهنة الصحافة، حديث التخرج من دراسة الصحافة بجامعة القاهرة، حين التحقت بالعمل في الأهرام في الستينيات من القرن العشرين، بعد طواف قصير وسريع في أكثر من جريدة. وكانت الأهرام آنذاك قلعة هائلة، يتمنى كل صحافي أن ينظر إلى أسوارها من الخارج، ناهيك عن أن يلتحق بها ويدخل في نطاقها.. وكان الأستاذ هيكل محلقاً بجناحيه الصحافي والسياسي فوق القلعة حارساً وحامياً وقائداً، ناظراً لمدرسة جديدة في الصحافة المصرية والعربية.. بعد سبع عشرة سنة من دخوله الأهرام، خرج الأستاذ من الأهرام، بقرار سياسي أصدره الرئيس السابق أنور السادات، بعد خلاف شديد انتهى بخصومة حادة، وضعت هيكل في السجن فيما بعد.

وحين خرج هيكل من الأهرام في مارس ١٩٧٤، وتوقف نشر مقاله الأسبوعي الأشهر بصراحة، وفرض عليه الصمت وعدم النشر في أي جريدة مصرية، طرح

تصوران.

كان التصور الأول أن السمك خرج من الماء، وأن الأسد فقد عرينه ومعه سر قوته، وأنه ذاهب إلى الظل الأبدي.

وكان التصور الثاني، أن الأهرام الصحيفة والمؤسسة، بعد أن تركها هيكل، سوف تنهار، لكن الواقع أثبت غير ذلك، ونحن وغيرنا شهود، الذين اتفقوا معه والذين اختلفوا، فلا الرجل استسلم للعزل السياسي ولا كسر قلمه واستكان للأمر المفروض بقوة القرار الرئاسي، ولا هو تحصن بظلال الأمان بعيداً عن مسرح الحياة التي كانت تغلي آنذاك بالتطورات المفاجئة والمتغيرات الهاجمة والمخاطر الملحة. لكنه بحيويته وعناده وصلابته وديناميكيته، أصبح أكثر انتشارا وحضورا وتأثيرا، عبر منابر صحفية وإعلامية وسياسية عديدة، محليا وعربيا وعالميا.

ومن الصحف إلى الإذاعات والتلفزيونات، ومن الكتب والدراسات، إلى الندوات والمؤتمرات، من المشاركة الفعالة في المناسبات العامة والخاصة إلى تحدى فرض العزلة الإجبارية على قلم لا يعرف الصمت وعلى عقل يرفض الاستكانة ويخاصم الخمول.

وفي المقابل، لم تسقط الأهرام ولم يصبها الانهيار الذي توقعه كثيرون، بعد أن تركها هيكل. والسبب واضح وعميق، وهو أن هيكل ترك الأهرام مؤسسة متكاملة، ولم يتركها عزبة شخصية، أو إرثا عائليا.

لقد حول هيكل الأهرام من ملكية عائلية لآل تقلا، إلى مؤسسة عصرية تضم مدارس متكاملة، مدرسة صحافية مهنية، إدارة كفاءة، استقلال مالي، حزم تنظيمي.

وظلت قضية تحديث الصحافة، قضيته الرئيسة.. وكانت أهم ركائز هذا التحديث تقوم على أسس مهنية محددة أهمها..

– الاهتمام الشديد بالخبر الصادق المتكامل الذي يجيب على كل الأسئلة بأكبر قدر من المعلومات.

– التحقيق الصحافي الشامل، الذي يعنى بالقضايا الحياتية للشعب ويلبي حاجات القارئ.

– المقال المعلومات، وليس المقال الإنشائي، وقد أصبح المقال الأسبوعي لهيكل بصراحة نموذجا.

– إقامة شبكة من المراسلين للأهرام في عدد كبير من العواصم العربية والعالمية.

– تأسيس المراكز العلمية المتخصصة، مثل مركز الدراسات السياسية، الذي أنشئ لدراسة ومتابعة الصراع العربي الإسرائيلي، باعتبار الخطر الصهيوني أهم مهددات الأمن القومي المصري والعربي، ومركز الميكروفيلم، ومركز الدراسات الصحافية والذي كان ينظم فيه دورات لتدريب وتأهيل الصحافيين.

– الاهتمام بالصورة الصحافية والكاريكاتير، وأخبار العلوم، والرياضة بكل نشاطاتها.

– تشكيل مطبخ الجريدة الديسك المركزي من الكفاءات الصحافية البارزة، وكان هذا المطبخ هو الذي يشكل عقل الأهرام الحقيقي وقيادته الميدانية، ولذلك لم يكن غريبا أن يختار له هيكل أهم قيادات المهنة والحرفة الصحافية، وقد كان خبيرا في انتقاء الكفاءات من كل التخصصات. وكان الرئيس السادات يسمى الديسك مجمع الكرادلة (المجمع الموكول انتخاب بابا الكنيسة الكاثوليكية الجديد).

بينما لمعت في المجالات التحريرية أسماء أخرى كان هيكل يلقبها بالنجوم.

وقد أصبح كثير منهم رؤساء تحرير في أكثر من صحيفة ومجلة داخل مؤسسة الأهرام وخارجها.

مؤسسة الأكابر

يواصل صلاح الدين حافظ سرده لقصة هيكل التي لا يمكن أن تفصلها عن الأهرام.. وكأن الرجل هو المؤسسة.. والمؤسسة هي الرجل.. ويقول حافظ: وبقدر ما اجتهد الأستاذ في تأسيس مدرسة صحافية شابة وعصرية داخل الأهرام، بقدر ما عمل على بناء منارة ثقافية وفكرية تنطلق بإشعاعاتها التنويرية من داخل الأهرام أيضا.. هكذا تحول الطابق السادس من مبنى الأهرام الجديد في شارع الجلاء، إلى خلية ثقافية مشعة، تجمع الأفكار والإبداعات من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار وتتجمع فيها وحولها نخبة قيادة الحركة الثقافية في مصر، وكنا شباب الأهرام، نتسلل من الطابق الرابع إلى الطابق السادس، لنرى ونسمع حوارات كبار الكتاب ومشاهير المبدعين، نتعرف عليهم بشكل شخصي ومباشر، نقرأ أفكارهم على وجوههم، نضحك أحيانا في حضرتهم وهم يتندرون فترن قهقهاتهم العالية الرقراقة، منعكسة علينا.

ولم يكن هذا ليحدث إلا بقدرة هيكل على استقطاب كبار الكتاب والمفكرين لينعم قارئ الأهرام بإبداعاتهم، حتى تلك التي تختلف مع السياسات العامة للدولة.

هكذا تجمع في الطابق السادس من منارة الأهرام الثقافية.. الأساتذة العظام توفيق الحكيم. ونجيب محفوظ، وحسين فوزي، وزكي نجيب محمود، وبنت الشاطئ، ويوسف إدريس، وصلاح طاهر، وأحمد بهاء الدين، وصلاح جاهين، ولويس عوض، وبطرس غالي، ولطفي الخولي، ورشدي سعيد، وغيرهم.

فضلا عن استضافة كتاب وفلاسفة ومفكرين وقادة عالميين من مختلف الدول، في رحاب الأهرام وتحت مظلة حواراته وندواته.

وعلى صفحات الأهرام، وبتشجيع من رئيس التحرير، انطلقت إبداعات هؤلاء العظام وغيرهم، واتسعت صفحات الأهرام لآراء وأفكار لم تكن جريدة أخرى في مصر أو في الوطن العربي، تجرؤ على نشرها آنذاك، بحكم ما حملته من نقد علني واعتراض صريح، كان البعض من أجنحة السلطة يعتبرها معادية للنظام، لكن إيمان هيكل بحرية الرأي والتعبير والاعتقاد والإبداع، فرض الحماية الكافية على مثل هذه الآراء والإبداعات، من بنك القلق للحكيم إلى أولاد حارتنا لنجيب محفوظ وغير هذا كثير، مما قرأه الرأي العام خصوصا في ستينيات القرن الماضي.

على أن هذا التسامح مع حرية الرأي والإبداع، لم يمر على الأهرام ورئيسه بأمن وسلام، لكنه عرضهما لمعارك وصراعات مشهودة، واجه فيها هيكل وكتيبة الأهرام هجوما عدائيا من دوائر حكومية قوية ونافذة، الأمر الذي فتح معارك غير تقليدية انعكست أحيانا على صفحات الأهرام، وكان لها دوي شديد، زلزلت أركانا عالية وهدمت أسوارا كانت منيعة.

وهكذا فتحت مقالات هيكل ملفات ساخنة في صراعه ومعاركه، مثل مجموعة مقالات أزمة المثقفين والثورة، ومقالات سقوط دولة المخابرات وغيرها، من تلك المقالات التي اقتحمت كثيرا من المحرمات، الأمر الذي جر المشاكل العويصة على هيكل والأهرام في أكثر من مناسبة، لكنه صمد وقاوم، ليس فقط لقوة علاقته بالزعيم الراحل جمال عبدالناصر، ولكن أيضا لأنه عميق الإيمان بحرية الرأي والتعبير والإبداع، ورغم أن خصومه طالما اتهموه بنقيض ذلك، أي احتكار حرية الرأي، والعمل على حرمان منافسيه منها!!

وهو نموذج نادر في زمن تتطوح فيه الرؤوس الكبيرة طمعا في منصب أو بحثا عن ثروة، أو اتقاء لغضب مسؤول أو تهافتا لنفاق مسؤول. وهو بهذه المواصفات، نموذج قد يستحق دراسة أعمق وتقييما أدق، وتقويما أفضل لفكره وإنتاجه الغزير والوفير.

شهادة للتاريخ

يعترف صلاح الدين حافظ بانحيازه لهيكل ومع ذلك يدلي بشهادته في حق أستاذه للتاريخ ويحلل الشخصية في نقاط محددة.. وقال: من الإثم كتمان الشهادة، ومن ثم بقي أمامنا ثلاث محطات مؤثرة، ومعها ثلاثة انطباعات ختامية، نحاول بها ومن خلالها اختتام الشهادة بما حوته من عوامل موضوعية وانطباعات شخصية.

- المحطة الأولى: عرفت الأستاذ في مرحلتين من مراحل حياته، المرحلة الأولى حين دخلت الأهرام وكان هو رئيس التحرير الأكثر شهرة وسمعة ونفوذا وقوة، وعملت تحت رئاسته في زمن كان يطلق عليه الصحافي الأوحد والكاتب الأوحد الذي نجح في نسج علاقة شخصية وقوية مع عبدالناصر بنى فوقها كنزاً من الثقة، واستمد منها قوته ونفوذه في الصحافة وعلى الصحافة.

والفارق بين محرر شاب صغير السن قليل الخبرة، وبين رئيس تحرير هو الأشهر والأقوى، كان هو الذي صاغ العلاقة المهنية والوظيفية البحتة، بين رئيس ومرؤوس.

واعترف أنها علاقة شابها كثير من الرهبة الممزوجة بالإعجاب، التمرد المختلط بالخوف، الكبرياء الظاهر الملتبس بالتواضع الداخلي.

واحسب أن كثيرين غيري من أجيال الأهرام في تلك الأيام، عانوا ما عانيت من مشاعر مختلطة تجاه الرجل. الأسطورة، بشخصيته المنضبطة ومشيته العسكرية وأوامره الحاسمة وتعليقاته القاسية أحيانا.. وهي مشاهير عبروا عنها أحيانا بالصمت والغيظ المكتوم، وأحيانا أخرى بالتمرد شبه العلني.

في المرحلة الثانية، عرفت الجانب الآخر من شخصية الأستاذ، وكان ذلك في مرحلة ما بعد خروجه من الأهرام، وأظن أنها المرحلة الأهم والأعمق في حياته

وعلاقته.

المؤكد أن تحولات قوية قد حدثت في حياته الشخصية وفي تصرفاته العامة، بل وفي طرق تفكيره، وان ظل الإطار العام لسلوكه كما هو، وكما عرفناه في المرحلة الأولى، سواء من حيث التنظيم ودقة التفكير وتعمق البحث، أو من حيث الانضباط والصراحة والحسم.

في المرحلة الثانية برزت الجوانب الإنسانية في شخصيته، بديلا لمستلزمات القيادة من حسم وقوة تصل أحيانا إلى درجة المواجهة والتجهم.. عادت إليه رقته الصافية وروحه الودود واقترابه أكثر من قلوب الناس ومشاعرهم، بدلا من الاعتماد المطلق على العقول وضوابطها الصارمة في المرحلة الأولى.

هيكل في المرحلة الأولى أكثر إقناعا للعقول، وهيكل في المرحلة الثانية أكثر التصاقا بالقلوب.

- المحطة الثانية: منذ أن برز اسم هيكل في الصحافة المصرية، ومنذ أم ذاعت شهرة مقاله الأسبوعي بصراحة أصبح الرجل شخصية خلافية، تجتذب الكثير من إعجاب المعجبين، وتستفز الكثير من غضب المعارضين.

وعلى مدى العقود الخمسة الأخيرة، ظلت شخصية الرجل تثير الجدل والحوار، بين مؤيديه ومعارضيه، ومازالت، ونحسب أن أحد أهم أسباب ذلك، هو أن الأستاذ رغم إصراره حتى الآن على انه صحافي فقط، هو قدرته الفائقة على الجمع بين ثلاث مهام، ونعني مهام الصحافي والسياسي والمؤرخ.

لقد بدأ صحافيا محترفا دخل دوائر سياسية كثيرة في العصر الملكي ثم في العصر الثوري، لكن علاقته الوثيقة والمبكرة بالزعيم جمال عبدالناصر جذبته إلى عمق دوائر صنع السياسة ذاتها في عصر التحولات الكبرى بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، فاختلط دور الصحافي بدور السياسي، خصوصا في ظل تأثير المهام التي

كان يقوم بها- سرا وعلنا- بتكليف من عبدالناصر، وفي ظل حالة الحوار بينه وبين الرئيس، والتي من خلالها تأثر وأثر، أفاد واستفاد، بل وفي ظل حالة الغيرة التي جلبت عليه خصومة وعداوة آخرين، سواء في السياسة أو في الصحافة.

ورغم أن الحالتين- الحوار والغيرة- استمرتا طوال فترة عبدالناصر، وضعفت خلال الفترة الأولى لحكم السادات، وصولا للقطيعة في عام ١٩٧٤، إلا أن الرجل لم ينج من حسد حساده ومن حملاتهم المضادة، الناتجة من غيرة صحافية من ناحية وغيرة سياسية من ناحية أخرى، وغيرة شخصية قبل وهذه وتلك.

غير أنه اتساقا مع شخصيته العنيدة والمتحدية، أضاف سبباً آخر لغيرة جديدة، هي الغيرة الأكاديمية، حين اقتحم مجال التاريخ لثورة يوليو خصوصا، وانقسم الرأي حول أعماله وكتبه، تيار يرى أنه مؤرخ الثورة، يروي ما عرف وشاهد وسمع وعايش، يسند ذلك بمجموعة هائلة من الوثائق الرسمية التي حصل عليها، بحكم علاقته الوثيقة بقمة السلطة في مصر، وتيار مناقض يرى أنه صحافي كبير يروي التاريخ الذي عايشه بعين الصحافي ومشاعره، وليس بعقل المؤرخ وضوابطه، ولذلك جاءت كتبه في معظمها منحازة خضعت لعواطفه ومشاعره، أكثر مما خضعت لضوابط التاريخ العلمية والموضوعية.

وفي كل الأحوال أصبح هيكل الذي جمع بين دور الصحافي ودور السياسي ودور المؤرخ، موضع جدل ولا يزال.

- المحطة الثالثة: وأظن أن هذه تعني فترة زمنية طويلة، من حياة هيكل في الصحافة والسياسة، هي بالضبط الفترة التي بدأت مبكرا، بتوثيق صلاته وبناء علاقاته مع جمال عبدالناصر، القائمة على ثقة متبادلة ومنافع متبادلة، ثقة بين الرئيس والكاتب والصحافي، أو بالمعنى التراثي القديم بين السلطان والمثقف، كانت هي التي صاغت العلاقة القوية التي ربطت بين الرجلين إلى درجة الصوفية.

علاقة الثقة المتبادلة، هي التي مكنت عبدالناصر من الاطلاع على مجريات

الأمور وتطورات الأحداث الداخلية والخارجية، من خلال عين هيكل وبصيرته الصحافية واسعة الاطلاع وهي بالمقابل التي مكنت هيكل من الاطلاع على أدق أفكار الرئيس وأسراره وتوجهاته، بل والاشتراك من خلال حالة الحوار المستمرة، في صياغة بعض هذه الأفكار والتوجهات.

وقد جلبت هذه العلاقة الدقيقة، على هيكل مشاكل وأزمات كثيرة، كان بعضها يظهر على استحياء خلال حكم عبدالناصر، لكن الجزء الأهم منها تفجر كالبراكين في وجهه بعد غياب عبدالناصر، وتولي السادات الحكم بفكر مختلف وتوجهات مغايرة ورجال من نوعية أخرى.

ولقد ظهر واضحا آنذاك مثلا أن الحملات المتتالية التي شنها بعض أقرب رجال السادات على هيكل منذ البداية، كان هدفها النهائي الهجوم على عبدالناصر، كما أن حملات التطاول على عبدالناصر لتحطيم صورته السياسية الشعبية الأسطورية، وتشويه سمعته حتى الشخصية، كانت تصب في النهاية في محاولة تدمير سمعة هيكل السياسية والصحافية.

ولعل مراجعة ما كتب في الصحف خصوصا خلال أعوام ٧٤-١٩٧٧ ضد الرجلين يثبت ذلك، عبر محاولة لتحطيم الأصنام. كما قال أحدهم علنا.. فماذا كانت التهمة الموجهة للرجلين، التي جرى الترويج لها!!

ببساطة التهمة التي ألصقت بعبدالناصر أنه ديكتاتور تحول إلى نصف إله، والتهمة التي وجهت لهيكل، أنه هو الذي أله الديكتاتور بكتاباته وتطوعه بالترويج لأفكاره والدفاع عن سياساته.

وأظن أن هذا الموضوع بالتحديد، هو أكثر ما شغل تفكير مناصري عبدالناصر ومحبي هيكل، لكن أحدا من هؤلاء وأولئك لم يبذل مجهودا فكريا نقديا تحليليا موضوعيا – حتى الآن – لهذه العلاقة المركبة بين رجلين بارزين حافظا معا على

سر المهنة دون إفشاء، الأمر الذي زاد حيرة المعجبين، مثلما زاد حدة هجوم المعارضين.

وأحسب أن فك شفرة العلاقة بين عبدالناصر وهيكل، سوف يساعد كثيرا في فهم طبيعة العلاقة بين الحاكم والمثقف في هذا الزمان، حيث تختلط الحقائق بالأوهام، بينما نحن في حاجة إلى كثير وكثير من الحقائق أولا وأخيرا.

انتهت مرافعة صلاح الدين حافظ في حق هيكل.. وفي الجراب حواديت ساخنة سوف تأتي في حينها..



الخطابـات الخاصـة من لنـدن إلى سجن طرة تكشف المستور!!

ماتزال حكاية هيكل مع مصطفى وعلي أمين.. وأيضا مع أنور السادات هي المحور الذي ندور حوله وكلما شعرنا بأن اليد قد قبضت على أول الخيط، أدركنا أن خلف الحكاية حكايات. وفي كتابه بين الصحافة والسياسة في الفصل الخامس يحكي قصة مصطفى وعلي أمين.. تحت عنوان من لندن إلى طره وفيها يكشف سر اعتذاره عن قبول منصب وزير الإرشاد القومي.. وقال في هذا الفصل: في ربيع سنة ١٩٧٠ رأى جمال عبدالناصر أن أكون وزيراً للإرشاد القومي- وزارة الإعلام الآن- إلى جانب عملي في الأهرام، وحاولت أن أعتذر، وأرسلت له بالفعل خطاب اعتذار، ثم لم يكن في النهاية مناص من القبول بعد أن قال لي: إننا مقبلون على فترة بالغة الدقة، فهناك معركة عسكرية أكبر من حدود الاستنزاف، ثم إن هناك عملاً سياسياً يسبقها ويمشي معها ثم يواصل بعدها إلى تحقيق أهدافها.

وكنت أعرف أن خطة جرانيت (١) قد وضعت وعرضت للتصديق (عبور قناة السويس بخمس فرق على ثلاثة محاور)، وأنه طلب تطويرها إلى غرانيت (٢) (العبور والوصول والتمسك بخط المضايق). وكان من كلامه يومها أنه إذا سارت الأمور وفق تخطيطه وتقديره فهو يتوقع المعركة في ربيع ١٩٧١، وإذا وصلت القوات المصرية إلى المضايق فإن الحرب في واقع الأمر تكون قد انتهت لصالح العرب، ووقتها استطيع أن أترك المنصب الوزاري- لكنه طوال هذه السنة يريدني معه في مجلس الوزراء ووزارة الإرشاد القومي، ولم يكن هناك سبيل آخر إلا القبول بما أراد.

وهكذا وجدت نفسي سنة ١٩٧٠ في منصب اعتذرت عنه من قبل أربع مرات.. في ١٩٥٦ و ١٩٥٨ و ١٩٦١ و ١٩٦٧- كانت الظروف الآن مختلفة وضرورات المعركة تسبق كل الأولويات.

وبدأت أتعرف على الوزارة وعلى طبيعة عملها وعلى كبار مسؤوليها..باختصار كان بين من لقيتهم وقتها السيد عبدالخالق شوقي وكان مسؤولا في المخابرات

العامة ومنتدباً للعمل في وزارة الإرشاد القومي- يشغل منصب الرقيب العام، وكانت الرقابة وقتها- ولا تزال- تابعة لوزارة الإرشاد أو وزارة الإعلام.

وكان شوقي رجلا يوحي بالثقة والكفاءة. وجلست أسمع منه تفصيلا كما فعلت مع غيره من أركان الوزارة- وسلمني خلال الحديث مجموعة من الملفات للاطلاع، وألقيت نظرة سريعة عليها وإذا أحدها يحمل عنوان رسائل من على أمين إلى مصطفى أمين.. وأبديت استغرابي وكان تفسير شوقي أن الرسائل الواردة من الخارج تخضع- بسبب ظروف الحرب- للرقابة، وهو اختصاص وزارة الإرشاد. ثم إنهم لاحظوا في الرقابة أن خطابات علي أمين من الخارج إلى توأمه في سجن طره، تحوي ما هو أكثر مما تحتويه عادة خطابات شخصية. فالأستاذ علي أمين بالطبع يعرف أن هناك رقابة ومن هنا فإنه يضمن خطاباته تقارير ومعلومات أو أراء يريدها أن تصل إلى السلطة في مصر. وبصرف النظر عن الدوافع إلى ذلك؛ أو عن مدى الصدق أو القصد في هذه التقارير، فإن الرقابة تحتفظ بصور من هذه الخطابات- قبل تسليمها إلى المرسل إليه- لكن تدرس باهتمام لمحاولة تقصي ما يمكن أن يكون وراءها من أهداف.

ومع مرور الأيام- ولعدة شهور في منصب وزير الإرشاد القومي- تجمع لدي عدد لا بأس به من خطابات الأستاذ علي أمين إلى توأمه. ولم تتح لي الظروف أن أطلع على صور هذه الرسائل تباعا، وتراكم بعضها فوق بعض داخل ملف راح يتضخم أسبوعا بعد أسبوع.

ووجدته في متناول يدي ذات ليلة في أوائل سنة ١٩٧١ وعادت إلى ذاكرتي قصته.

كانت الأحداث قد استغرقتنا بالكامل طول عامي ٦٩ و٧٠.

قامت ثورة في السودان ثم ثورة في ليبيا، واشتدت حرب الاستنزاف، ثم كانت

مؤتمرات للقمة في المغرب وليبيا، ثم جاءت زيارة موسكو السرية في أوائل سنة ١٩٧٠ وأعقبها الاتفاق على تكثيف الوجود العسكري السوفيتي في مصر رادعاً ضد غارات العمق وتخطيطاً لرفع أزمة الشرق الأوسط من المستوى الإقليمي بين مصر وإسرائيل إلى المستوى الدولي أيضاً بين القوتين الأعظم، ثم مبادرة روجرز، والمشكلة الحادة بين الثورة الفلسطينية وحكومة الأردن، ثم لقاءات جمال عبدالناصر في الإسكندرية مع الملك حسين ثم مع ياسر عرفات، ثم انفجار الموقف في عمان، ثم القمة العربية الموسعة في فندق هيلتون النيل، ثم رحيل جمال عبدالناصر، ورئاسة أنور السادات، ثم تصميمي- بلا أدنى مجال لمعاودة النظر- على الخروج من الوزارة والتفرغ الكامل للأهرام.

خلال هذه الأحداث الهائلة لم يكن لدى أحد وقتا يشغل فيه نفسه- ولو لدقائق- بشيء آخر غير الهم العام، وأما الهم الشخصي فقد كان عليه أن ينتظر.

ثم جاءت تلك الليلة التي وجدت فيها ملف صور هذه الخطابات في متناول يدي. كنت أرتب أوراقاً في مكتبتي ثم شدني عنوان ملف في ركن، وتذكرته، ووجدتني أمد يدي إليه مدفوعاً- أعترف- بنوع من الحنين للماضي وذكريات أيام خوال.

لقرابة سنة لم أكن قد سمعت من الأستاذين مصطفى وعلي أمين ولا سمعت عنهما إلا إشارات عابرة إلى الأستاذ علي أمين بدا بعضها غامضا، فقد أشار جمال عبدالناصر أكثر من مرة إلى اجتماعات يحضرها في لندن مع السيد كمال أدهم وآخرين غيره!

ولعدة ساعات رحت أقلب الصفحات وأتأمل. بدت لي هذه الخطابات إضافة جديدة إلى القصة. ورحت وأنا أقرؤها أتبين ما يشبه إيقاعات مجددة ومتكررة في كل خطاب كأنها لزمات تتردد مع كل مقطع.

كل خطاب كان فيه مديح لجمال عبدالناصر وحكمته وشجاعته وزعامته.

كل خطاب كان يحمل على الأقل جملة ثناء موجهة إلي.

كان يسترسل في أخبار وآراء معظمها مما تنشره الصحف البريطانية لكنه قد يبدو معلومات جديدة في عيون هؤلاء الذين لا يتابعون هذه الصحف.

كل خطاب يحوي مقترحات واجتهادات ليست موجهة بالتأكيد إلى الأستاذ مصطفى أمين وإنما إلى غيره، كأنما كتابة التقارير للسلطة قد أصبحت نوعاً من الإدمان.

ثم يستطرد في كل خطاب بعد ذلك إلى مجموعة أخبار شخصية وحكايات مسلية.

أسرار عن جمال

ويواصل هيكل قراءة خطابات علي أمين من لندن إلى أخيه مصطفى في سجنه بطره.. وقال فيها الكثير: إن كفة العرب هي الراجحة والعالم كله يرى أن جمال عبدالناصر قادر على جمع كلمة العرب وحشدهم جميعاً للمعركة وأنا متفائل بسنة ١٩٧٠ فإن حالة إسرائيل الاقتصادية أصبحت سيئة للغاية، فالحرب تكلفها كثيرا ولن تستطيع الصمود.

(خطاب بتاريخ ٨ يناير ١٩٧٠)

إن إسرائيل مذعورة من قوة جمال عبدالناصر والأخبار التي تتلقاها لندن أخيرا من إسرائيل هي أن الذعر ليس حركة تمثيلية كما تصورت لندن في أول الأمر، بل إن هناك ذعرا حقيقيا وأن ساسة إسرائيل بدأوا يقتنعون بأن الموقف العسكري قد يتحول ضدهم في أي لحظة.

(خطاب بتاريخ ١٠ مايو ١٩٧٠)

إن إسرائيل عصبية وغير راضية عن مبادرة روجرز لكنها ستخضع في نهاية الأمر خصوصا بعد تساقط الفانتوم على الجبهة المصرية وازدياد قوة الجيش

المصري والدعم السوفيتي له.

إن موافقة مصر على المبادرة وخطاب الرئيس جمال عبدالناصر قد أحدث دوياً في جميع عواصم أوروبا وفى واشنطن ولندن.

(خطاب بتاريخ ٢٥ يوليو ١٩٧٠)

لن تتردد واشنطن في الضغط مرة أخرى على إسرائيل بعد أن تأكدت من قوة عبدالناصر في المنطقة. إن كل موظفي الخارجية البريطانية يؤكدون اليوم أن عبدالناصر هو سيد الموقف.

(خطاب بتاريخ ٢ أغسطس ١٩٧٠)

إنني سعيد لتعيين هيكل وزيرا للإرشاد القومي. إن الصحافة المصرية تحتاج اليوم إلى عملية تجديد شباب وأنا واثق أن هيكل سوف ينجح وكثيرا ما دعوت له بالتوفيق. إن اختياره سوف يريح صحافة العالم التي كانت تشكو مر الشكوى من عدم تعاون الحكومة المصرية مع مراسليها ومندوبيها، وبتعيين هيكل وزيرا للإرشاد فأنا واثق أن القاهرة سوف تصبح مرة أخرى مركزاً لمراسلي صحف العالم في الشرق الأوسط.

(خطاب بتاريخ ٢٧ أبريل ١٩٧٠)

إنني أوافق هيكل على ما كتبه عن ضرورة نقل أكبر قسط ممكن من الحقيقة للشعب لتفويت الفرصة على إذاعة إسرائيل. إنني مع هيكل في أنه ليس ضرورياً أن نقول كل شيء حتى لا يستفيد العدو من الصراحة الكاملة وإن كان من الضروري أن نقول أكبر قدر من المعلومات.

(خطاب بتاريخ ٩ يوليو ١٩٧٠)

يتردد في هوايت هول أن هيكل يفكر في زيارة لندن والاجتماع بسير إليك هيوم وزير الخارجية والمستر هيث رئيس الوزراء، وأعتقد أن زيارة هيكل مفيدة جداً

حيث لا اصطدام الآن بين مصالحنا ومصالح الانكليز في المنطقة.

الخطاب الخطير

(خطاب بتاريخ ١٦ أغسطس ١٩٧٠) ويتوقف هيكل أمام آخر خطاب في ملفات علي ومصطفى أمين.. ويسرده كاملا.. ويبدو أننا أيضا لن نستطيع تلخيصه أو اقتطاع أجزاء منه خاصة أن هذا الخطاب تم إرساله من لندن إلى سجن طره بعد وفاة عبدالناصر.. لان هذا الخطاب كما قال هيكل يلخص كل شيء.. بعد أن أصدر مصطفى أمين كتابا نشر فيه مراسلات الأخوين وقد لاحظ هيكل أن تواريخ الخطابات ليست دقيقة وبعضها تم نشره بأثر رجعي.. والخطاب يرجع تاريخه إلى ١١ أكتوبر ١٩٧٠ وكان نصه كما يلي: أخي العزيز مصطفى.. انني في بعض الأيام استيقظ من نومي وأتصور أن وفاة جمال عبدالناصر كان مجرد كابوس ثم اكتشفت إنها حقيقة مرة. وأفزع من الفراغ الضخم الذي تواجهه بلادي، وأحاول أن أبحث عن طريقة نسد بها هذا الفراغ.

والمهم الآن هو كيف نحتفظ بزعامة مصر... وأفضل أن نحاول أن نكسب كل الدول العربية وندعم علاقتنا بها.. والدولة العربية الوحيدة القادرة على حماية استقلال الكويت من مطامع العراق هي مصر. ومن مصلحة الكويت أن تدعم علاقتها بمصر، ومع ذلك فإن من رأيي أن تحاول القاهرة أن تبدأ هذه الخطوة، وأن تشعر الكويت بتأييد القاهرة المطلق لها. ولقد بدأت الكويت تتخوف من تسلل الفلسطينيين إلى الكويت، وبدأت تحاول ركن الفلسطينيين الذين كانوا يشغلون مراكز حساسة. والكويت في أشد الحاجة إلى عمال وموظفين وخبراء، ومن واجبنا أن نسارع بكسب ثقة حاكم الكويت حتى يعود إلى فتح أبوابه لنا. ويهمني أن نحافظ على علاقاتنا القوية بجماعة فتح وقد خرجت من معارك الأردن جريحة وهي في حاجة إلى مساعدتنا ومساندتنا. واعتقد أن ذلك في استطاعتنا الآن. كما أنه يجب أن نطمئن الملك حسين. وهذا الاطمئنان سيزيل شكوك الملوك

العرب نحو نوايانا... كما يجب أن نقوي علاقتنا بإيران. وأن ندعم صداقتنا بحكام الخليج العربي، ونعيد الاطمئنان إلى قلوبهم..

كما يجب أن نشجع صائب سلام. فهو في حاجة إلى تأييد القاهرة. كما أن رئيس الجمهورية فرنجية في حاجة إلى مساندتنا.

وأعتقد أنه من الممكن وضع سياسة لكسب بومدين والملك حسين وحتى بورقيبة.

يبقى بعد ذلك العراق وسورية. وأنا شخصياً لا أستطيع أن أتصور أن في استطاعتنا كسب الحكم الحالي في البلدين. فلقد تحول حزب البعث في السنوات الأخيرة إلى عصابة.. وليس من السهل التفاهم مع عصابة. ومع ذلك فلا يجوز إهمالهما. إن المصلحة تقتضي أن نحاول كسبهما. وإنني أحس بأن النظامين في سورية والعراق لن يعيشا طويلا.. ومع ذلك أرى مهادنة النظامين وعدم الدخول في معارك سياسية معهما. ونحاول أن نضمد كل جرح قبل أن يستفحل. وليس هذا سهلا، فإن بعض تصرفات البعث تحرق الأعصاب، ولكننا في حاجة اليوم إلى وضع كل أعصابنا في فريجدير. ويهمني أن نحافظ على ثقة الاتحاد السوفيتي بنا، ولكني أرى في نفس الوقت أن مشكلتنا مع إسرائيل تقتضي تحسين علاقتنا بالولايات المتحدة. وهذا أيضا يحتاج إلى قوة أعصاب، فإن السياسة الأميركية ترتكب حماقات غريبة، تدل على ازدياد جهلهم بالشرق الأوسط. وآخر حماقة هي ما نشرته جريدة نيويورك تايمز من أن الولايات المتحدة اتفقت في وقت من الأوقات مع إسرائيل على ضرب الدبابات السورية التي دخلت الأردن! ومع هذه الحماقات فإنني أرى أن من الممكن تحسين علاقاتنا مع الولايات المتحدة حتى تضغط على إسرائيل وتضطرها إلى قبول حل يرضاه العرب.

كما يجب أن ندعم علاقاتنا بفرنسا وبريطانيا.. وأن نبحث جديا في إعادة العلاقات مع ألمانيا الغربية. فإننا اليوم في حاجة إلى بناء عدد كبير من الكباري بيننا

وبين جميع الدول حتى نحاصر إسرائيل، ونحول بعض أعدائنا إلى أصدقاء، والباقي إلى محايدين. وهذا يتطلب نشاطاً دبلوماسياً ضخماً، وهذا النشاط يتطلب تعزيز سفاراتنا في الخارج بعدد من الكفايات، وتحريك عدد من المصريين بين عواصم العالم.

وفى حاجة أيضا إلى كسب عدد من كبار الصحافيين حتى نحافظ على مركزنا في الرأي العام العالمي. وهذا يحتاج إلى إعداد ضخم، وإلى تنظيم واسع النطاق. يجب أن يعرف العالم أن الكارثة أدمت قلوبنا، ولكنها لم تكسر عمودنا الفقري. وإننا لا نزال نقف على أقدامنا. وهذه الاقتراحات هي مجرد الحجر الأساسي للبناء الذي علينا جميعاً أن نشترك في إقامته... وعملية البناء ليست سهلة ولكنها ممكنة.

ومع أنني أدعو بلادي إلى ضبط أعصابها مع حكومتي البعث في سورية والعراق، إلا أنني لم أستطع أن أتحكم في أعصابي منذ أيام لما هاجم راديو بغداد أبوعمار زعيم الفتح واتهمه صراحة بأنه خائن لأنه وضع يده في يد الملك حسين! والسر في هذه الحملة هو إصرار الأردن ولبنان على اعتبار فتح هي الهيئة الرسمية الوحيدة للفدائيين وعدم الاعتراف بغيرها، وشعور بعث العراق أن باقي الدول العربية ستركز تأييدها على فتح في المستقبل. وهذا الاتهام الرخيص الذي توجهه بغداد إلى فتح الغرض منه بذر بذور الفتنة من جديد بين الفدائيين ولن يكسب أحد من هذه الحملة سوى إسرائيل. ومع ذلك فإنني أعود وأرجو بلادي أن تضبط أعصابها، وتحاول أن تحرج بغداد بحلمها وتسامحها. فإنه ليس من مصلحتنا في الوقت الحاضر الدخول في معارك مع أي دولة عربية.

انتهى إضراب حمالي الصحف الذين كانوا يقومون بنقل صحف لندن إلى الباعة ومحلات بيع الصحف، بعد أن تم الاتفاق على زيادة أجورهم بنسبة ٣٠٪ وعادت الصحف إلى الظهور في الشوارع والأوتوبيسات والبيوت. ولكن فليت ستريت

يعاني أزمة شديدة، فقد ثبت أن هناك ١٢ جريدة تظهر في لندن، وأن واحدة منها فقط هي التي تربح! وقد قررت جريدة التايمز رفع سعرها ٩ بنسات إلى شلن! وكان ثمن الجريدة قبل الحرب بنسين فقط.. وهكذا ارتفع سعرها ٦ مرات في الثلاثين سنة الأخيرة وستشمل الزيادة أغلب الصحف الأخرى.. لكن الصحف المسائية تكسب.. أما جريدة الصن فقررت نشر كتاب جنس لزيادة مبيعاتها وآخرها كتاب أميركي لمؤلفة اسمها جوان جاريتي وفيه نصائح للمرأة كيف تثير زوجها . فهل قصد هيكل بنشر الخطاب كاملا أن يكشف أسلوب تفكيْر الأخوين مصطفى وعلي أمين الذي يعتمد على خلطة مثيرة بصرف النظر عن كونها سياسية أو جنسية وثقافية.. واجتماعية.. أم أن الأسلوب الصحافي كان هو سيد الموقف في هذا الحكي التفصيلي لمجمل الحياة في لندن وقد أراد على بهذا أن يسلي شقيقه في سجنه وبالمرة يسرد له تقريرا مفصلا عن الحياة السياسية بعين مختلفة من خارج بلاد العرب لكن المفاجأة أن الخطاب تضمن تنبؤات سياسية وقعت بالفعل في سورية والعراق بعد أكثر من أربعين عاما!



إبراهيم سعده يتهم الأستاذ بأنه وراء سجن مصطفى أمين .. ورفض الشهادة معه !!

ترك هيكل خطاب علي أمين الذي أرسل له من لندن إلى أخيه مصطفى المسجون في طره بتهمة التجسس كما هو.. رغم ما فيه من تفاصيل تبدو أحيانا تافهة.. وكان يقصد إحراج مصطفى الذي نشر مجموعة من هذه الخطابات بأثر رجعي أي بتواريخ قديمة تدخل فيها وكما جاء في كتاب هيكل بين الصحافة والسياسة.. ولكن هل يمكن أن نتجاهل حجم المعلومات التي وردت في الخطاب ؟!.. ودعونا نستكمل باقي الخطاب لأنه أشبه بوقود في معركة مشتعلة .. يقول علي أمين في نهاية خطابه الذي جاء بتاريخ ١١/ ١٠/ ١٩٧٠:

** وإنني أحس كما قلت لك في خطاب سابق أن عمر البعث قصير في سورية والعراق، ولذلك لا أستبعد أن تدخل صحفنا المصرية من جديد إلى سورية والعراق خلال العام القادم.

فإنني متفائل أن بلادي ستنجح في تضميد جروح المنطقة، وفي فتح الأبواب التي أغلقت في وجوهنا. وأعتقد أن في استطاعتنا أن نزيل هذه المخاوف تدريجياً، إذا تحكمنا في أعصابنا، وإذا أحسنا لعب الورق الذي في يدنا.

مضت مدة طويلة لم أسمع فيها أخبارك، إنني أريد أن أطمئن على صحتك وعلى روحك المعنوية، وأرجو أن أسمع قريبا أن متاعبكم قد انتهت، وأن الابتسامة قد عادت إلى شفتيك. كنت أتمنى أن تكون بجانبي في هذه اللحظات الدقيقة التي تمر بها بلادنا. كنت أتمنى أن نمشي جنبا إلى جنب في الصالون نفكر في بلادنا ومتاعبها وأزماتها، وكيف نساعدها على أن تضمد جراح قلبها، وتقف على قدميها من جديد، كنت أتمنى أن نساهم في تجميع الرأي العام العالمي حولها وفي كسب عدد من كبار الصحافيين إلى جانب قضيتها العادلة. كنت أتمنى أن نفكر لها ونحلم لها. وإنني أحس أن هذا اليوم قريب. وأحس أن بلادي ستستعين قريباً بكل القادرين على الدفاع عنها وشرح عدالة قضاياها... الإمضاء علي أمين.

وتبدأ الأسئلة

وفي الفصل السادس يبدأ تعليق هيكل على خطابات الأخوين.. وقد ظل ساهرا

ليلة كاملة يقرأها ويسأل نفسه: ما كل هذا الذي قرأته؟ والذي قرأته ورأيته ولمسته قبله؟ وقبله؟ ماذا يعني هذا كله؟ وما القصد منه؟ وماذا وراءه؟ وماذا بعده؟ وأين الصدق؟ وأين الزيف؟ وأين فيه التعمد المقصود وأين العفوي التلقائي! معنى ذلك أن «علي» كان يكتب وهو يعرف مقدما أن عبدالناصر سوف يقرأ هذه الخطابات أي أن ما فيها محاولة غير مباشرة لمغازلة الرجل عند بعد.

هيكل يجيب عن الأسئلة بسؤال لكنه قبل ذلك يوضح في الهامش أن مشكلة مصر بين عهدي عبدالناصر والسادات أن الأول كان يقرأ حتى بعض ما لا يستحق القراءة والثاني لا يقرأ ما لابد له أن يقرأه ويسأل : هل قرأ جمال عبدالناصر هذه الرسائل؟ وماذا كان تعليقه؟ وما الذي استنتجه منها؟

كنت أرجح أنه قرأها كما قرأتها، وربما سبقني في أنه قرأها قبلي في أوانها، فقد كان يقرأ كل شيء في أوانه، وكان له جلد غريب على المتابعة، وتذكرت أنه كان في وضع يسمح له أن يرى جانبي الطريق بين لندن وطره والعكس.. اختصاصي كوزير للإرشاد أن أتلقى ما هو قادم من لندن. وكان الاختصاص في تلقي ما هو صادر عن طره عائداً إلى مصلحة السجون ووزارة الداخلية، وقد عرفت أن مصطفى كان يضيق صدره أحيانا برسائل علي. يكتب له من لندن والريفييرا واسبانيا، ثم يقول له في نهاية كل خطاب إنه يحس بقدوم الفجر ويصرخ مصطفى في ردوده بأنه لا يرى فجراً ولا هباب! ولم أعرف ولا سعيت لأعرف أكثر. وكان مكتبي مصب وزارة واحدة.. وأما مكتب جمال عبدالناصر فكان مصب كل الوزارات.

وإذن فقد كان أمامه أن يرى كل شيء إذا كان يريد أن يراه.. ولكن هل رأى؟ ثم ماذا؟ وكيف؟ وهل؟ إلى آخره... أسئلة كثيرة دون إجابة مؤكدة!

بمحض المصادفة جاءت إلى مكتبي ورقة لفتت نظري على الفور لأنها تحمل في أعلاها تأشيرة بخط جمال عبدالناصر، كنت في ذلك الوقت أجمع المواد لكتاب عبدالناصر والعالم وأحاول تعقب كل تأشيرة كتبها بيده.

كانت الورقة مذكرة بخط السيد سامي شرف (أحد مؤسسي المخابرات العامة المصرية وسكرتير الرئيس عبد الناصر الشخصي للمعلومات) تاريخها ٣/ ٦/ ٧٠ وعليها كتب شرف بخطه ما يلي بالحرف :

رئاسة الجمهورية العربية المتحدة

سكرتارية الرئيس للمعلومات

أفـــندم

هناك بعض الخواطر وردت على ذهني نتيجة استقراء بعض التحركات والتصريحات في الفترة الأخيرة يمكن أن أخرج منها باستنتاج أن هناك شيئا يدير ضد ج.ع.م ويمكن إجمالاً إيجاز هذه التحركات في الآتي:

(واستطرد السيد سامي شرف فساق ثمانية مظاهر أوصلته إلى استنتاجه. وأوثر أن لا أنقل منها شيئا- حتى الآن ورغم مرور السنين- لأن الصالح الوطني يقتضى الحفاظ على سريتها).

وطبعاً هناك بند أساسي كان من المفروض أن يتصدر القائمة وهو الولايات المتحدة وإسرائيل وتخطيهما الموحد والموجه أساساً ضد مصر.

وعلى ضوء هذه الخواطر السريعة أقترح أن تتخذ كافة الإجراءات الوقائية المشددة بالنسبة للأوضاع في الداخل، ويمكن إذا أذنتم سيادتكم أن يعقد اجتماع من بعض المسؤولين في قطاعات الأمن لوضع تقدير موقف كامل وخطة لمواجهة أي احتمالات.

برجاء التفضل بالنظر.

(إمضاء)

سامي

في أعلى المذكرة كانت تأشيرة جمال عبدالناصر وبخط يده، نصها بالحرف :

سامي لقد تقابل علي أمين في روما مع أحد المصريين المقيمين في ليبيا وقال له إن الوضع في مصر سينتهي آخر سنة ٧٠.... جمال

لأول وهلة تصورت أن التأشيرة تجيب عن أسئلتي كلها بجملة واحدة : لابد أنه قرأ كل شيء، ولكنه لم يصدق ما يقول به ظاهر الكلمات. وأعدت القراءة والتدقيق. وكشفت النظرة الثانية عن أشياء لم تظهر للوهلة الأولى...غريبة!

إن مذكرة السيد سامي شرف لم يرد فيها- من قريب أو من بعيد- ذكر لعلي أمين، فما الذي استدعى الاسم إلى تفكير جمال عبدالناصر في صددها؟!.

ملاحظة أخرى: تاريخ المذكرة هو ٣ يونيو ٧٠ وتأشيرة جمال عبدالناصر بخطه عليها بتاريخ ٢٨ يونيو ٧٠ ولم تكن عادته أن يتأخر في إبداء رأيه في موضوع يعرض عليه خمسة وعشرون يوما!

وتذكرت.. كان أيامها في ليبيا يحضر احتفالات الجلاء عن قاعدة هوليلس الأميركية.

لابد أن المذكرة دخلت إلى مكتبه قبل سفره بيوم أو يومين ولم يطلع عليها، وحين عاد من ليبيا- وكان يستعد للسفر بعدها إلى الاتحاد السوفيتي- حرص على أن يبت في كل ورقة وجدها على مكتبه. وتأشيرة الرئيس جمال عبدالناصر في الركن الأعلى الأيسر من المذكرة وبخط يده ظاهرة .

ورحت أقرأ تأشيرته أحاول استيعاب كل حرف فيها: لقد تقابل على أمين في روما مع أحد المصريين المقيمين في ليبيا وقال له إن الوضع في مصر سينتهي آخر سنة ٧٠.... جمال

كنت معه في ليبيا وصحبته بعدها إلى موسكو!.. ولكن من هو المصري المقيم في ليبيا الذي نقل إليه ما سمع من على أمين؟.. تذكرت أنه قابل كثيرين.. كثيرين.

من منهم؟ لم أستطع أن أحدد، لكنه من الواضح أن جمال عبدالناصر أخذ الكلام

جديا فبقي عالقاً في ذهنه حتى استقر على صورة تأشيرة بخط يده استدعتها مـذكرة معروضة عليه.

ماذا سمع من هذا المصري غير ذلك؟ وما الذي جعل على أمين يفضي إليه بما أفضى؟ وفي أي سياق وأي مناخ؟ قصدا أو زلة لسان؟ وما هي بقيـة التفاصـيل؟.. الخطير في الموضوع أن الوضع في مصر انتهى فعلا آخر سنة ٧٠!

كان رحيل جمال عبدالناصر يوما فاصـلاً في هـذه الحقبـة مـن التـاريخ العربـي الحديث، ولعلي أقول إنه كان هو اليوم الفاصل!..ما الذي كان يعرفه الأستاذ عـلي أمين؟ وكيف وصل إليه؟ وممن؟.

وثارت الأسئلة عواصف. وأحسست بقشعريرة. ويتضح من التأشيرة أن جمـال عبدالناصر كتبها في البداية لقد تقابل على أمين مع أحد المصريين.. إلخ، ويظهر أنه أراد أن تكون تأشيرته أكثر تحديدا، فقد عاد فيما يبدو ورسم خطاً كتب فوقـه مـن روما وللسرعة فيما أظن نسي حرف الواو في وسط كلمة روما.

سنوات السادات

لا أريد أن أقطع استرسال هيكل خاصة أن الخطوط متصلة والأحـداث مهمـا تفرعت روافدها تصب في النهر الكبير ويستهل هيكل هذا الجزء الذي يحكى فيـه أيامه مع السادات بجزء من قصيدة لأحمد شوقي يقول فيها:

وَكانَت مِصرُ أَوَّلَ مَن أَصَبتُم

فَلَم تُحصِ الجِراحَ وَلا الكِلاما

إِذا كانَ الرِماةُ رِماةَ سوءٍ

أَحَلّوا غَيرَ مَرماها السِهاما

لكن يجب الخوض في هذه القصة أن الأهرام كانت تعاقدت في ٢ مـايو ١٩٦٥ مع الأستاذ علي أمين ونشرت الخبر في صفحتها الأولى عـلى أن يكـون مراسـلها في

أوروبا إلى جانب بابه اليومي الشهير فكرة.. مع رسالة أسبوعية.. لكن بعد هذا التاريخ بشهرين نشرت الأهرام في صفحتها الأولى نبأ القبض على مصطفى أمين بتهمة التجسس وقد أمر النائب العام بعدم نشر أي أخبار وبعدها رأت الأهرام أن يؤجل اتفاقه مع علي أمين لأنه من المحتمل أن يكون متورطا ونشر إبراهيم سعده في الأخبار بتاريخ ٩/ ٤/ ١٩٧٧ أن هيكل هو الذي حرض على اتهام مصطفى أمين بالعمالة والتخابر لصالح أميركا حتى يتخلص من منافسته على عرش الصحافة وليبقى وحده دون شريك بعد أن قطع رؤوس كبار الصحافيين من قبل : محمود واحمد ابو الفتح، فكري أباظة، إحسان عبدالقدوس، احمد بهاء الدين، لقد علقوا مصطفى أمين في المشنقة التي اخترعها هيكل. بل ورفض أن يشهد.. وهو شاهد النفي الأول في القضية وفيما بعد قرر المدعى الاشتراكي أن الحكم على مصطفى أمين بالإشغال الشاقة المؤبدة في ١٠ فبراير ١٩٦٦ قد بني على أدلة باطلة ويتحتم تصحيح الأوضاع الناتجة عنه.. وتم الإفراج عن مصطفى أمين في ٢٧ يناير ١٩٧٤ وأعفاه الرئيس السادات من العقوبة المحكوم بها عليه وكذا كافة الآثار والعقوبات التكميلية وأمره أن يشغل المكتب الذي كان يشغله السادات في الأخبار ثم اصدر قراراً بتعيينه رئيسا لتحرير أخبار اليوم وعلي أمين رئيسا لمجلس الإدارة بعد أن كان رئيسا لتحرير الأهرام من ٨ فبراير لي ٢٤ مايو وقت أن صدر القرار لكن لماذا تأخر الإفراج عن مصطفى أمين؟.. كان هيكل يرى أن أستاذه مصطفى أمين هو منافسه الوحيد أمام عبدالناصر فلما شعر عبدالناصر أن التخلص من مصطفى أمين لم يكن يقتضى التشهير به على أنه جاسوس ثم الحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة..والحقيقة أن هيكل هو الذي اقنع عبدالناصر باستمرار سجن مصطفى أمين بأن قدم إليه خبرا مدعما بشاهد زور بأن مصطفى أمين جاء يوما إلى أخبار اليوم بحقيبة فيها عشرات الألوف من الجنيهات من المخابرات الأميركية، حسب ما كتب إبراهيم سعده.

ويبدو أن شعور هيكل بتميزه ونجاحه واقترابه من عبدالناصر ثم السادات في

بداية حكمه جعله يتجاوز الأعراف والتقاليد والبروتوكول وهو الرجل الذي يجيد الأكل بالشوكة والسكينة وحضور حفلات الكوكتيل في قصور الملوك والرؤساء.. فقد اصطاد له خصومه الغلطة التي وقع فيها عندما نشرت جريدة الأهرام خبراً تحت عنوان : الرئيس السادات يستجيب لطلب هيكل بإعفائه من وزارة الإرشاد جاء فيه أن الرئيس السادات قد استجاب لرجاء من هيكل بإعفائه من وزارة الإرشاد، وأن هيكل قدم خطابا بهذا المعنى إلى السادات بتاريخ ٣ أكتوبر سنة ١٩٧٠ ، فناقشه فيه يوم ٥ أكتوبر وطلب إليه أن يظل في الوزارة حتى يتم الاستفتاء على رئاسة الجمهورية.

وقد استهل هيكل خطاب الاستقالة بأسلوب غير مألوف في تخاطب وزير مع رئيس الجمهورية حيث يقول الأخ والصديق.

والقصة جاءت في كتاب «هيكل والأخلاقيات الصحافية» .. بقلم اللواء الحسيني الديب وهو ضابط حاصل على دكتوراه في الإعلام.

وفيما يلي نص الخطابين كما نشرتهما جريدة الأهرام ١٩/ ١٠/ ١٩٧٠

سيادة رئيس الجمهورية بالنيابة

الأخ والصديق أنور السادات

الآن وقد استقر جثمانه الطاهر في ثرى مصر الخالدة، فأنى أتقدم إليك راجيا أن تأذن بإعفائي من العمل في وزارة الإرشاد القومي.

أن وصولي إلى القرار الذي يدفعني إلى التقدم بهذا الرجاء إليك. لم يصدر عن إحساس بلوعة عاطفية- مع أنه لدى منها أكثر مما يتصور أحد- ولكنه يصدر أيضا عن اعتبارات عديدة إنسانية وفكرية وعملية، أجملها فيما يلي:

(١) أن الكل يعلم أنني حاولت طول عمري أن أبتعد عن المناصب الرسمية، تمسكا بمهنة اعتقدت ومازلت أعتقد أن حياتي فيها.

(٢) إنني خرجت عن هذه القاعدة، نزولا على أمر كريم منه عندما شاء أن يكلفني بالتعبير الرسمي عنه، في فترة من النضال القومي بالغة الحساسية، وكان هذا من جانبه اختيارا شخصيا... ومن بعده، فإنني لا أملك هذا الحق بالنسبة لغيره. كما أنني لا أستطيع أن أبقى على رأس وزارة الإرشاد القومي تعبيرا عن نفسي، فمكان ذلك الصحيح هو الأهرام وحده، وليس أي مكان آخر غيره.

(٣) أن جزءا كبيرا من مهمة إعادة تنظيم وزارة الإرشاد القومي قد تم، بإنشاء اتحاد الإذاعة والتلفزيون العربي، وبالدراسات المعدة للبت في شأن الهيئة العامة للاستعلامات وغيرها من مؤسسات الوزارة. ومع أن عملية إعادة التنظيم لم تظهر آثارها بعد أمام الناس- فأنى أتوقع مع بداية سنة ١٩٧١ بمشيئة الله- أن تكون هذه الآثار أمام الجميع مرئية ومسموعة.

(٤) أنني لم أعد أستطيع بكل ما أحس به الآن، التوفيق بين وزارة الإرشاد وبين الأهرام، وكنت قد استطعت ذلك بجهد جهيد لبضعة شهور، لكنني الآن أجد أن ذلك سوف يكون مستحيلا بالنسبة لي، وإذا كان لي أن أختار والخيرة لله- فإنني أؤثر أن أبقى في المكان الذي أسهمت مع آلاف من أبنائه في تحويله إلى إطلالة مصرية على العصر الحديث، وكان ذلك، ولكي أكون منصفا للتاريخ، بتشجيع معنوي كبير منه، وبالهام مضيء.

(٥) أنني أعتقد، إلى جانب ذلك، أن على مسؤولية أتحملها أمام الأجيال، فلقد اقتربت من فكره وعمله، ولابد لي أن أعيد ترتيب أوراقي وذكرياتي عنه، لأننا نحن الذين عرفناه عن قرب، وشرفنا بالوقوف، حيث تمكنا من رؤيته وهو يحلم ويناضل ويحقق- لا نملك وحدنا قصة حياته، فهذه القصة ملك لشعبنا ولامتنا العربية، وللإنسانية.

ولعلك تذكر مرة أيها الصديق الكريم، وكنا معا أخيرا في فندق هيلتون- أثناء أزمة الأردن التي كانت آخر معاركه المنتصرة أننا تحدثنا عن التاريخ وكيف

سيروى حكاية هذا العصر ويذكر أنه أمامك، وأمام السيدين حسين الشافعي وعلى صبري أشار إلى وقال : انه هو المسؤول عن ذلك.. لقد كان يعرف كل شيء.. وهو يتحدث دائما عن الإحساس بالتاريخ... والكتابة صناعته!

ومن جانبي أيها الأخ الكريم فإنني اعتبر تلك وصية يسائلني عنها ضميري، وسوف يسائلني عنها الضمير العام لأمتي.

وليس معنى ذلك أننى أفكر في النشر العاجل، فأنا أول من يقدر أن هناك أشياء لم يحن بعد أوانها، ولكنى بأمانة المسؤولية أمام ذكراه الغالية لا أستطيع أن أترك شيئا للضياع أو النسيان.

انني أرجوك ملحا ومن كل قلبي، أن لا تعتبر هذا تخليا منى في وقت عصيب.

انك تعلم أن ذلك لا يمكن أن يخطر لي ببال، فأنت الرجل الذي اختاره هو بنفسه نائبا له في وقت علم فيه أنه معرض لمخاطر مؤامرات خطط لها الذين تصدى طول عمره لمطامعهم وسيطرتهم على مقدرات أمته.

وذلك الاختيار وحده يكفى، ليس بالنسبة لي وحدي، وإنما بالنسبة لكل الذين تراودهم اليوم أعظم الآمال بأن يستمر الخط الذي رسمه لامتنا سواء لمرحلة النصر أو لما بعد النصر بإذن الله.

أنني أناشدك أن تغفر لي ما استأذنك فيه الآن إذا كان رأيك فيه مخالفا لرأيي، وأتمنى على الله وعليك أن يكون غفرانك من فهمك لموقفي وظروفي ومشاعري.

وأريدك أن تعرف في النهاية أن قلبي معك وأن عقلي معك بكل ما أستطيع دفاعا عن مبادئه، وعن سياسات أجراها نابعة من تلك المبادئ ولك الدعاء خالصا وصادقا أن يعينك الله على ما تحملت أمانته، ولك التحية والمحبة.

محمد حسنين هيكل

السبت ٣ أكتوبر ١٩٧٠

وقد رد الرئيس أنور السادات بالخطاب التالي على الأستاذ هيكل :

عزيزي الأستاذ محمد حسنين هيكل

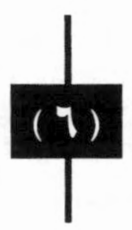
وزير الإرشاد القومي

تحية الإسلام مباركة طيبة وبعد

فلقد تلقيت كتابك وقرأته بكل عناية وتقدير، فليس أحب إلي في هذه الحياة من معنى مثل معنى الوفاء في كل صوره وألوانه من أجل ذلك فانه لا يسعني ألا أن أجيبك إلى طلبك أيها الصديق واثقا أن جهدك وقلمك سوف يظلان كما عودت زعيمنا الراحل أن يكونا في مكانهما من معركتنا المقدسة شاكرا لك ما بذلته من جهد خلال توليك الوزارة، داعيا لك المولى عز وجل أن يوفقك في مكانك الذي اخترته بإرادتك وأن يمنحك الصحة وموفور السعادة والله أسأل أن يسددنا جميعا بتوفيقه والسلام عليكم ورحمة الله.

أنور السادات

١٨ أكتوبر ١٩٧٠



بفرمان رئاسي : يوسف إدريس ومكرم محمد أحمد ولويس عوض .. في الشارع !!

لا الذين هاجموا هيكل توقفوا.. ولا هو رفع راية بيضاء تعلن انسحابه وظل على طريقته ومواقفه.. يرد بأسلوبه الذي يبدو هادئا ورزينا وغالبا ما تكون أسلحته أوراقاً ووثائق يعرف جيدا كيف يحصل عليها ويظهرها في الوقت المناسب.. لكن المواجهات المباشرة لا يفضلها ووصلات التراشق ابعد ما تكون عن أسلوبه.. وخاصة أنه يرى في نفسه موقعا ومكانا وتاريخا.. يريد أن يحتفظ به بعيدا عن الألاعيب الصحافية والسياسية.. ويجب هنا أن نعترف أن معارك هيكل كانت منسجمة مع الصورة التي رسمها لنفسه.. وعن جذور خلافه مع السادات يعترف في كتابه بين الصحافة والسياسة فيقول:

في الشهور الأولى من رئاسته بدا لي أن آراءنا قد تتوافق وأن تعاوني إلى أقصى الحدود معه قد يكون مفيدا، خصوصا وأنني كنت أتمنى أن يستمر الجهد المصري ويتواصل حتى يتحقق هدفه الأكبر في ذلك الوقت هو إزالة آثار العدوان.

وكان من جانبه يرى أنني واقف بوضوح لا لبس فيه إلى جانبه.

بعد نصف ساعة على رحيل جمال عبدالناصر غادرنا غرفة النوم حيث كان جسده مسجى على سريره ونزلنا إلى الصالون في الدور الأول من بيته نحاول أن نتدبر كيف نتصرف بعده.

وبرغم الأحزان المروعة التي كانت تعتصر قلوبنا جميعا، فقد كانت هناك مسؤولية شعب وأمة ولابد من التفكير فيها قبل الغرق في طوفان الدموع.

وكنا في غرفة الصالون الصغير مجموعة متباينة المواقف والأهداف، لكن مفاجأة ومأساة الرحيل رفعت الكل -إنصافاً للتاريخ- إلى مستوى يستحق التسجيل.

كان هناك: أنور السادات وحسين الشافعي وعلي صبري وشعراوي جمعة وسامي شرف ومحمد أحمد واللواء الليثي ناصف.. وأنا.

وكان أنور السادات هو نائب رئيس الجمهورية، وبشكل ما كان عليه أن يطرح موضوع البحث فقال: ماذا نفعل الآن؟!.

ملء الفراغ

وكانت هناك فترة صمت ثقيل، وأحسست أنني أستطيع أن أتكلم، فقد كنت أمام الكل من أقرب الناس إلى جمال عبدالناصر، ثم أنني كنت من أبعد الناس عن صراعات السلطة، فالكل يعرف أنني أحصر طموحي كله في إطار مهنتي.

شعرت أنني أستطيع أن أتكلم دون حساسيات.

وقلت: إن أهم شيء الآن هو الاستمرار وأن نحاول قدر ما نستطيع ملء الفراغ بعده.

ثم قلت: لابد أن نختار رئيسا يتولى السلطة -ولو مؤقتا- على الفور، ولابد في اختيار هذا الرئيس أن نتبع قاعدة موضوعة سلفا، فليس الوقت ملائما لوضع قواعد جديدة ولا هو وقت فتح الباب لصراعات بين الأفراد.. وإذا اتفقنا على ذلك فإن القاعدة الوحيدة التي أعتقد أنها تحكم موقفنا هي الاحتكام للدستور.

ومعنى ذلك واضح وهو أن يتولى السيد أنور السادات رئاسة الجمهورية للمدة التي قررها الدستور -وهي ستين يوماً- حتى ترشح الهيئات السياسية والدستورية من تشاء للرئاسة ثم تطرح اسمه للاستفتاء العام.

والشيء الآخر الذي أراه ضروريا بعد ذلك أن نتصرف خطوة خطوة حتى لا نفتح الباب لمساومات وصفقات قد تكون خطيرة في أثرها. إن جمال عبدالناصر كان يشغل ثلاثة مناصب رئيسة: رئاسة الجمهورية ورئاسة الاتحاد الاشتراكي ورئاسة الوزراء. وإذا فتحت ثلاثة أبواب الآن فقد نجد أنفسنا أمام مآزق متشابكة.

ولذلك فإني أقترح أن تكون هناك خطوة واحدة في الوقت الواحد. وقلت

بالإنكليزية one step at a time.

وإن ننتهي من انتخابات رئيس الجمهورية، ثم يجيء دور اختيار رئيس الوزراء، ثم يختار التنظيم السياسي رئيسه.

وأحسست أن أنور السادات استراح لما قلت. وللإنصاف فإن أحداً لم يعارض. كان الكل على مستوى المسؤولية في تلك اللحظة الحرجة.

وواصلت كلامي باقتراح أن ننتقل الآن إلى مكان آخر وأن نعقد اجتماعا مشتركا للجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي العربي ولمجلس الوزراء، ومن هناك يعلن نبأ رحيل عبدالناصر على الأمة ثم تتخذ القرارات المطلوبة.

وكان جثمان الزعيم الراحل قد انتقل من الدور الثاني واستقر في سيارة الإسعاف الخاصة برئاسة الجمهورية، وسارت عرباتنا وراءه في موكب جنائزي صامت يخنقه الألم إلى قصر القبة، ودعي أعضاء اللجنة التنفيذية العليا ومجلس الوزراء.

وكنت قد أعددت بيان إعلان الرحيل، واتصلت -كوزير للإرشاد- بأحد كبار المسؤولين معي في وزارة الإرشاد -وهو د. عبدالله عودة- أطلب إليه أن يوقف إذاعة البرامج العادية فى الراديو والتليفزيون وأن تتحول جميع المحطات إلى إذاعة القرآن الكريم.

وأدركت مصر أن شيئا قد جرى، وأمسكت قلبها تنتظر في خوف وقلق.

وقرأت البيان على المجلس المشترك وأقره من فيه، واقترح أنور السادات أن أتوجه إلى مبنى التليفزيون لإذاعته، وقلت -والقول مسجل بصوتي في أرشيف مجلس الوزراء، لأن نظام التسجيل كان قد اعتمد رسميا من سنوات بدلا من محاضر مكتوبة- قلت:

إنني أقترح أن يتولى السيد أنور السادات بنفسه إذاعة البيان لكي يعرف الناس

أن انتقال السلطة قد تم بسلام، وإنني أتذكر من السوابق أن ظهور الرئيس جونسون بعد اغتيال الرئيس كينيدي ليعلن بنفسه وفاة سلفه وتوليه السلطة بعده كان مسألة بالغة الأهمية في طمأنة الشعب الأميركي إلى أن المسؤولية الأولى في الدولة انتقلت بثبات إلى مكانها السليم.

ووافق الكل، وقام الرئيس السادات معي وتركنا الاجتماع مستمراً يناقش قضية هامة طرحت من أجل كفالة الاستمرار وهي:

هل يتولى الرئيس المؤقت سلطته لستين يوماً أم نختاره مرشحا على الفور ونعرض اسمه للاستفتاء العام؟ وكان واضحا أن الاتجاه الراجح يميل إلى الرأي الثاني من منطق تأكيد الاستمرار. وربما كانت هناك تصورات أخرى.

ووصلنا -الرئيس السادات وأنا- إلى مبنى التليفزيون وتوجهنا إلى مكتبي حتى يتم إعداد الأستديو الذي يذاع منه النبأ الصاعق. واكتشف الرئيس السادات أنه نسى نظارته على مائدة الاجتماعات في قصر القبة، وسألته إذا كانت نظارتي تنفعه وجربها، وبالفعل ظهر بها وهو يقرأ البيان. واعتذرت عن مرافقته إلى الاستديو، وكان رأي أنه لابد له أن يظهر وحده على الشاشة، وانتظرت حتى فرغ منه وعاد إلى مكتبي. وغادرنا معا مبنى التليفزيون -هو عائد إلى قصر القبة وأنا إلى الأهرام.

بدون حل

ومرت شهور.. ومرت بعد الشهور سنون.. وطرأت على علاقتي بالرئيس السادات مشاكل، وظهرت بيننا خلافات تعقد بعضها ووجدنا له حلا، واستحكم بعضها الآخر بغير حل.

اختلفنا فيما قاله عن سنة ١٩٧١ باعتبارها سنة الحسم -كما قال. ولم أردها كذلك لأكثر من سبب. وحتى إذا كانت كذلك فلم يكن ينبغي الإعلان!

واختلفنا في الطريقة التي عالج بها مظاهرات الطلبة في أواخر سنة ١٩٧١ ولم

أكن أرى أن العنف هو وسيلة الحوار مع الشباب.

واختلفنا في علاج موضوع الفتنة الطائفية، فقد كان يرى تفجير المشكلة. وكنت أراها مشكلة لا تصلح فيها سياسة الصدمات الكهربائية، وإنما لابد من علاج حذر لأسبابها وعوارضها، ولجذورها قبل الفروع.

واختلفنا في موضوع الوحدة مع ليبيا. وكنت من أنصارها. أراها مختلفة عن تجربة الوحدة مع سورية بسبب عنصر الاتصال الجغرافي والسكاني. وكنت أراها عمقا للمعركة بثلاثة آلاف ميل على شاطئ البحر الأبيض. كما أني كنت أرى أن الثروة السائلة الليبية تتكامل مع الإمكانيات البشرية والطاقة الإنتاجية المصرية. وكان يتهمني بالانحياز لمعمر القذافي، وهو يعلم أنني لم أضع قدما في ليبيا منذ سنة ١٩٧٠، حين زرتها لآخر مرة بصحبة جمال عبدالناصر.

(وفيما بعد ودفعا لأي تأويل اعتذرت عن أي اتصال بالرئيس القذافي منذ سنة ١٩٧٣ حتى رأيته لآخر مرة في مكتبي بالأهرام -كان ذلك عام ٧٤).

ثم اختلفنا في الطريقة التي راح يجري بها اتصالات خفية مع الولايات المتحدة الأميركية عن ظريق قناة اتصال خلفية.

واختلفنا حول الطريقة التي جرى بها إخراج الخبراء السوفيت من مصر.

واختلفنا حين اعتذرت عن إجراء مفاوضات سرية مع كيسنجر، لأن موقفنا من التفاوض وقتها لم يكن قويا في تقديري، وكذلك لأن هدفه من التفاوض لم يكن واضحا أمامي.

واختلفنا في قرار بنقل ثمانين صحافيا إلى وظائف في مصلحة الاستعلامات وبينهم بعض أبرز أصحاب القلم (وبينهم من أسرة الأهرام الأستاذ أحمد بهاء الدين والدكتور يوسف إدريس والدكتور لويس عوض والأستاذ مكرم محمد أحمد والأستاذ زكريا نبيل والسيدة أمينة شفيق، إلى جانب رئيس قسم المعلومات في

الأهرام الأستاذ محمد حمدي) -واعتذرت عن تنفيذ القرار فيما يتعلق بالأهرام ووضعت أمامه استقالتي.

وفي هذا كله كنت أحرص على أن يظل الخلاف في حدوده... فهو رئيس الدولة وصاحب القرار -ولي الحق أن أبدي رأيي- ولكنه المسؤول وحده أولاً وأخيراً.

ثم جاء الخلاف الأكبر حول الإدارة السياسية لحرب أكتوبر. وكنت أرى نتائج الحرب تضيع واحدة بعد واحدة. ورحت أكتب رأيي بصراحة لا لبس فيها في مجموعة مقالات امتدت من أكتوبر ١٩٧٣ إلى أول فبراير ١٩٧٤ وصدرت في كتاب بعنوان عند مفترق الطرق.

وفي أواخر شهر ديسمبر ١٩٧٣ طلب أن نلتقي، والتقينا في نادي الرماة عند سفح الأهرامات، وهناك قال لي إن مقالاتي تحدث بلبلة في الرأي العام العربي كله. وأنا لم أعد صحافيا وإنما أصبحت سياسيا، ولابد أن أترك الصحافة إلى السياسة. ثم خيرني بين العمل في الوزارة (نائباً لرئيس الوزراء) أو في الرئاسة (مستشاراً للرئيس لشؤون الأمن القومي).

وكان ردي أنه يستطيع أن يقرر أنه لم يعد يريد بقائي في الأهرام، ولكنني وحدي أقرر ماذا أفعل بعد ذلك.

واعتبر أنني أريد أن أملي عليه آرائي وأفرض تصوراتي. ثم انتهينا من مشادة حامية وقد ترك لي الفرصة للتفكير!

وفي هذا المناخ تلقيت مكالمة تليفونية من بيروت. وكان التليفون من الأستاذ علي أمين الذي قال لي إنه يفكر في القدوم إلى القاهرة.

وبعد عدة أيام كان بالفعل في القاهرة، وكان قادماً لزيارتي في الأهرام. وهنا يجب الإشارة إلى أن المقال الذي جعل السادات يغلي كان بعنوان أسلوب التفاوض الإسرائيلي وكان في رحلة خارجية وسبب غضبه كما عرفت منه بعد ذلك

أن الصحافي ليس من حقه أن يناقش القرار السياسي فتلك مسؤولية الرئاسة وكان رأيي أن حرية الصحافة هي في معناها البسيط مناقشة طريقة صنع القرار ونتائجه وأشرت له إلى ما يكتبه الصحافيون في أوروبا وأميركا.. وأثناء اعتقالي اجتمع بالمجلس الأعلى للصحافة الذي يرأسه وسخر من الصحافيين الذين يريدون تقليد الأميركان وكان يقصدني بالطبع.

نظرة أخرى

بعد ٢٨ سنة.. مما جرى بين هيكل والسادات.. هل تغيرت وجهة نظره في الأحداث وهو يحكيها في الجامعة الأميركية خلال محاضرة تحت عنوان المستقبل الآن (١٤/ ١٠/ ٢٠٠٢) وفي المحاضرة استعرض تاريخ مصر ابتداء من زمن محمد نجيب ثم جمال عبدالناصر.. وكأنه يقول للشباب الذي ازدحم في مقاعد الصالة الكبيرة: من أنا؟.. وما هو محلي من الأعراب في كتاب التاريخ.. واستهل كلامه عن أنور السادات بما كان يردده في أول عهده: أنا ماشي على طريق عبدالناصر.. قبل أن تنطلق النكتة التي قالت بعد ذلك بسنوات: ماشي على طريق عبدالناصر بأستيكه..

وكان يشعر بأنه يحمل مسؤولية مهمة محددة وهي إزالة آثار العدوان وقد تحمل السادات مسؤوليته في ظروف بالغة الصعوبة والحرج وكانت شرعية يوليو -ما بقي من أصلها أو ما أضيف إليها مؤقتا- قاعدته ظهر يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ حين أصدر قرار الحرب، وعندما تحقق ذلك العبور للجسور، وتمكنت الجيوش العربية لمصر وسورية -من إحراز ذلك النجاح المشهود بعد ظهر يوم ٦ أكتوبر، فإن شرعية يوليو- ما بقي من الأصل وما أضيف إليه -أدت مهمتها، بشهادة ما رآه وزير خارجية الولايات المتحدة هنري كيسنجر وقدره وسجلته على لسانه محاضر محادثاته السرية مع قادة إسرائيل (وهذه المحاضر منشورة بنصوصها ضمن وثائق زمنها)- وفيها قوله لقادة إسرائيل وبينهم غولدا مائير وموشي ديان وييغال آلون

إن العرب أحرزوا نصرا استراتيجيا يعطيهم حق أن يطلبوا وأن يحصلوا على انسحاب القوات الإسرائيلية بالكامل من الأرض العربية المحتلة بعد ٤ يونيو سنة ١٩٦٧، كما أنه ليس أمام إسرائيل غير ترتيب نفسها على هذه الحقيقة والانصياع لحكمها. وأضاف هيكل في محاضرته:

والشاهد أنه من طبيعة الأشياء والبشر أن كل رجل لا يكفيه أن يكون تكملة لصفحة. وإنما طموحه الإنساني أن يبدأ من رأس صفحة، فإذا كان معه إنجاز على مستوى أكتوبر ١٩٧٣، إذن فإن الرئيس السادات كانت لديه بالفعل إمكانية - وأهلية- فتح صفحة من أولها -على شرعية جديدة.

وقد مضى الرئيس السادات يؤسس لهذه الشرعية الجديدة، برؤية مختلفة للهوية، ومصدر مغاير للمرجعية.

كانت الهوية في رؤيته مصرية.

وكانت المرجعية في تقديره توجها إلى نوع من الرأسمالية عرف باسم الانفتاح.

وجاءت بعد ذلك وهو منطق الأشياء -نقلة في الساحة السياسية الداخلية من تنظيم واحد لما سمي تحالف قوى الشعب العامل- إلى إنشاء ثلاثة منابر مختلفة سميت يمينا ويسارا ووسطا.

وفي الوقت نفسه كانت مرجعية السياسة الخارجية للشرعية الجديدة -ما رآه الرئيس السادات- صحبة مع المتقدمين عن طريق علاقة خاصة بالولايات المتحدة الأميركية -تتبعها إمكانية صلح مع إسرائيل، يبدأ منفردا إذا اقتضى الأمر، ويلحق به الآخرون حين يريدون- أو حين يقدرون!

وهنا كان مأزق شرعية أكتوبر، لأن ما وصلت إليه في رؤية الهوية وفي سند المرجعية لم يكن متسقا مع الواقع في شرعية أكتوبر -وأوله أن الرئيس السادات توصل إلى قرار الحرب بعد أكثر من ثلاث سنوات في رئاسته- وعندما يئس من

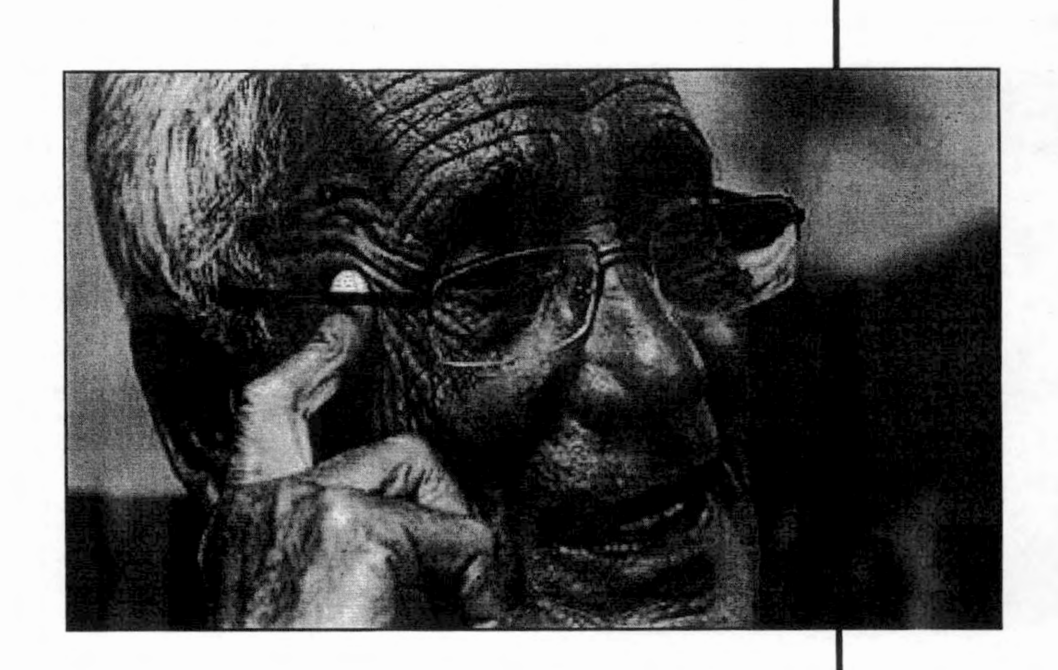
إقناع الولايات المتحدة الأميركية بالمساعدة على بلوغ حل عادل لأزمة الشرق الأوسط -ولم يحقق مطلبه رغم كل ما حاول بسبب الانحياز الأميركي لإسرائيل.

وحين وصل الرجل إلى لحظة الحسم فإنه تحمل مسؤولية الحرب، وكذلك جاء قراره الشجاع بقبول المخاطرة.

ثم حدث أن الرئيس السادات وعند توقف إطلاق النار -اعتبر أن ٩٩٪ من أوراق حل أزمة الشرق الأوسط في يد الولايات المتحدة الأميركية وبدا ذلك للوهلة الأولى مفاجئا- فإذا أضيف إليه أن حرب أكتوبر كانت عملا مشتركا مع سورية، وتحالفا عربيا أوسع، ثم إنها كانت بالكامل سلاحا سوفيتيا - فقد وقع تناقض بين النتائج والمقدمات!



الرئيس زعلان منك يا أستاذ لأنك حولت نصر أكتوبر إلى هزيمة !!



هيكل في أكتوبر ٢٠٠٢ قال للشباب في الجامعة الأميركية: للأسف الذين قاتلوا بشجاعة في معركة العبور لم يكونوا هم الذين نالوا جوائز النصر.. وهنا يجب استعادة ذلك المشهد التاريخي الذي جرى تحت قبة البرلمان المصري بعد نصر أكتوبر.. وغاب عنه أحد صناع النصر وهو الفريق سعد الدين الشاذلي الذي اختلف مع السادات يوم ١٤ أكتوبر بسبب إصرار الرئيس على تطوير الهجوم.. وهو ما رفضه رئيس الأركان لأن ذلك معناه الخروج من تحت مظلة الدفاع الجوي.. ومصر تستطيع أن تحقق ما هو أكثر من العبور العظيم إذا ما طال أجل الحرب.. لأن جنود إسرائيل في معظم الثكنات احتياط وبالتالي فإن خسائر الدولة العبرية يوميا بالملايين من الدولارات والحياة في تل أبيب يصيبها الشلل وهو ما يعني تخريب اقتصادها وانهياره.. ولكن السادات أصر على تطوير الهجوم مهما كان الثمن بحجة مساندة الجبهة السورية. وتمسك كل واحد برأيه في غرفة العمليات لكن رأى الرئيس يمشى.. ومشى وتطور الهجوم ووقعت خسائر كبرى في أول الأيام.. واستثمرت إسرائيل المسافة التي ظهرت بين الجيش الثاني والثالث وتسلل شارون ورجاله عبر الدفراسوار إلى السويس وأول طريق القاهرة ولكن السوايسة تصدوا لهم بشجاعة نادرة.. أوقفت تحركهم أكثر من هذا.. وجاء الشاذلي مرة أخرى يقول للسادات: لا بأس عندي من الحلول ما يمكن أن نصطاد جيش العدو الذي عبر فقط اسمح لي أن استعين بفرقة من الجيوش الموجودة في سيناء ورفض السادات الاقتراح حتى لا يقال أن الجيش المصري بدأ ينسحب.. وعبثا حاول الشاذلي أن يشرح له : بأنها لا تخرج عن كونها مناورة أو تحركات والمهم النتائج.. وأصر السادات مجدداً.. واضطر الشاذلي أن ينسحب من العمليات وان يتركها للرئيس يديرها ويتحمل مسؤوليتها وكانت القطيعة التي بلغت ذروتها بعد أن ذهب السادات إلى تل أبيب.. وابتعد الشاذلي إلى المنفى في الجزائر حتى عاد ١٩٩٢ ليجد السجن في انتظاره أيام مبارك واختتم هيكل محاضراته تلك أن زمن أكتوبر انتهى عام ١٩٨١ بعد مقتل السادات.

فلاش باك

مرة أخرى أجد من الضروري العودة إلى عام ١٩٧٤.. وما جاء على لسان هيكل من خلافاته مع السادات وكان مصطفى وعلي أمين طرفاً أصيلاً.. فهل اختلف الكلام.. مع أن المتكلم هو نفسه ذلك ما تكشف الأسطر التالية من كتاب بين الصحافة والسياسة الذي أصدرته دار الشروق عام ٢٠٠٣ وبقلم هيكل وجاء في الفصل الثالث :

كان التوتر يزداد في العلاقة بين الرئيس أنور السادات وبيني مع كل يوم، بل كل ساعة تقريبا.

وكان الخلاف قد استحكم منذ زيارة كيسنجر للقاهرة يوم ٧ نوفمبر ومحادثاته السرية مع الرئيس السادات.

ومع أنني لم أعلم في حينه بما توصل إليه الاثنان من نتائج في هذه المحادثات إلا أن بعض آثارها الظاهرة راحت تثير قلقي ومخاوفي.

ولقد وجدت أوراق التفاوض تخرج من أيدينا واحدة بعد أخرى بلا ثمن ولا مقابل. وتكررت لقاءاتنا عنيفة وعاصفة، ثم قررت أن أبتعد تماما عن الاشتراك فيما يجري وأن أحدد موقفي بما أكتبه في مقالاتي، ولتكن النتائج ما يكون.

وأخطرت الرئيس برأيي في الخيار الذي عرضه عليّ ما بين العمل في الرئاسة مستشارا للأمن القومي أو العمل في الوزارة نائبا لرئيس الوزراء وقلت إنني شاكر له كرمه، ولكني أوثر مادام قد رأى أن أترك الأهرام أن أتفرغ لكتبي ولديّ منها ما يشغلني سنوات طويلة.

وهكذا في تلك الأيام فإنني كنت ألقاه ولا أتعدى حدودا رسمتها لنفسي، وهي أن لا أسأل عما يجري وإنما أستمع فقط إلى ما يقول وأبدي رأيي في حدود ما هو مطلوب مني.. لا أتجاوزه.

وقابلته يوم ٢١ يناير قبل أن يصل الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران بيوم واحد.

وقال لي فيما قال يومها إنه قرر الإفراج عن بعض قادة الطيران الذين حوكموا بعد سنة ١٩٦٧، وبينهم الفريق صدقي محمود.

وأضاف : إن حسني (يقصد الرئيس حسنى مبارك الذي كان قائد سلاح الطيران أثناء حرب أكتوبر) جاءني وقال لي إن الأولاد في الطيران يطلبون من سيادتك مكرمة لن ينسوها وهي الإفراج عن صدقي محمود فهم يعتبرونه أستاذهم وعلى أي حال فإنهم في حرب أكتوبر سددوا كل ديون الطيران من سنة ١٩٦٧ ووافقت ولا تتصور سعادة حسني وسعادة الأولاد في الطيران.

وقلت : الحقيقة أن قائد الطيران وشبابه يستحقون أن يجابوا إلى ما طلبوه.

وقال : سأجيبهم .. أبلغتهم فعلا.

أنا وهو وكيسنجر

وانتقل بالحديث إلى موضوع آخر، فقد راح يبدي إعجابه بهنري كيسنجر ويلومني على شكوكي فيه، وبين ما قاله يومها إن هذا الرجل يقصد كيسنجر هو الشخص الوحيد في العالم الذي يستطيع أن يقول لهذه المرأة يقصد جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل اخرجي فلا تستطيع أن ترد له أمرا.

وكان لي رأي مختلف عبرت عنه وبوضوح ولكن باقتضاب.

وأبدى ضيقه، وسألته سؤالاً مباشراً وهو أنني قرأت في بعض التقارير الصحفية أن كيسنجر أقنعه بإرسال خطاب مكتوب إلى جولدا مائير وهذا لو صح خطير!.

ورد على الفور : أنا لم أكتب لها خطابا، هي التي بعثت إليّ برسائل شخصية.

واستطرد : طلباتها لا تنتهي هذه المرأة، ولكني لن أعطيها الفرصة لتراوغ.. إنني أطاوعها فيما تطلبه حتى أجعل من الصعب عليها أن ترفض ما أطلبه.

وواصل كلامه: الآن تريد مني أن أفرج عن كل المسجونين عندي من جواسيس إسرائيل.. غريبة أنه تلح بشد على الولد مزراحي لابد أنه كان مهم جدا بالنسبة لهم.. تصور هي أيضا تريد أن تأخذ جثث الأولاد الصهاينة الذين قتلوا لورد موين سنة ١٩٤٥ في القاهرة... ركبت رأسها مع هنري وصممت عليهم.

ولم أكن أقاطعه فاستمر: طبعا هنري استغل الفرصة بالمرة وطلب مني هو الآخر أن أفرج عن عدد من الأشخاص حكم عليهم في قضايا تجسس لصالح المخابرات الأميركية.. على أي حال لن أوجع رأسي بهؤلاء جميعا، وسوف أعطيهم لهم وأخلص نفسي.

ثم على غير انتظار أو توقع فاجأني بسؤال : ما رأيك في الإفراج عن مصطفى أمين، ألم تطلب مني أكثر من مرة أن أفرج عنه؟.

ويبدو أن علامات دهشة بدت على ملامحي فقد استطرد بالحرف : لماذا تشعلق حواجبك من الدهشة هكذا إنهم يطلبونه وأنا أريد أن أجاملهم فيه.

وتساءلت.. من هم؟.

وقال : كثيرون... كمال أدهم طلبه مني.

وسكت لحظة ثم استطرد: ... ولماذا لا أجامل الأميركان فيه؟.

قلت : الأمر لك بالطبع. وإن كنت أخشى من أن الإفراج عنه في هذا الإطار الذي كنت تتكلم فيه إساءة إليه.. لماذا لا تجعل فاصل أسبوع أو أسبوعين بين الإفراج عنه وبين الإفراج عن كل هؤلاء الذين طلبتهم جولدا مائير وطلبهم هنري كيسنجر.

وأضفت: إنني جئت الآن وكان في نيتي أن أنقل إليك رسالة من علي أمين يرجوك فيها الإفراج عن توأمه، وهو على استعداد لأن يأخذه من باب السجن إلى

باب طائرة تذهب بهما إلى أي مكان خارج مصر.

وقال بسرعة: عال.. يأخذه ويغوروا!

ولاحظ أنني لم أكن مستريحا لمجرى المناقشة فنظر إلى بنصف ابتسامة ونصف عين وقال :

أنت تدعي أنك تفهم في السياسة، وأنا أقول لك العكس. لو أنك كنت تفهم في السياسة لوافقتني على ما قلت بالعكس.. من الأفضل الإفراج عن مصطفى ضمن هذه الصفقة حتى لا يتجاسر يوما ويفتح فمه، وإذا فتحه فإنا نقدر أن نضربه ب....!

ولم يكن لدي ما أقوله.. ورأيت علي أمين في الأهرام في اليوم التالي، ولمحت إلى أن مصطفى قد يفرج عنه قريبا، وفوجئت به يقول : سوف أقابله غدا في طره.

ثم أخبرني بشكل غامض أنه التقى أمس مع بعض أفراد أسرة الرئيس السادات وأنه كان في بيت الأستاذ محمود أبو وافية صهر الرئيس إلى الساعة الثانية صباحا.

وقلت له بالإنكليزية : ((GOOD FOR YOU)) (خير لك)!

ولم أقل أكثر، فقد أدركت أن مسالك خلفية قد انفتحت وراحت الحركة تدب فيها، ولم أر أن ذلك من شأني.. وفي يوم ٢٧ يناير أصدر الرئيس السادات قرارا بالإفراج الصحي عن الأستاذ مصطفى أمين.

وفكرت طويلا كيف ننشر الخبر وبماذا نعلق عليه؟ وكتبت بنفسي تعليق الأهرام في العدد الذي صدر صباح يوم ٢٨ يناير، وكان نصه :

إن الصحافة المصرية تتلقى القرار بالإفراج عن الأستاذ مصطفى أمين بعرفان بالجميل عميق. وذلك لأنه لا جدال في أن الدور الذي قام به الأستاذان مصطفى أمين وعلي أمين هو حلقة في حياة وتطور مهنة الصحافة في مصر. وهذه المهنة قدمت ومازالت تقدم لهذا الوطن وهذه الأمة جهداً عظيماً أسهم ويساهم بطريقة

مؤثرة في تشكيل فكرها وحركتها.

ثم رأيت أن أمر على بيت الأستاذ مصطفى أمين أهنئه بالإفراج عنه، ومررت عليه واستقبلني بالأحضان، لكن شعورا داخليا جعلني أحس أنها أحضان ميكانيكية!

ولم أجد الأستاذ علي أمين معه وسألته عنه، وإذا به يقول لي : علي تضايق عندما قرأ تعليق الأهرام اليوم، فقد تحدث عن دورنا في الصحافة بالفعل الماضي.

ولم أدخل في جدل.

دقائق لمجاملات عادية، ثم خرجت أتركه لغيري ممن بدؤوا يتوافدون على بيته!

ولما وصلت إلى بيتي وجدت قراراً من السادات قد صدر بتعييني مستشارا له وتعيين الدكتور عبدالقادر حاتم رئيسا لمجلس الأهرام.

وصباح أول فبراير دعوت الدكتور عبدالقادر حاتم إلى الأهرام لكي يتسلم كل شيء فيه، وكان رأيي أن من اللائق بالأهرام وبي أن يتم انتقال متحضر.

وهكذا جمعت مجلس الإدارة ومجلس النقابة ومجلس التحرير وقدمت لهم الدكتور حاتم باعتباره المسؤول الجديد، ثم سلمته تقريرا من العقل الالكتروني عن اقتصاديات الأهرام وتوزيعها وأرباحها.

ثم غادرت المبنى لآخر مرة في الساعة الثانية والنصف بعد الظهر عارفا أنني لن أعود إليه مرة أخرى مهما حدث أو يحدث، فأنا لا أومن بأن التجارب قابلة للتكرار ولا أن التاريخ يعيد نفسه!

وسألتني وكالات الأنباء العالمية فأصدرت تصريحا مقتضبا يقول استعملت حقي في إبداء رأيي على صفحات الأهرام، ثم استعمل الرئيس السادات سلطته في

إبعادي عنه، وهكذا فإن كلا منا مارس ما لديه.

واتصل بى السيد عبدالفتاح عبدالله وزير شؤون رئاسة الجمهورية وقتها رقيقا ومتفضلا يبلغني أنه أعد لي جناحا من خمس غرف في قصر عابدين ويسألني متى أنوي الحضور، وإذا كانت لي طلبات فيما يتعلق بمكتبي وما إذا كنت أريد انتداب سكرتارية لي من الأهرام للعمل معي في رئاسة الجمهورية؟

وقلت له : لن أذهب إلى عابدين.

وقال : ولكن سيادة الرئيس أصدر قرارا.

وقلت : هذا حقه، ويبقى بعده حقي أن أقبل أو لا أقبل.

وتقاطر على بيتي بعد الظهر عدد من كبار المسؤولين بينهم أصدقاء لي وأصدقاء للرئيس السادات يحاولون إبقاء الجسور مفتوحة وأن أذهب غدا إلى عابدين.. وبقيت على رأيي.

وبعث إلى الرئيس السادات بواسطة صديق مشترك ما يكاد أن يكون تحذيرا نهائيا.

كان ذلك صباح يوم ٢ فبراير.

إذا لم أستجب وأنفذ القرار وأتسلم عملي في عابدين، فهو إذن خصام إلى الأبد. إنه صبر عليّ وقد خالفته كثيرا وعارضته حوارا وكتابة، وأردت أن أفرض عليه آرائي، وقد قبل مني أكثر مما قبل من غيري، لكن عليّ في النهاية أن أدرك أنه الرئيس، وأنه هو وحده صاحب الحق في القرار.

كثيرون قبلي خرجوا من الصحف ثم عادوا إليها، وهذا يمكن أن يحدث لي، والكل يعرف أني لا أتحمل فراق الأهرام بعد أن فعلت له كل ما فعلت.

إن الرئيس غاضب، ويقول إنك حولت في كتاباتك هزيمة سنة ١٩٥٦ إلى نصر،

بينما أنت تصف حرب أكتوبر بأنها نصف انتصار... وسمعت كله دون تعليق حتى جاءت الملاحظة الأخيرة، فقلت: أرجو أن يفهم الرئيس أن الحرب ليست معارك دبابات ومدافع، وإنما هي صدام إرادات، ونتيجة الحرب معلقة بالهدف السياسي الذي من أجله دارت المعارك، إذا كان الهدف بعد توقف المعارك مع طرف فإنه المنتصر، وإذا لم يكن معه فهو المهزوم. إن حرب السويس انتهت وقناة السويس جائزة الحرب في يد مصر وسيطرتها عليها كاملة، بل إن مصر استعادت سيناء وقطاع غزة وبغير شروط على السيادة.ومن هنا فإن السويس انتصار لا شك فيه.إننا بذلنا في حرب أكتوبر جهدا عظيما لا تسمح لنا الظروف بمثله مرة أخرى..

وحرام أن يذهب هذا الجهد دون أن يحقق جوائزه السياسية التي هي الفارق بين النصر والهزيمة.. إن الجيش انتصر لاشك، ولكن الشك يراودني في قدرة السياسة وفق ما أراه يحدث أمامي على تحقيق أهداف الحرب على انتزاع الجوائز السياسية من قبل المعارك.. لن تستطيع مصر لسنوات طويلة أن تحشد مثل هذا الجهد.. ولن يتاح للطرف العربي مرة أخرى بسهولة أن يبنى هذا التحالف العظيم الذي أدهش العالم.. خوفي هو على تضحيات الرجال والنساء والأطفال أن تذهب كلها هباء في مناورات ضاعت فيها الإستراتيجية وسط ألعاب ومناورات التكتيك!!.. قولوا للرئيس أن يعيد قراءة كتاب كلاوزفيتز المشهور عن الحرب.

ومساء نفس اليوم أصدر الرئيس أنور السادات قرارًا بتعيين الأستاذ علي أمين مديرا لتحرير الأهرام.

في محضر التحقيق

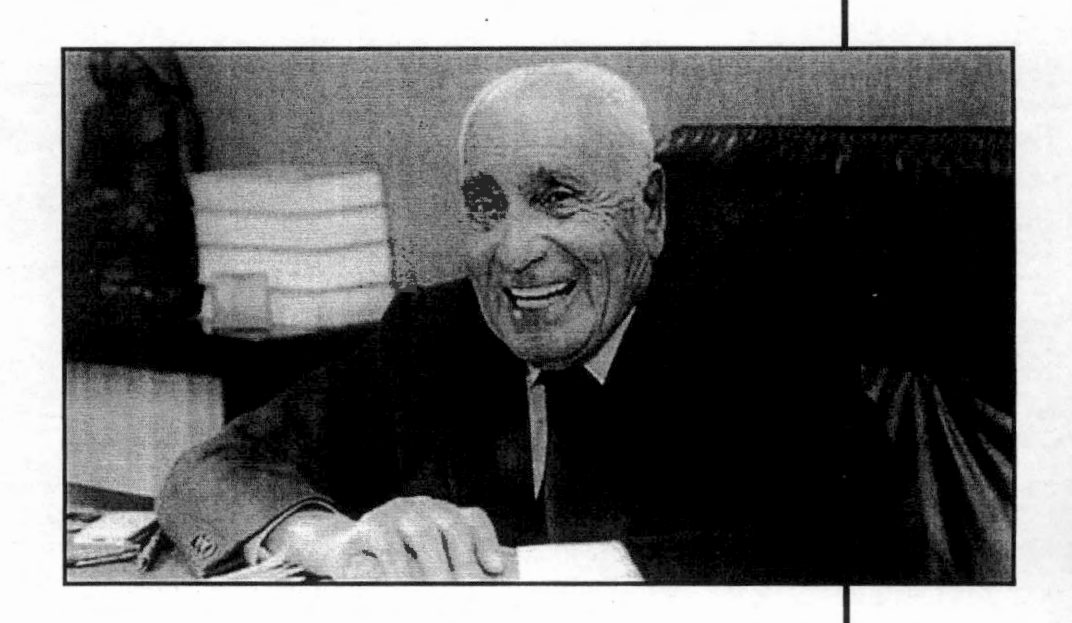
يؤكد هيكل أن حواره السابق مع السادات كان مسجلا في محاضر التحقيقات التي أجراها معه المدعي العام الاشتراكي بعد قرار اعتقاله الذي أصدره السادات في ٥ سبتمبر ١٩٨٠.

أما عن برقيات كينسجر وطلبه بالإفراج عن جواسيس المخابرات الأميركية وجواسيس إسرائيل فهي أيضا موجودة بعضها عنده والغريب أن السادات بعد فترة رأى أن مصطفى أمين خرج عن الخط في عموده الشهير فكرة وأمر بإيقافه وأبعد من ذلك.. طلب إبعاده عن لجنة أخبار اليوم التي تتلقى تبرعات القراء في الباب الذي ابتكره مصطفى بعنوان ليلة القدر وظل قرار الإيقاف ساريا حتى جاءت ليلة زفاف ابنة السادات إلى نجل المهندس عثمان أحمد عثمان وجاء بعض أفراد الأسرة بمصطفى أمين الذي انحنى يهنئ الرئيس (حسب تعبير هيكل).. وعاد يكتب فكرة.: لكنه ظل بعيدا عن التبرعات.



(٨)

وأغلق السادات سماعة التليفون في وجهه قائلاً : «إن شا الله ماكتبت يا محمد؟!»



هذه المرة جاء الهجوم على هيكل من بيروت حيث أطلقت عليه مجلة الحوادث الشهيرة وصف الطريد في صيغة أقل ما توصف به أنها الشماتة بعد خروجه من الأهرام وبعد أن صنع فيها ما صنع.. حتى جعلها المؤسسة الصحيفة الأولى ليس فقط في العالم العربي لكن على المستوى الدولي أيضا.

كان الهجوم في المجلة هدفه شطب اسم هيكل من دفاتر التاريخ وعرف مصدر الهجوم بكل سهولة فقد كانت الأمور واضحة أمامه، وفي ذلك قال:

ثم فوجئت بمجلة الحوادث اللبنانية - التي تصدر في لندن - تبدأ في نشر سلسلة من التحقيقات عنوانها ماذا فعل الطريد هيكل بالشريد علي أمين.

وجمعت سلسلة التحقيقات في ملف واحد وضعته في أحد الأدراج واعتبر الأمر من جانبي منتهياً.

كنت أعرف أن مجلة الحوادث في ذلك الوقت تنطق بلسان جماعات معينة في العالم العربي.. جماعات لها اتجاهات ومصالح وارتباطات لا أريد أن أخوض فيها لسبب واحد وهو أن صاحبها الأستاذ سليم اللوزي لقي مصرعه في ظروف مأساوية تثير غضبا حقيقيا في نفس أي إنسان، بصرف النظر عن أي اعتبار.

لكن بعض ما حوته السلسلة لفت نظري، وكان واضحا أن مصدره الأستاذ مصطفى أمين.

بينها -على سبيل المثال- أنني كنت وراء قانون تنظيم الصحافة لكي أسيطر على المهنة.

وبينها أنني قمت بنفي علي أمين إلى لندن.

وبينها أنني تخليت عن مصطفى أمين وعلي أمين بعد القضية ولم أقف معهما.

وبينها أنني كنت أزوره في السجن لمجرد أن أتشفى فيه.

وبينها أنني وجدت عملا في الأهرام لكي أتظاهر أمام الناس لا أكثر ولا أقل.

ثم زاد العيار مع قرب نهاية السلسلة.. أنا تواطأت على الأستاذين مصطفى وعلي أمين.

وأنا الذي لفقت التهمة للأستاذ مصطفى أمين.

وأنا الذي عارضت الإفراج عنه طول الوقت وآخره مع الرئيس السادات الذي كان مقتنعاً طول الوقت ببراءة الأستاذ مصطفى أمين.

ولم أغضب ولم أثر، فقد كنت أعرف الحقيقة ومعرفة الحقيقة دائماً مبعث ثقة وسند سلام للنفس والضمير.. ولكن الذي غضب وثار هو الأستاذ سعيد فريحة. كان شاهدا على كل ما حدث، بل وكان شريكا فيه، ووجد ذلك اللبناني الذي تتمثل فيه صلابة الجبل وتسيل منه عذوبة ينابيعه الصافية - أنه لا يستطيع أن يسكت على الحق أو يكتم شهادته.

وكتب في الصفحة الأولى من الأنوار تفاصيل ما رآه بعينه:

دفاعي عن مصطفى أمين أمام جمال عبدالناصر وأمام أنور السادات وتفاصيل كل ما قلت أمامهما والحجج التي سقتها وإلحاحي في الإفراج عنه. وذهابي إلى السجن ومعي الأدوية والفيتامينات وصناديق التفاح وعلب الدجاج. والمشاكل الكبرى التي تعرضت لها في ذلك الوقت حتى كادت بعض الشبهات أن تلحق بي أنا الآخر.. وغير ذلك كثير!

واتهم سعيد فريحة بأنه ينافقني، ورد على التهمة بحزم: أعرف مصطفى قبل أن أعرف هيكل بخمسة عشر عاما، وإذا كان الأمر نفاقاً فلماذا أنافق رجلا يلتزم بيته ولا أنافق هؤلاء الذين يسيطرون على مواقع القوة والنفوذ؟!.

ثم استبد به الغضب حتى نشر في الأنوار رسما كاريكاتورياً للخيانة والغدر - توأمين لهما ملامح لا يخطئ أحد في التعرف على أصحابهما!

مع السادات من جديد

وفي أواخر سنة ١٩٧٤ والنصف الأول من ١٩٧٥ توقفت الحملة، فقد عادت الصلات بين الرئيس السادات وبيني، وأمسك الآخرون أعصابهم.

في خريف ١٩٧٤ اتصل بي الرئيس السادات فجأة وبغير مقدمات يقول لي إنه يريد أن يراني، وحدد لي موعداً في استراحة الهرم، وذهبت إليه.

كان مؤتمر القمة العربية في الرباط على وشك أن يعقد، وكان هنري كيسنجر يطوف أرجاء المنطقة يحاول تحقيق مرحلة ثانية من فك الاشتباك بين القوات. سألني الرئيس السادات رأيي، وعرضت أمامه الموقف كما أراه. وسألني: ما هي خططي في العمل؟، وقلت له إني أوشك على الفراغ من كتاب عن حرب أكتوبر، وبعده فإني أفكر في كتابة مقالات لمجموعة من الصحف العربية تريد نشرها؟

وقال لي الرئيس السادات: لم أسألك عما تريد أن تفعله لنفسك. وإنما عما تستطيع أن تفعله معي؟.. وقلت إنني تحت تصرفه فيما يريد بعد أن أفرغ من كتابي وأعده نهائياً للنشر.

وقال لي: أردتك مستشاراً وأصدرت قرارا بذلك وأنت الذي لم تستجب.

ورددت أذكره بأني تحت أمره إلا فيما يختص بالمناصب والمراكز الرسمية والصحافية.

وراح يحاول إقناعي بتغيير رأيي.

وقلت: يا سيادة الرئيس.. دعنا نؤجل كل هذا الآن. لقد ابتعدت أنا عن الصورة من فبراير ١٩٧٤ حتى الآن - أكتوبر. دعني أطلب منك منصباً واحداً وعدني أن تعطيه لي.

وقال بلهجته المألوفة: لا أعطى وعدا على بياض.. ووعدته بألا أبالغ في طلباتي.

وقال: اطلب.

فقلت: منصب الصديق.. هذا ما أريده

وتظاهر بالغضب وقال: هذه محاولة للهرب.

وقلت: دعنا نجرب من جديد، لقد ابتعدنا ستة شهور لم نلتق فيها، وكان لي موقف من بعض ما حدث، وكان لك موقف، فإذا سمحت لي بمكان ومكانة الصديق فإنني أستطيع أن أعود للتعرف على مجرى الأحداث، وقد نستطيع أن نصل إلى تفاهم أعمق... وأشهد أنه كان ودودا في قبوله رأيي.

وهكذا عدت إلى الاقتراب منه، ورحت أراه بانتظام. ورحنا نتكلم في كل شيء.

في تلك الفترة تابعت عن قرب محادثاته مع هنري كيسنجر في أسوان، وكانت المحاولة الأولى في المرحلة الثانية في فك الاشتباك، ولم تنجح، وأتصور أن مناقشاتي مع الرئيس في مخاطر ما كانت تعرضه إسرائيل في ذلك الوقت كان لها أثر في موقفه، وكان رأيي أنه أقوى بغير اتفاق منه باتفاق سيئ، وتفهم وقبل.

وتوليت كتابة خطابه في مجلس الشعب الذي شرح فيه أسباب فشل الاتفاق.

وقدمت له في إطار مشروع هذا الخطاب اقتراح فتح قناة السويس. بقرار مصري. وبإرادة مصرية. وكنت أتصور أن ذلك يقلل من تلهفه على الوصول لاتفاق، فقد كان يريد دخل قناة السويس ودخل بترول سيناء. وقلت له: بهذا الاقتراح تستطيع بغير اتفاق أن تحصل على نصف ما تريد دون حاجة إلى شروط مجحفة.

وقبل رأيي كاملا. وحين رأى أثر فتح قناة السويس على العالم كله كان بالغ السعادة. وكنا نلتقي كل يوم.

ثم كتبت خطابه أمام مجلس الشعب عن إعادة تنظيم العمل الداخلي، وكان

يريد إسناد رئاسة الوزارة للسيد ممدوح سالم. وفي يوم ١٠ أبريل ١٩٧٥ دعاني إلى العشاء معه في استراحة القناطر وعرض علىّ منصب نائب رئيس الوزراء للإعلام مع السيد ممدوح سالم. وحين حاولت إبداء اعتذاري كان بين الأسباب التي ساقها لإقناعي قوله: تصور نفسك بعد كل ما كتبوه عنك عائدا نائبا لرئيس الوزراء للإعلام. سوف تدخل عليهم راكباً حصاناً أبيض، وتستطيع أن تضع أصبعك في عين ما تشاء!

ورجوته أن يترك لي فرصة التفكير.

ودعاني السيد ممدوح سالم إلى مكتبه في وزارة الداخلية في اليوم التالي ١١ أبريل ١٩٧٥ يعرض علىّ المنصب رسميا. واعتذرت له، وكان بين ما قلت من أسباب اعتذاري:

لي آراء مختلفة بشأن اتفاقات فض الاشتباك والعلاقات مع الولايات المتحدة. وأفضت في التفاصيل. وكان الرئيس السادات في تلك الأيام يشبه صحراء سيناء بقطعة من العظم يحيط بها بعض اللحم- واللحم هو قناة السويس والبترول- وكان تعبيره بالنص: أريد أن أمصمص اللحم وأترك لهم العظام إلى حين نصل إلى تسوية شاملة.

وقال لي السيد ممدوح سالم: تصرف مع من تشاء كما تشاء. لك مطلق الصلاحية في إعادة ترتيب أمور الصحافة.

وقلت: لا أريد أن أتصرف مع أحد.. كبشر تستهويني فكرة أن أعود وأضع أصبعي في بعض العيون، لكن هذا الذي يستهويني للحظة ربما يدعوني إلى الندم عمرا.. وفي كل الأحوال فأنا أفضل أن أبقى مع الرئيس في مكان ومكانة الصديق لا أكثر ولا أقل.

وهنا يجب الإشارة إلى أن الرئيس السادات بعد أن أدركه اليأس من هيكل والانسجام معه أوحى إلى موسى صبري بكتابات سلسلة مقالات تهاجمه وكان

ينشرها في يوم الجمعة.. وهو نفس اليوم الذي كان هيكل ينشر فيه مقالته بصراحة.. ولكن بعد سنوات عندما داهم السرطان موسى صبري واستقر على فراش المرض طلب من الكاتب محمود السعدني أن يتدخل لكي يحضر هيكل لزيارته وجاء بالفعل ليفوز ما هو إنساني على ما هو سياسي.. خاصة بعد أن تغيرت الأحوال وتبدلت وكما نرى فإن علاقة هيكل مع السادات أشبه بمنحنى.. يهبط ويصعد حسب الظروف. وما أن تهدأ الأمور حتى تعود للغليان وهذا ما حدث بعد أن أصدر هيكل كتابه الطريق إلى رمضان واعتبر السادات أن الكاتب لم يمنحه حقه كبطل للحرب. لكن هيكل طلب منه الانتظار حتى يصدر الكتاب ثم يحكم عليه.. وحكم السادات بعد ذلك بان هيكل يقوم بتزييف التاريخ.. ومع ذلك طلب منه أن يدافع عن اتفاقية فك الارتباط بين الجيش المصري والإسرائيلي وكان هذا هو الاتفاق الثاني ويقول هيكل: ثم رأى الرئيس السادات أن يتصل بي مرة ليطلب إلى أن أكتب في الدفاع عن اتفاق فك الارتباط الثاني. وسألته أن يسمح لي بالاطلاع على ملاحقه السرية، ورفض قائلا إنه لا توجد ملاحق سرية. وقلت: قرأت لاسحاق رابين رئيس وزراء إسرائيل تصريحا أشار فيه إلى وجود ملاحق سرية. وسألني بحدة: وهل تصدقني أو تصدق رابين؟.. وقلت:.بالطبع أصدقك.

وقال: لا أريدك أن تدافع عني.. لا أريد من أحد أن يدافع عني. ولكن الدفاع المطلوب هو عن مصر التي يهاجمها ويتهجم عليها السوريون والفلسطينيون والعراقيون وغيرهم.

وقلت: إن هؤلاء جميعا فيما أظن يركزون في هجومهم على الاتفاق وليس على مصر.

ونفذ صبره فقال: لا أريد فلسفة.. هل ستكتب أم لا؟.

ولم يكن هناك مفر من مواجهته فقد وضح الأمر حيث لا يعد هناك إلا جواب واحد وقلت أن يعفيني الرئيس من الكتابة وتصاعد غضبه وافلتت أعصابه وقال :

إن شاء الله ما كتبت وأغلق سماعة التلفون من جانبه.

وهنا أدرك هيكل أن علاقته بالسادات لن تقوم لها قائمة بعد ذلك لاسيما وان ما سبق هذه الواقعة وما لحق بها كان يؤدي لهذا الاستنتاج.. ألم تتحول محاكمة مصطفى أمين إلى محاكمة لهيكل؟!.. ألم يتم التحقيق مع هيكل أمام المدعي الاشتراكي مرتين في عهد السادات؟!!

أما محاكمة مصطفى أمين فيقول عنها هيكل:.. وفي اليوم التالي لجلسات المحاكمة فوجئت بمحامي الأستاذ مصطفى أمين يطعن في شهادتي أمام المحكمة، ثم يقدم ما نشرته مجلة الحوادث عني.. على لسان الزعيم الروسي خروشوف من أني تقاضيت مبالغ مالية من جريدة واشنطن بوست الأميركية لكتابة عدة مقالات ضد السوفيت.. وفي اليوم التالي ذهبت إلى المحكمة ودخلت غرفة المداولة وجلست أكثر من ساعتين مع أعضاء هيئتها الثلاثة أشرح لهم الحقيقة.

قلت: أولا لا أدافع عن نفسي فيما نشرته مجلة الحوادث بالإشارة إلى ثقة جمال عبدالناصر في، وفى الحقيقة أنه في ذروة صراعه مع الولايات المتحدة الأميركية لم يكتفي بأن يتركني في الأهرام رئيسا لتحريره ومجلس إدارته، وإنما أضاف إلى وزارة الإرشاد وعضوية مجلس الأمن القومي، والقيام بأعمال وزير الخارجية في نفس الوقت.. لن أدفع بذلك.

سوف أناقش أولا مسألة خروشوف. ومقالات واشنطن بوست.

أولا: لم أكتب في حياتي كلها مقالا لواشنطن بوست ولم أتقاض منها بالتالي سنتا واحدا.

وثانيا: فيما يتعلق بخروشوف فربما يتذكر الناس أنه دعاني في مايو سنة ١٩٦٤ إلى بيته في يالتا لكى أرافقه طول رحلته من يالتا إلى الإسكندرية -خمسة أيام

بالبحر- حتى يستطيع أن يسألني فيها يريد ويتعرف منى على عالم عربي وإسلامي وأفريقي، يوشك أن يزوره لأول مرة بزيارته لمصر لحضور الاحتفال بإتمام بناء المرحلة الأولى من السد العالي.

بعدها لم أر خروشوف لأنه في أكتوبر من نفس السنة - سقط من السلطة. فمتى إذا كانت تلك الواقعة التي نشرتها الحوادث؟! وهكذا فند هيكل الاتهامات وتجاوزها ولكنه لم يتجاوز الصدع. وفي علاقته مع السادات ازدادت الأمور توترا.. وكتب هيكل(ولعله كان يبرر سبب تصاعد التوتر مع السادات): رحت منذ سنة ١٩٧٥ أكتب عن مصر مقالات منتظمة تنشرها مجموعة من الصحف العربية خارج مصر. كانت أولها سلسلة ظهرت في كتاب بعنوان «لمصر لا لعبدالناصر».. ثم تبعتها سلاسل أخرى كانت بينها مجموعة مقالات عن المبادرة صدرت في شكل كتاب تحت عنوان حديث المبادرة.

وبدأ الرئيس السادات يعد قانون العيب وبدأ بعض مستشاري مجلس الدولة المكلفين بمراجعة صياغة القانون- يسمونه قانون هيكل.

وحاول في هذه الفترة أن يدفعني إلى الهجرة من مصر. وخاف كثيرون من أصدقائي.

ولم أهاجر، بل ولسنة كاملة لم أسافر من مصر على الإطلاق حتى أكون تحت تصرف أي قانون، حتى ولو كان مفصلا من أجلي!

وقرر الرئيس السادات سنة ١٩٧٨ أن الفرصة قد واتته ليضرب، وأحالني إلى المدعي الاشتراكي ومنعني من السفر. وجرى التحقيق معي صيفا بأكمله والصحف تكتب قبل كل جلسة أنه يحقق معي لأنني أسأت إلى مصر فيما كتبت خارجها. ولم أسيء إلى مصر بحرف- وإنما كنت انتقد سياسة رئيسها وأعتبرها هي التي تسيء إلى مصر.

وانتهى التحقيق، وانتظرت التصرف فيه، لكنهم تركوه معلقا. وقررت نشر محاضرة كاملة في كتاب بعنوان «وقائع تحقيق سياسي أمام المدعي الاشتراكي في مصر». وخلال هذا كله كانت حملة التحريض عليّ مستمرة.

ثم كان أن شملتني اعتقالات ٥ سبتمبر الشهيرة سنة ١٩٨١ - ولم تظهر كلمة دفاع واحدة عن الحرية - بل حدث العكس مع الأسف - وقتها رغم أن ضربة القمع شملت كل القوى السياسية في مصر!

وأثناء التحقيق معي أمام المدعي الاشتراكي -للمرة الثانية- بينما أنا رهن الاعتقال، وقعت حادثة غريبة.

أثناء التحقيق معي كان المستشار ناجى إسحق - الذي اختص بالتحقيق مع اثنين من المعتقلين فقط وبالتحديد - الأستاذ فؤاد سراج الدين وأنا - يمسك بورقة تتضمن تقرير إدارة المباحث العامة عن نشاطي الذي استوجب اعتقالي والتحقيق معي.

وسألته: هل أستطيع أن أطلع على هذا التقرير؟

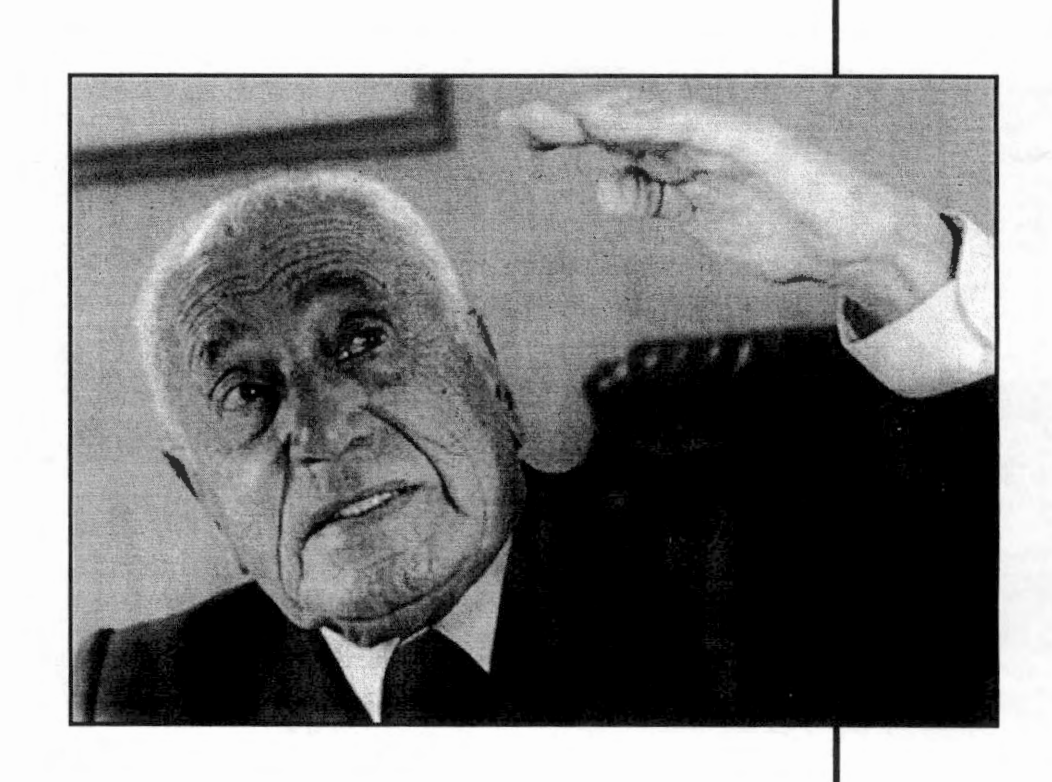
وكان غيري ممن سبقوني إلى التحقيق أمامه أو أمام غيره من المستشارين قد سمح لهم بالاطلاع على تقارير المباحث أو المخابرات التي تصف نشاطهم المعادى.

وقال المستشار ناجى إسحق إنه لا يمانع في اطلاعي على التقرير.

قال لي: لا يوجد أمامي شيء يخصك في تقارير المخابرات. وإنما هناك هذا التقرير من المباحث. وناوله لي!!

(٩)

وتحولت سيارته إلى تاكسي تنقل ناصر وحكيم إلى محطة باب الحديد !!



تناول هيكل في التحقيقات التي أجريت معه التقرير الذي يتضمن عريضة اتهاماته ويحكي عن ذلك قائلا: ألقيت نظرة على الصفحة الأولى منه. كلها تهم لا أدفعها، بل على العكس أعترف بها. كتبت كذا في جريدة كذا يوم كذا أعارض كامب ديفيد، وكتبت كذا في جريدة كذا يوم كذا أعارض التطبيع. وكتبت كذا في جريدة،كذا يوم كذا انتقدت سياسات الرئيس السادات.. وكانت تلك آرائي أقولها وأرددها وأكتبها وألح في كتابتها وأتحمل مسؤوليتها بالطبع دون تردد أو خشية.. ثم هو كلامي عليه اسمي وفيه أسلوبي ومجمله قناعتي.

ثم انتقلت إلى الصفحة الثانية. كان فيها بند واحد!.. ووراء هذا البند قصة.

فقد كان الرئيس السادات يكره أشد ما يكره صحافياً بريطانياً هو ديفيد هيرست مراسل جريدة الجارديان البريطانية في مصر. وكان هيرست كتب مجموعة من المقالات عن أوضاع مصر الداخلية ضايقت الرئيس السادات وأوغرت صدره.

ولسبب لا أعرفه حتى هذه اللحظة، كان الرئيس يظن أني أعطيت لديفيد هيرست ما كتبه في مقالاته من معلومات، وهاجمني في إحدى المرات علنا بسبب هذا الظن.

وكتبت مقالاً ضمن ما كنت أكتب أيامها. تطرقت فيه إلى هذه القصة، ثم قلت لم أقابل ديفيد هيرست في حياتي إلا مرة واحدة. وكانت بعد وليس قبل مقالاته عن الرئيس السادات. وهذا أمر يمكن التحقق منه بتقارير أجهزة الأمن التي أعلم أنها تتابع كل حركة لي وكل سكنة.

والآن -في هذه اللحظة- وفي التحقيق أمام المستشار ناجي إسحق -وأنا ألقي نظرة على الورقة الثانية والبند الوحيد فيها -تقرير المباحث ضدي- كان ما قرأته مذهلا.

كان المكتوب بالنص: إن الأستاذ هيكل على صلة بديفيد هيرست المعروف

بعدائه لمصر عن طريق صديق مقرب منه وهو الأستاذ محمد سيد أحمد.

ثم بعدها بالنص أيضا: إن المعلومات الواردة في هذا البند مصدرها الأستاذ مصطفى أمين.. وفتحت فمي من الدهشة وأردت أن أسجل بشهادة شهود ما قرأت.

كان يحضر معي في التحقيق رسمياً المحامي الأستاذ الكبير والصديق الكبير المستشار ممتاز نصر. وكان يحضره أيضا زميلي الأستاذ صلاح جلال نقيب الصحافيين.

وناولت التقرير للمستشار ممتاز نصر ورجوته أن يقرأ هذه الفقرة. ثم ناولته للأستاذ صلاح جلال وقلت له أنت كنقيب للصحافيين أرجوك أن تطلع على هذه الفقرة وتتذكرها.

وقال المستشار ناجي إسحق: هل نحن سألناك في هذا أو اعتبرناها تهمة؟ وإذن فما هي قيمتها؟.

ولم يكن للإنصاف قد سألني فيها. ولم يكن ما يعنيني فيها كونها تهمة توجه أو لا توجه لي، وإنما كان يعنيني فيها شيء آخر!

ثم جرى ما جرى على منصة الاستعراضات العسكرية في مدينة نصر ظهر يوم ٦ أكتوبر ١٩٨١.. وخرجنا جميعا من السجن بعد ثلاثة شهور.

خرجنا من قصر رئاسة الجمهورية، وبعد لقاء مع الرئيس الجديد الذي قال للكل يومها:

أريد أن ننسى ما حدث.. وأريد صفحة جديدة.. وأريد تعاون كل القوى في مصر.

وساد الجو لبعض الوقت هدوء مشوب بالحذر. كما يقولون!

كان الرئيس الجديد هو حسني مبارك.. فهل تغيرت علاقته بالجورنالجي الذي تعود على اللعب مع الكبار.. وعبر ثلاثين سنة هي الأطول عمرا بين علاقات هيكل بالرؤساء.. سنكتشف الكثير.. لكن هل يمكن أن نقفز من عصر السادات.. إلى عصر مبارك دون أن نرجع إلى عصر عبدالناصر حيث لمعت شخصية هيكل وصعدت إلى أعلى السلم وجلبت له من المجد الكثير مثلما فتحت عليه أبواب الجحيم سنترك عصر مبارك مؤقتا. لأنه بشكل أو بآخر مرتبط بالفترة المؤقتة التي تولى فيها المجلس العسكري حكم البلاد بعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ وكان هيكل مراقبا لها وراصداً لأحداثها.. لكن في المقابل كان هناك من يراقب هيكل نفسه ويرصد تحولاته ويكتب عن خريف هيكل.. مثلما كتب هو من قبل خريف الغضب أنه عادل حمودة احد أبرز محاسبيه ومريديه..

ضابط وصحفي

والآن فإن دواعي الحكاية وكشف اللغز.. تقتضي أن نعود إلى حكاية ضابط وصحافي بدأت في الأربعينيات وفيها الكثير من الوقائع التي تكشف خبايا اللغز ويقول الكاتب العربي فؤاد مطر في مقدمة كتابه «بصراحة عن عبدالناصر»: أن محمد حسنين هيكل هو صحافي العصر. وهو احد ابرز الظواهر في التجربة الناصرية. وكما أن الناصرية هي الرائدة في مضمار استخدام الانقلاب العسكري لإحداث ثورة، فأنها أيضا الحركة الأولى أو الثورة الأولى في التاريخ التي اتخذت من الصحيفة نوعاً من البديل للحزب، وهذا ناتج عن ارتباط من نوع استثنائي بين شخص قائد الثورة جمال عبدالناصر وشخص محمد حسنين هيكل. وقد تحولت الأهرام منذ أن تولاها هيكل، وبفضل العلاقة ذات الطبيعة الخاصة بينه وبين عبدالناصر، إلى ما يشبه الحزب لعبدالناصر.

ومحمد حسنين هيكل هو الشاهد الوحيد القوي الذاكرة للتجربة الناصرية. هنالك شهود آخرون كثيرون إلا أن الامتياز لهيكل هو أن اقترابه المستمر من

عبدالناصر وقراراته واختياراته وتكتيكاته جعل منه شاهداً تاريخياً على أهم تجربة شهدها العالم العربي والعالم الثالث.

ومحمد حسنين هيكل كان كبير الطهاة في مطبخ السياسة المصرية في عصر عبدالناصر، وكان هو الذي يعد المسرح السياسي لجمال عبدالناصر البطل التراجيدي للظاهرة الناصرية.

وهنا نعود إلى هيكل نفسه يسرد بطريقته كيف كان اللقاء الأول مع ناصر:

قبل أي شيء يجب أن أفرق بين التعارف والصداقة. لقد رأيت جمال عبدالناصر للمرة الأولى في صيف ١٩٤٨ خلال حرب فلسطين، يومها لم يكن هنالك مراسلون صحافيون مع الجيش المصري الذي ذهب إلى فلسطين لأن وزير الحربية آنذاك الفريق حيدر باشا كان من رأيه ألا يرافق الصحافيون القوات المصرية الذاهبة إلى الحرب، وان يكتفي هؤلاء بالحصول وهم في القاهرة من إدارة الشؤون العامة في الجيش على البيانات التي تصدرها القيادة. لكني رفضت بيني وبين نفسي مثل هذا الأسلوب. كان يجب أن أذهب إلى فلسطين بدل أن أبقى في القاهرة في انتظار صدور بيانات رسمية. والذي جعلني أتمسك بضرورة السفر هو انني قبل ذلك بمدة طويلة رافقت قوات المقاومة التي نفذت عمليات على أرض فلسطين. رافقت جيش اليرموك الرابع، وقوات الفداء، وقوات الجهاد المقدس. وهذه المرافقة أمنّت لي معرفة مداخل فلسطين ومخارجها وطرقها.

وعلى هذا الأساس انتقلت من القاهرة إلى عمان بالطائرة. ومن عمان استخدمت سيارة نقلتني إلى القدس.. ومن القدس إلى بيت لحم عن طريق سورباهر وطريق المستعمرات مستعمرة الزراعة، ومستعمرة رامات راحيل. ومن بيت لحم توجهت إلى الخليل مع القوات التي قادها أحمد عبدالعزيز وكانت قوات شبه نظامية. وأتذكر أن كمال الدين حسين كان قائد مدفعية هذه القوات.

وأنا أروي ذلك لأحدد تماما المنطقة التي التقيت فيها جمال عبدالناصر. كنت كما قلت أتوجه إلى بيت لحم ومنها إلى الخليل عبر بيت جبريل وعراق المنشية ثم إلى المجدل حيث كانت ترابط مجموعات من الجيش المصري.

وذات يوم من يونيو كنت متوجهاً من القدس إلى المجدل بسيارة جيب تابعة لقوات احمد عبدالعزيز.

وفجأة توقفت السيارة قرب عراق سويدان حيث تقع مستعمرة صغيرة تدعى جات. وهذه المستعمرة كبرت بعد ذلك وأصبحت شهيرة في صنع الماس وصقله.

بعد توقف السيارة بسبب معركة كانت دائرة آنذاك توجهت نحو عراق المنشية مشياً. وفى مركز البوليس هناك عرفت تفاصيل كثيرة. عرفت أن الكتيبة السادسة التابعة للقوات المصرية التي حولت المركز إلى مقر قيادة للمعركة انتصرت بفضل قائدها الذي تمكن من صد هجوم يهودي مباشر كان يستهدف السيطرة على عراق المنشية وعراق سويدان. وقال لي الضباط والجنود الذين كانوا في غاية السعادة أن الذي قاد العملية هو الصاغ جمال عبدالناصر أركان حرب الكتيبة السادسة.

وسألت عنه، وأين هو.. وأجابوني: أنه في المكان الفلاني من المركز.

ونزلت إلى حيث كان الصاغ الذي قاد عملية ممتازة. ووجدت أمامي شاباً طويل القامة. افترش بطانية وآثار التعب بادية على وجهه. وكان يستعد للنوم.

وقدمني أحدهم إليه على أساس انني مهتم جدا بأخبار فلسطين. وكنت يومها أكتب في أخبار اليوم تحقيقات عن فلسطين.

استمرت جلستنا زهاء ثلث ساعة ولم أخرج بنتيجة. رفض الصاغ أن يتحدث. صحيح انه كان مرهقا جداً وأنه لم ينم منذ خمسة أيام لكن رفضه كان ناجماً عن غضبه مما تنشره الصحافة المصرية ومن طريقة معالجة الصحف المصرية لحرب فلسطين.

وتركته لأكمل مهمتي المتعلقة بتغطية أخبار الحرب. وشاءت الصدف أن أراه ثانية عند عودتي إلى المنطقة من جديد.

وفي سيارتي الخاصة ركبنا جميعا وبعد نصف ساعة من الكلام قال عبدالحكيم عامر لجمال عبدالناصر: سننزل هنا في محطة باب الحديد.

لم أكن أتصور أن الشاب الذي لقيته مرات قليلة قبل ذلك والذي يحدثني الآن يقود حركة سرية داخل الجيش. ولم يدر في خلدي أن هذا الشاب الطويل القامة ذا الشاربين الرفيعين الذي يرتدي قميصا ابيض وبنطلونا رمادياً يتحرك بصمت.

لكنني كنت وهو يتحدث ويناقش ألاحظ أن عينيه تلمعان. وكنت ألاحظ انه يريد أن يسمع أكثر مما يتكلم.

لقد حدث وأنا أوصله مع عبدالحكيم عامر أن قال لي انه ضحك كثيرا لمنظري وأنا احيي الإمام آية الله الكاشاني وهي صورة ضممتها لكتابي إيران فوق بركان.. لكنه انتقل إلى الحديث عن الانقلاب وكيف أن الانقلاب سيؤدي بالبلد إلى كارثة.

وفجأة سألني: هل تظن أن الانكليز سيتدخلون لو حدث انقلاب في مصر؟

ولاحظت انه يصغي باهتمام كلي إلى الجواب.

أجبته أن الانكليز لن يتدخلوا. وعندما سمع هذا الجواب المقتضب أراد المزيد من التفاصيل. وعندما أوردت له ما أتصوره. قلت له أن الانكليز لا يمكن أن يتدخلوا لأسباب عدة منها انه ليست لديهم قوات كافية للسيطرة على كل المدن المصرية. بالإضافة إلى ذلك أن السفير البريطاني في أجازة والملحق العسكري في أجازة.. حتى اني عرفت من أحد الأصدقاء أن قائد القوات البريطانية في الإسماعيلية موجود خارج مصر في اجازة. أن الموسم هو موسم إجازات. والتدخل يحتاج إلى وقت.

قبل أن ينزل عبدالناصر من سيارتي في محطة باب الحديد قال لي: من الضروري أن نكمل الحديث.

قلت: ما رأيك لو نكمله في مكتبي في أخبار اليوم؟

وسألني: هل عندك تليفون في منزلك؟

وأعطيته رقم الهاتف.. كان ذلك يوم ١٨ يوليو ١٩٥٢. وفي اليوم التالي اتصل عبدالناصر هاتفيا وقال: أنا الذي التقاك أمس. هل تذكر؟

وتقابلنا يوم ١٩ يوليو.. جاءني عبدالناصر وبدأ الحديث في قضايا عادية جدا. حدثني مثلا عن الصحافة وعن المجلة التي كانوا يصدرونها في الفالوجه. وعن فلسطين وعما جرى في الفالوجه. تحدث لمدة نصف ساعة تقريبا ثم وجه سؤالا شعرت أنه الغرض الأساسي من زيارته لي.

قال: كنا نتحدث أمس عن الانكليز وإمكان تدخلهم. هل يمكن أن تحدد لي بطريقة مرتبة الأسباب التي اوردتها أمس وانتهيت منها إلى أن الانكليز لا يمكن أن يتدخلوا لو حدث انقلاب أو شيء من هذا القبيل في البلد؟.

وعرضت له ما طلبه. وشعرت أن الصلة بيننا بدأت منذ انتهى هذا اللقاء الذي سافرت بعده إلى الإسكندرية.

ثورة البكباشي

وتركني سعد توفيق الذي كان يتكلم بطريقة مشدودة وبغمغمة بعدها أعطاني أرقام تليفوناته. ثم جاءني يوم ٢١ يوليو وكان الهلالي ألف حكومته وأشرك فيها مرتضى المراغي كوزير للداخلية واختار بعد ذلك إسماعيل شيرين صهر الملك كوزير للحربية. وتحدثنا في الأوضاع العامة وكان رأيي أن نجيب الهلالي ممتاز.

ويوم ٢٢ يوليو جاءني سعد توفيق للمرة الثالثة. وكالعادة تكلم في العموميات ثم قال: أين ستكون لان صديقك قد يحتاج إليك. ويحتمل أن نتصل بك هاتفيا.

قلت له اني سأكون في أخبار اليوم حتى التاسعة والنصف وبعد ذلك سأتناول العشاء في بيت ماهر دوس.

وحدث انه بعد وصولي إلى منزل ماهر دوس اتصل سعد توفيق هاتفيا وقال لي: هل يمكن أن تذهب إلى بيتك؟

وتوجهت إلى بيتي. حتى ذلك الوقت لم يكن خطر في بالى أن ثورة سيقوم بها البكباشي الذي أصبح صديقي. كنت أشعر أن أمراً ما سيحدث. لكني لم أتصور أن هذا الأمر هو الذي حدث بعد ذلك.

في العاشرة والنصف ليلا كنت في منزلي، عندما اتصل بي فريد زعلوك من الإسكندرية. وفريد صديقي ومقرب من نجيب الهلالي وهو وزير دولة في حكومته. وفوجئت به يقول لي: يبدو أن هناك امرا ما داخل الجيش. ولقد بلغت نجيب الهلالي عن طريق السرايا أخباراً عن أمر ما داخل الجيش. وهو يسأل عما إذا كانت لديك معلومات في هذا الشأن.

قلت: ليست لدي معلومات فما هي بالضبط المعلومات المتوافرة لدى الهلالي؟

أجاب فريد زعلوك: يبدو أن بعض الضباط تركوا الثكنات.

وعندما كنت في منزل محمد نجيب اتصل به احدهم هاتفيا وفهمت انه مرتضي المراغي. واتصل المراغي مرة أخرى وقال ما معناه إن بعض الضباط تركوا الثكنات وان ذلك سيحدث فوضى في البلد. وتبعاً لذلك سيتدخل الانكليز، ولذا فان الملك يفوض إليه أي يفوض إلى نجيب الاتصال بالعيال المجانين وينهي المسألة بالتي هي أحسن.

ورد عليه محمد نجيب بما معناه أن لا معلومات لديه حول الأمر. وأعتقد أن محمد نجيب لم تكن لديه بالفعل معلومات وان كل ما عرفه من جمال عبدالناصر هو

أن هناك حركة داخل الجيش. وكان عبدالناصر عندما تحدث معه عن تلك الحركة بشكل مقتضب سأله إذا كان يريد الانضمام إليها. وأبدى نجيب حماسة. وانتهت الاتصالات بين عبدالناصر ومحمد نجيب عند هذا الحد يوم ١٨ يوليو ١٩٥٢.

كرر محمد نجيب لمرتضى المراغي انه لا يعرف شيئا عن مسألة ترك الضباط للثكنات. وفوجئت به يقول أيضا: حتى أنا عندي الآن الأستاذ هيكل بتاع أخبار اليوم.

وبعدما سألته عن سبب قوله ذلك للمراغي تركت منزل محمد نجيب للقاء سعد توفيق في المكان الذي اتفقنا على اللقاء فيه. وأخذني إلى القيادة.

كانت الساعة نحو الثالثة فجر ٢٣ يوليو ١٩٥٢. الشخص الأول الذي شاهدته كان عبدالحكيم عامر. وجدته واقفا على الباب. وعندما رآني قال لي: خلاص. القاهرة كلها...

وقلت: أيه يعنى القاهرة كلها....؟

أجاب: أخذناها. القوات مسيطرة على كل القاهرة.

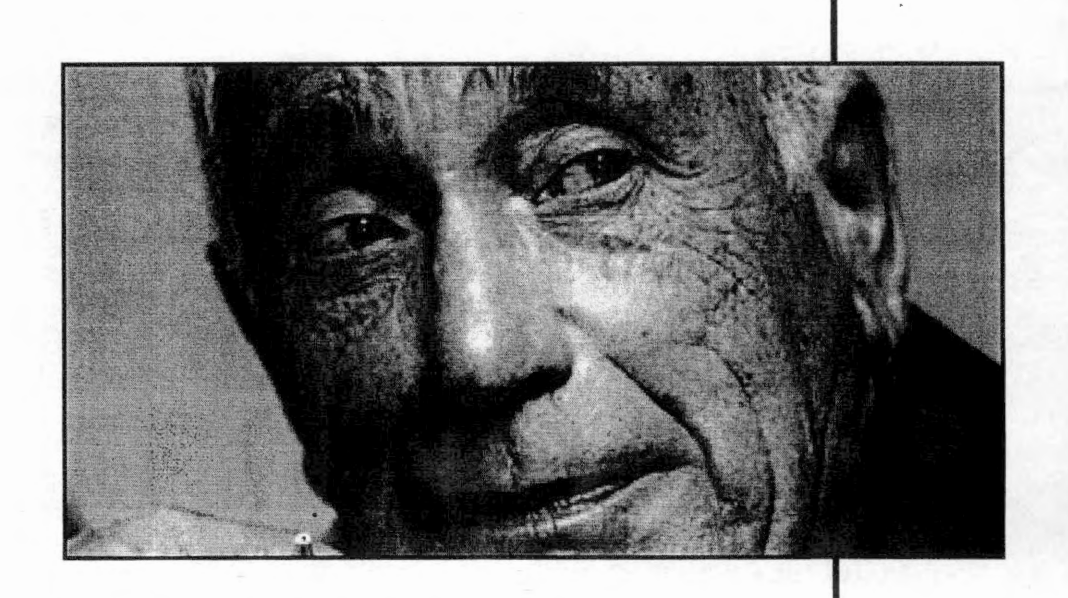
قلت له: هل هذا انقلاب؟

بعد ذلك تطلعت إلى حوش القيادة فوجدت مئات الضباط والجنود يفترشون الأرض ويأكلون. وهؤلاء كانوا أفراد الكتيبة ١٣ التي قبضت خطأ على عبدالناصر وعبدالحكيم عامر ثم تعرف إليهما يوسف منصور صديق.وأفرج عنهما.

هذه رواية مختلفة اختلطت فيها معرفة هيكل بالضابط الشاب عبدالناصر وصديقه عبدالحكيم عامر.. بثورة ٢٣ يوليو. وإذا كان هو ما جرى عند الفجر.. فماذا عن بقية اليوم الذي وصفه البعض بأطول يوم في تاريخ مصر؟

(١٠)

الصحفي في مطبخ الثورة وصديقه الضابط هو الكل في الكل!



وقف هيكل أمام مجموعة من جنود كتيبة كانت قد قبضت على عبدالناصر وعبدالحكيم فجر يوم ٢٣ يوليو بطريق الخطأ.. ثم أفرجت عنهما بعد ذلك.. كان الجنود يأكلون الفول وحاول هيكل أن يعرف ماذا جرى.. وفجأة ظهر عبدالحكيم عامر وسأله : أيه رأيك هل يتدخل الانكليز .. صاحبك ينتظرك فوق .. ويحكي هيكل:

وصعدت لأجد جمال عبدالناصر ومعه كمال الدين حسين الذي كان لايزال عاتبا على مقال كتبته في أخر ساعة عام ١٩٤٩.

قلت له : ما الذي حصل؟

أجاب : خلاص...

قلت له : خلاص أيه...؟

أجاب : كنت تقول إن الجيش عجز عن رد شرف البلد عام ١٩٤٨، هل الذي فعله الجيش الآن كويس؟

قلت له : ما الذي حدث. ما الذي تقول إن الجيش فعله؟

أجاب وكانت برقيات التأييد بدأت تصل من المناطق : يعني لسه مش فاهم؟

وأضاف: لا يهم ما الذي سيحدث. المهم أننا صممنا ونفذنا وأكدنا أن في مصر شبانا رفضوا المهانة وتحركوا.

في تلك اللحظة ظهرت بعض صفات عبدالناصر القيادية. وفي تلك اللحظة شعرت انه الرقم واحد في الحركة، وان كل الذين حوله يلجأون إليه في أي قرار. لم أكن حتى تلك اللحظة اعرف انه قائد الثورة لكنني كنت أشعر أنه هو القائد الفعلي. كل واحد كان يهمس في أذنه أو يأخذه على جنب ليحدثه في أمر ما. كان محور كل الاتصالات. وبعد قليل أرسل وراء محمد نجيب وجاء نجيب مستغرباً.

وفكرت في أن اتصل بصحيفة الأخبار لأعرف الجو داخل الصحيفة

والمعلومات التي وصلتها. رد على سكرتير التحرير حسين فريد. سألته عن أحواله فأجابني : يظهر انه في دوشه...

قلت له : ما الذي ستكتبه؟

أجاب : لا اعرف. اتصل بي مصطفى بيه (يقصد مصطفى أمين) وقال انه يبحث عنك.

. قلت له : ما الذي سنفعله؟

أجاب : لا اعرف : ما الذي حدث بالضبط؟

قلت : الذي حدث هو أن الجيش ترك الثكنات وقام بحركة.. هل انجرت الطبعة الأولى؟

في هذا الوقت دخل موظف الهاتف في الأخبار حامد الشوبرى الذي أصبح بعد ذلك عاملا في مطبعة الأهرام وقال لي : أستاذ هيكل. مصطفى بيه بيتكلم من إسكندرية ويسأل عنك يريد التحدث إليك هل أصلك به؟

وأجبته : ايوه.

وسألني مصطفى أمين عن الذي حدث. وسألني أين أنا الآن.

وقال : يبدو أن في الجيش حركة عصيان. هل عندك معلومات؟

قلت : لا. ليس عندي معلومات.

قال: أزاي ما عندكش. أنت فين دلوقتي؟

اجبته : أنا في رحاب العصيان.

قال: الخط وحش. ممكن تديني نمرة التليفون وأنا حاطلبك؟

قلت: لا. لا استطيع أن أعطيك رقم الهاتف حيث أنا الآن.

وأصر مصطفى أمين على أن أعطيه رقم هاتف القيادة فطلبت منه أن ينتظر قليلا.

كان في الغرفة سعد توفيق وعبدالحكيم عامر. وكان جمال عبدالناصر في الخارج. لا أعرف أين. وشعرت أنني لا يمكن أن أعطيه من دون أن استأذن. قلت لسعد توفيق أن مصطفى أمين يتحدث من الإسكندرية ويريد أن أعطيه رقم الهاتف. وسمع عبدالحكيم عامر كلامي فقال مستهجنا: أيه؟..

وكان عبدالناصر في طريقه عندئذ إلينا وسمع عبدالحكيم عامر يعبر عن استغرابه بعبارات قاسية. وضحك عبدالناصر وقال لي : أعطه الرقم. وقال لسعد توفيق : شوف النمرة كام. وأعطاني سعد الرقم فأعطيته لمصطفى أمين.

وأغلقت سماعة الهاتف بينما كان عبدالحكيم عامر يقول لعبدالناصر: أزاي ده يحصل. السرايا حتعرف.

ورد عبدالناصر: مش مهم ياحكيم. يجب أن نعرف كيف يفكرون. المهم أن يتصل وهيكل يعرف منه، مش هو يعرف من هيكل.

هذه الحادثة كشفت لي عن ظاهرة مهمة بالنسبة إلى جمال عبدالناصر وهي سرعته في اتخاذ القرار.

منذ اليوم الأول وجدت نفسي وسط القيادة. اشرح كيف أن الانكليز لن يتدخلوا. أعطى رقم هاتف القيادة لمصطفى أمين. اسمع كل الأحاديث من كل المشاركين في الثورة.

بعد قليل من إعطائي رقم الهاتف.. اتصل بي فريد زعلوك. ثم اتصل مصطفى أمين يسأل عن التفاصيل وعن مكان وجودي.

وقلت له انه لا تفاصيل حتى الآن وأنني موجود في مبنى من مباني الهيصة اللي أحنا فيها.

وقلت له أيضا : حنكتب حاجة؟

أجابني : لا. لا. مش مسألة كتابة. استني لما نشوف حيحصل أيه. أيه اللي حصل؟

قلت له : أرى دبابات كثيرة تخرج وعربات عسكرية تدخل.

قال : هل اللواء محمد نجيب عندكم. هل هو مشترك في الحركة؟

أجبته : رأيته منذ قليل ولا اعرف إلى أين ذهب.

قال : هل يمكن أن تستقصي لنا الأمر وتلم بالصورة كاملة وتخبرنا.

كانوا يريدون أن يعرفوا الموقف مني. وهم سألوا عن محمد نجيب لأنه كان مكلفا من الملك أن يتصل بقيادة الحركة ويهدئ الوضع.

بعد ذلك اتصل فريد زعلوك ثانية وكان حصل على رقم الهاتف من مصطفى أمين. وقال فريد: الهلالي باشا عاوز يكلمك.. (أحمد نجيب الهلالي هو رئيس آخر وزارة مصرية في عهد الملكية وأحد رجال السياسة والقضاء البارزين في هذا العصر. ولد في أكتوبر ١٨٩١ بأسيوط وتوفي عام ١٩٥٨).

وسألني الهلالي عن الحالة والأخبار وعما إذا كنت اعرف أحدا من أركان الحركة.

وقلت له أنني اعرف بعضهم. وسأل عن محمد نجيب وطلب أن أتحدث إليه. وبعد ذلك طلب مني أن اتصل بالذين اعرفهم من أركان الحركة وأسألهم ماذا يريدون، وأوضح لهم أن المسألة في منتهى الخطورة لان الانكليز سيتدخلون. وكرر الهلالي الطلب: أنت يا محمد لازم تكون على معرفة بالناس دول. أنا عاوز تقولهم هم عاوزين ايه.

في هذه اللحظة دخل أنور السادات فكلفه عبدالناصر التوجه إلى محطة الإذاعة

والتلفزيون لقراءة البيان الأول للثورة.

وقال لي عبدالناصر: قل لهم أن يسمعوا بياناً من الإذاعة سيذاع في الساعة السابعة صباحا.

كان الوقت عندئذ نحو السادسة ألا الربع، أي قبل الوقت المحدد لإذاعة البيان بساعة وربع ساعة.

وعدت إلى سماعة الهاتف أقول عبرها للهلالي باشا ما قاله عبدالناصر بخصوص البيان من دون أن اذكر اسم عبدالناصر.

قال الهلالي: لا يا محمد. مفيش داعي للفرقعة. هل عرضت الفكرة التي قلتها لك على احد من الأركان فيهم؟.

قلت : أظن أن الذي تحدثت إليه من المسؤولين في الحركة.

ورد الهلالي : اذهب وقل لهم انه لا داعي للتسبب في حدوث فرقعة، وأن الملك مستعد لإجراء أي تعديلات يريدونها إذا كانوا يريدون تعديلات داخل الجيش. هل هم يريدون إجراء تعديلات في الجيش. وأين هو محمد نجيب؟

قلت: موجود معهم. أظن انه منضم إليهم.

قال: هل اتصل نجيب بأحد فيهم؟ أين هو نجيب. أريد أن أتحدث إليه.

وقلت للهلالي باشا أن يتصل بي مرة ثانية. وبدأت أفكر برد عليه. انه يسأل عن محمد نجيب. وأنا قلت له أنّ محمد نجيب مع الحركة لأنني كنت اطلعت على البيان الذي طلب جمال عبدالناصر إذاعته في السابعة صباحا والبيان بتوقيع محمد نجيب.

واتصل الهلالي مرة ثانية وكنت محرجاً بالفعل. سأل أيضا عن محمد نجيب وقال: هل يمكن أن تبلغ جماعة الحركة أن الحكومة مستعدة لاستصدار مرسوم

من الملك بتعيين محمد نجيب قائدا عاماً للقوات المسلحة على أن يجري هو التعديلات التي يريدونها داخل الجيش. أننا لا نريد فرقعة.

ومرة أخرى قلت للهلالي أن ينتظر. وذهبت لأتحدث مع جمال عبدالناصر في العرض. وقلت له، وكان إلى جانبه محمد نجيب وزكريا محيي الدين : أن نجيب الهلالي على الخط ويعرض عليكم استعداد حكومته لاستصدار مرسوم من الملك بتعيين محمد نجيب قائدا عاما للقوات المسلحة على أن يجري وفق الأصول الدستورية والتعديلات التي تريدونها داخل الجيش.

ولمجرد أن سمع محمد نجيب العرض رحب به وقال لعبدالناصر: أيه رأيك يا جمال بيه؟ فكرة معقولة نوافق عليها وبلاش فرقعة.

أما جمال عبدالناصر فقال لا، ثم نظر إلى محمد نجيب وقال يخاطبني : لا.

وأضاف: الفرقعة مطلوبة بحد ذاتها لإعلان التغيير وإشعار الناس بما حدث.

وكرر محمد نجيب ترحيبه بالعرض المقدم من الهلالي، فكرر عبدالناصر تمسكه بضرورة أن تحدث الفرقعة. وعدت إلى سماعة الهاتف اروي للهلالي ما حدث.

وقال لي الهلالي : أنني لا استطيع تحمل الموقف مادام ليس عندي حل. وأنا على أي حال سأتحدث مع الملك في الأمر.

وأغلق الهلالي سماعة الهاتف. وذهبت إلى جمال عبدالناصر أقول له أن الهلالي رجل نظيف وانه في موقف لا يحسد عليه.

ورد عبدالناصر: لا يهمني انه نظيف، الذي يهم هو أن تستقيل الحكومة لأنه عندما تستقيل الحكومة منذ اليوم الأول للثورة يكون ذلك أثباتا عمليا بأننا مسيطرون على الموقف وان هنالك قوة جديدة في البلد.

وأعود لأشدد على القول أن الحادثتين: إعطاء رقم الهاتف لمصطفى أمين، وضرورة استقالة الحكومة، أكدت سرعته في اتخاذ القرار، من دون أن يكون هنالك أي تردد. وكل ذلك قبل قليل من إذاعة البيان الأول.

... وفى السابعة صباحا أذيع البيان.

وهكذا عرفت جمال عبدالناصر. منذ اللقاء الأول على أرض فلسطين إلى ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

إلى رأس السلطة

في ٢٤ فبراير ١٩٥٣ استقال محمد نجيب وتولى جمال عبدالناصر المسؤولية كاملة كقائد فعلي للثورة. وفى ٨ مارس ١٩٥٣ أعيدت الأوضاع من جديد إلى ما كانت عليه وعاد محمد نجيب رئيسا للجمهورية ورئيسا لمجلس قيادة الثورة ورئيسا للوزراء وأعلن عبدالناصر اننا طوينا الخلاف وتناسينا أسبابه من اجل مصر. وفجأة في ٢٥ مارس ١٩٥٣ يحل مجلس الثورة نفسه باعتبار أن الثورة قد انتهت ويسمح بقيام الأحزاب وبانتخابات جمعية تأسيسه. باختصار أصبحت الثورة مهددة واستمرارها موضع شك. ومن الواضح أن هذا اليوم كان من أهم الأيام في تاريخ الثورة وفي تاريخ عبدالناصر ومصيره ومستقبله شخصياً.

أود أن أسجل قبل كل شيء أن محمد نجيب لم يكن أبدا قائداً فعلياً للثورة. ومنذ ٢٣ يوليو ١٩٥٢ إلى حين استقالته لم يشترك محمد نجيب في أكثر من اجتماع أوْ اثنين لمجلس قيادة الثورة. والمسائل التي تقررت كانت معدة سلفا.

واستمرت اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار تعقد اجتماعاتها تحت اسم مجلس قيادة الثورة برئيسها المنتخب جمال عبدالناصر.

ثم أن محمد نجيب لم يستقل أنما اجبر على الاستقالة.. وكان رأى عبدالناصر أن محمد نجيب خرج عن مبادئ الثورة.

٧٥٠ جنيها

وقد كانت سياسات عبدالناصر موضعا لتطاول الأقلام الساداتية غير أنهم فشلوا في التطاول على ذمته المالية فقد كانت عائلة ناصر تعيش على المرتب الذي كان الرئيس السادات طالب به في مجلس الدولة وهو ٥٠٠ جنيه مضافا إليه مبلغ ٢٥٠ جنيها بدل تمثيل. نعم أن عائلة جمال عبدالناصر تعيش من هذا المرتب فقط البالغ ٧٥٠ جنيهاً شهرياً.

أن الذين يثيرون مسألة الثروة هم خصوم عبدالناصر لأننا لا نريد استعمال كلمة أعداء. ومن حق هؤلاء أن يهاجموا سياسة عبدالناصر وأفكاره، ولكن من غير اللائق التجريح برجل كان مسلكه الشخصي طوال حياته فوق الشبهات. وليس في استطاعة احد مس مسلكية عبدالناصر لأنه كان قاسيا على نفسه حرصا على هذه المسلكية.

أن غرفة نوم جمال عبدالناصر اقل شأنا بكثير من غرفة نوم أي منا. وعندما بطنوا له سريره بالجلد اعتبر أن ذلك نوع من أنواع الترف. كانت غرفة نوم عبدالناصر عادية جدا. سرير وكنبتان وأوراق. كانت مليئة بالأوراق والدوسيهات مع انه كان يستطيع أن يعيش في أفخم القصور. كان عفيفا جدا وطلباته من الدنيا محدودة جدا. هل تعرف انه كان سعيدا بان عنده عشرين أو ثلاثين زجاجة كولونيا جاءته كهدايا وكان يعبر عن سعادته عندما يقول : بص شوف دي. وشوف دي...

وإذا كان هيكل في خندق الدفاع عن عبدالناصر طوال الوقت فقد سألوه في أكثر من حديث صحافي عن علاقة الكاتب بالرئيس وهل كان يملي عليه قصر الرئاسة ما يكتبه.. وهل كان يستطيع أن ينتقد ناصر في رفضه ذلك ما يجيب عنه هيكل قائلا :

الواقع انني لم أكن أفصل، بمعنى اننى كنت اكتب ما أتكلم حوله مع عبدالناصر

وأتكلم معه بالذات حول ما كنت اكتبه. وحدث أن تناقشنا ساعات في قضايا وآراء أطرحها. وكان بيننا اتفاق على ألا نتكلم عن مقالاتي أبدا. ومع ذلك فهنالك كثيرون جدا كانوا يفترضون انني أذهب إلى عبدالناصر يوم الخميس لآخذ منه أفكارا لمقالتي التي تنشر يوم الجمعة. وهذا الافتراض أو التصور سبب لي احراجات كثيرة. لكني أقطع أن الاتفاق الذي بيننا وهو أن يكون نقاشنا وتبادل الآراء بيننا بمعزل عن المقالة، كان ينفذ بدقة. والمرات التي تحدثنا فيها عن مقالاتي كانت قليلة جدا. وفى العادة لا يجرى اتصال بيننا يوم الجمعة. وفي العادة أيضا انني اقضي هذا اليوم في برقاش (حيث لهيكل عزبة متواضعة حجما أنيقة جدا شكلا) مع عائلتي. لكنه عندما كان يتصل بي يوم الجمعة يكون معنى الاتصال أن هنالك أزمة ما.

وفوجئت في السابعة مساء يوم جمعة بالرئيس عبدالناصر يتصل بي هاتفياً. وفي ذلك اليوم كانت مقالتي في الأهرام حول التغيير. وفي هذه المقالة كتبت شيء من الرقة ما معناه انه إذا لم يستطع النظام أن يغير فلابد أن يتغير هو.

ومن نبرة صوته شعرت أنه يريد أن يقول لي أمرا ما. ثم قال : هل تريد رأيي في مقالتك المنشورة اليوم حول التغيير؟

أجبته : بالطبع.

المقالة مكتوبة بأسلوب غسان تويني في مواجهة شارل حلو. أنا لست شارل حلو وأمل ألا تكون أنت غسان تويني.

وانتهت المكالمة عند هذا الحد. وبصفة عامة لم أشعر أن عبدالناصر يضيق بما نكتب في الأهرام لأننا نكتب من موقع الحريص على الثورة، الصادقين في هذا الحرص.

ولم أكن وحدي الذي يكتب..

وأذكر أن توفيق الحكيم كتب مرة قصة طويلة بعنوان بنك القلق وسلمها إلى وكنا وقتها في اجتماع لمجلس إدارة الأهرام وقال لي : هذه ليست للنشر. اقرأها فقط.

وقرأت القصة التي تنتقد دور المخابرات المصرية وأساليبها. وبعدما قرأتها قلت لتوفيق الحكيم : إذا كنت لن تنشرها فلماذا تكتبها؟

أجاب الحكيم : أجل نشرها الآن.

قلت : أن دور المخابرات وأساليبها مشكلة حقيقية. وما دمت أنت وجدت في نفسك الشجاعة لتكتب فانا عندي الشجاعة لأنشر.

ونشرنا الحلقة الأولى من القصة، فقامت الدنيا وقعدت لأننا فعلنا ذلك. ولم يكن عبدالناصر قرأ الحلقة الأولى لكنه بعدما سمع بالضجة التي أثارتها اتصل بي مستوضحاً. وقلت له أنهم يحاولون منعنا من نشر الحلقة الثانية. وفي مكتبه قرأ عبدالناصر الحلقتين الأولى والثانية وكنت حملت إليه الحلقة الثانية التي حاولوا منعنا من نشرها فقال لي : انشروا .

وأضاف : لقد كتب توفيق الحكيم أيام العهد الملكي يوميات نائب في الأرياف. وإذا كان يستطيع في العهد الملكي أن ينقد اجتماعيا، فإنني أعتقد أن من حقه أن يكتب أي نقد للتجربة.

ونشرنا الحلقة الثانية والثالثة إلى أخر القصة. ورويت لتوفيق الحكيم ما دار من حوار مع عبدالناصر في هذا الشأن.

وبعد ذلك انتقدنا في الأهرام مراراً تجاوزات المخابرات. وأثرنا قضايا أساسية داخل المجتمع المصري. وعلى سبيل المثال أن لويس عوض أثار جمال العطيفي مرات عدة قضية القانون. وكتب كثيرون غير هؤلاء. كتب حسين فوزي. وكتبت عائشة عبدالرحمن. وكتب لطفي الخولي. كتبوا جميعا أراء حرة تعرضت للكثير من

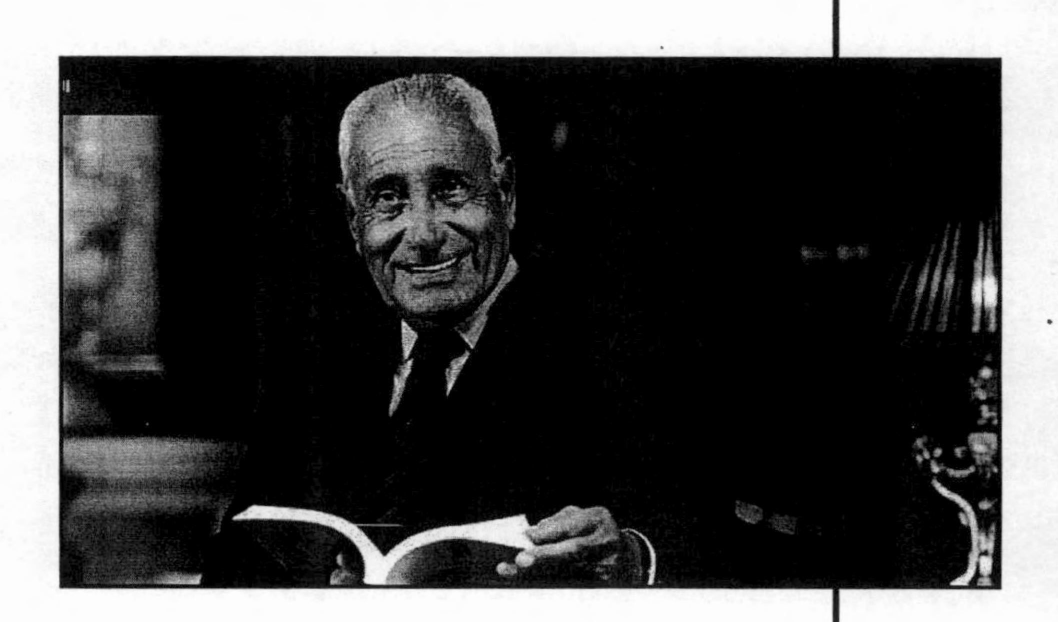
المشاكل في الصميم.

.. لكن بعد هذا كله كان من الواجب أن نفتش في دفاتر هيكل عن محاولة اغتياله والتي تم على أثرها القبض على عدد كبير من كتاب الأهرام فما هي تفاصيل الحادث؟.



(١١)

وعلى باب الأهرام انطلق الرصاص إلى صدره .. وبدأت النيابة تحقق مع الصحفيين؟



قليلون من يعرف بقصة إطلاق الرصاص على هيكل أثناء نزوله من مبنى جريدة الأهرام في الستينيات.. رصاصتان أطلقهما الجاني وفر هاربا لكن القصة تحتاج إلى تفاصيل وليس هناك أفضل من هيكل يرويها بنفسه :

لقد قلق جمال عبدالناصر لحادثة إطلاق رصاصتين علىّ وأنا نازل من مبنى الأهرام القديم في شارع مظلوم. وأنا رفضت إبلاغ النيابة وتقديم شكوى. وبعدما عرف عبدالناصر التفاصيل سألني إذا كنت أتهم أحداً، واستغرب ردي حيث قلت إني لا أتهم أحدا. وأنا أرى أن ما حدث لي ولزملائي في الأهرام كان ناتجاً عن اصطدامنا مرات عدة ببعض أجهزة السلطة.

أن معظم الكتاب والصحافيين الذين اعتقلوا أيام جمال عبدالناصر كانوا من الأهرام. لطفي الخولي اعتقل.. وجمال العطيفي.. وأحمد نافع ويوسف صباغ وحمدي فؤاد. وأيضا سكرتيرتي نوال المحلاوي.

وأكرر أن هذه الاعتقالات بالإضافة إلى حادثة إطلاق رصاصتين على كانت ناتجة عن اصطدامنا مرات عدة بأجهزة السلطة. لكن عبدالناصر كان يأخذ في الاعتبار الخط الذي نسير عليه في الأهرام. وكنت أعتبر أن الأهرام يجب أن يكون لها دور طليعي. وكنا نمارس عملنا على أساس أننا ملتزمون بالميثاق من دون أن نفقد الحرية في الكتابة عن تطبيق الميثاق. وكنت أرى أنه إذا استطاعت الأهرام أن تكون طرفاً في الحوار فإنها بذلك تؤدي دوراً عظيماً. واعتقد أننا نجحنا في أن نجعل من الأهرام طرفاً أساسياً في الحوار على رغم أن ذلك تسبب لنا في مشاكل وإشكالات. ولم نمارس هذا الدور بحماية من جمال عبدالناصر، إنما اعتقادا منا أن عبدالناصر يثق في الأهرام ويرى أننا نعمل من داخل التجربة وننتقد من واقع الالتزام.

ومادام هناك حوار دائم بين طرفين، طرف مسؤوليته شاملة وطرف لا يملك ألا الفكر والكتابة، فمن الطبيعي أن تحدث توترات بينهما. وأحيانا كان يحدث نوع من التوتر.

وحالة التوتر المهمة حدثت يوم أصدر عبدالناصر قراراً بتعييني وزيراً. يوم صدور القرار كنت في برقاش. ولقد أصدر القرار من دون أن يفاتحني مسبقا بالأمر. وعدت إلى الأهرام بمجرد أن بلغني صدور القرار فوجدت أن هناك حالة توتر. وبعثت إليه برسالة اعتذار. وهذه الرسالة هي الورقة الوحيدة المكتوبة التي رفعتها إلى عبدالناصر. وعدا ذلك لم ارفع إليه أوراقاً مكتوبة، لأنني كنت أفضل التعامل معه كصديق.

وكنت في حالة صعبة من الضيق وقتها بسبب قرار «توزيري». وفى اليوم الثاني جاءني أنور السادات إلى برقاش وكان يوم شم النسيم من العام ١٩٧٠ وهو يصادف يوم اثنين، في محاولة لإقناعي بقبول المنصب الوزاري. وبقي معي من التاسعة صباحاً حتى الواحدة بعد الظهر. وكانت لفتة كريمة منه خصوصا انه في ذلك اليوم كان مرتبطاً مع ضيوف سيتناولون معه طعام الغداء في بيته في الهرم.

وقال لي السادات أن عبدالناصر قال له أن لا مجال لقبول الاعتذار، وان المسألة ليست مسألة مفاتحة إنما هي قرار صدر وانتهى الأمر.

ونتيجة لحديثي مع السادات والأحاديث مع آخرين زاروني وتناقشنا في أمر التوزير قبلت وعدت إلى القاهرة. ثم حدث أن قبضوا على لطفي الخولي ونوال المحلاوي، ووجدت أن الموقف يتأزم وأنني في محنة حقيقية في بداية عملي في الوزارة. وكنت بالفعل ممزقاً بين قبولي المنصب الوزاري اضطرارا ومحنة أصابت بعض زملائي في الأهرام، وجمال عبدالناصر الحريص على مشاعره.

وقبل هذه المحنة حدثت حالة توتر بيننا بسبب اعتقال جمال العطيفي. وأمضينا نحو أسبوع في شبه قطيعة. هو لم يتصل وأنا لم أتصل. وفي هذه المرة أيضا كان السادات هو المتدخل. كان مع عبدالناصر في استراحة القناطر الخيرية. ومن هناك اتصل بي هاتفيا وقال : لماذا لا تطلب الريس وتصفي الموضوع معه لأنه متضايق. وبعد ذلك اجتمعت بعبدالناصر وصفينا موضوع جمال العطيفي وتم الإفراج عنه.

وبالطبع هنالك كثيرون كانوا يتضايقون من هذه الثقة التي وضعها عبدالناصر في شخصي، وكيف أننا نناقش الأمور ونتفاهم. وحول مسألة حالات التوتر أتذكر عبارة للسادات قالها لي مرات كثيرة وهى : لولا سلك الهاتف لكانوا أتعبوك كثيراً.

وكان السادات يقصد بذلك، الهاتف الذي في مكتبي والمتصل بغرفة نوم عبدالناصر.

وعبر هذا الهاتف جرت مناقشات واستفسارات كثيرة. وكان هذا الهاتف معياراً لحالات التوتر بيننا. أحيانا لا يرن فيكون معنى ذلك أن عبدالناصر متضايق مني. وأحيانا لا أتصل أنا به بسبب حالات من الضيق كانت تنشأ نتيجة حوادث معينة حصلت.

وأشهد أن جمال عبدالناصر كان نموذجا للرقة في معالجته لحالات التوتر التي تحدث. وباستمرار لم يكن يخرج ضيقه عن حدود معينة. وأتذكر أنه مرة كان متضايقاً جدا من أمور كتبتها. وخلال مناقشة عبر الهاتف سألته إذا كان يريد أن أحضر إليه فأجابني : لا أريد أن أراك وأنا منرفز. نلتقي بعد أن تهدأ الأمور ثم نتفاهم.

وحدثت بيننا أيضا مناقشات مكتومة. ولقد ناقشته باستماتة في بعض القضايا. وكنت في مناقشتي أمينا جدا لأني صادق معه ومعجب به إعجاب المفتح العينين وليس إعجاب الأعمى. معجب به وبما يمثله بحركته وقدرته وطاقاته. معجب به كرمز وكقضية وكحركة. وهذا الإعجاب والتقدير فرض عليّ واجباً وإخلاصاً أن أكون صادقا معه، وان أناقشه بأمانة.

ومن المناقشات المكتوبة تلك التي دارت معه حول قرار إقفال خليج العقبة. ولقد كان رأيي الذي ناقشت في استماتة لإقناعه به هو أن هذا القرار سيقود إلى حرب.

اشمعنى

المؤسسة الوحيدة التي زارها عبدالناصر هي الأهرام إكراما للصحافي

الاستثنائي هيكل أو صديقه المقرب المرتبط بـه عبـر الهـاتف الأبـيض الخـاص يكلمه إناء الليل وأطراف النهار ومع ذلـك سـأل أهـل الصـحافة ممـن يقفـون في المعسكر الأخر ضد هيكل وتميزه عليهم : لماذا لم يتم الخوض في تفاصيل حادثة إطلاق الرصاصتين على هيكل وهو المشهود له بأن يجعل من قصة صغيرة حكاية طويلة وملحمة.. فهل كانت الحادثة فيلما اخترعه هيكل لكي يقـول للصـحافيين انه مستهدف.. ويتحول إلى علامة استفهام أخـرى في مسلسـل العلامـات التـي لا تنتهي عبر مسيرته.. خاصة أنه لم يتقدم بشكوى أو بلاغ بشأن الحادث.. وهو دائما ما ينفى أن الصحافي الوحيد في زمن ناصر وكثيرا ما قال في هدوء وثقة:

بعدما قامت الثورة كان جمال عبدالناصر على علاقة بعدد كبير من الصـحافيين. وفى النهاية وبالاختيار الحر وعن طريق الممارسة ازددت قرباً منه، وهذا أمر اعتـز به.. عبدالناصر لم يخصني بوضع استثنائي إنما ألقى عليّ مسؤولية استثنائية. ولقـد فعل ذلك إحساسا منه بأنني أؤدي دوراً في نظامه.

وأنا تبعاً لذلك لم أحصل على امتيازات على الصعيد المـادي. كنـت مقيـداً أيـام عبدالناصر والى حين تركت الأهرام بالحد الأعلى للمرتبات في مصـر وهـو خمسـة آلاف جنيه سنويا من دون أي زيادة. وعندما بنينا الأهرام لم نلجأ إطلاقا إلى الدولـة لكي نعامل معاملة خاصة أو نستثنى من قانون البناء. وبنيت الأهرام في ظل قـانون الشركات المساهمة المصري. وكان رأيي أننا بهذه الطريقة نقدم نموذجاً جديـداً في إدارة المال العام. والأهرام لم تكن ملكي لكنني كنت انظر إليها على أنها مسؤوليتي في العمل العام وأعطيها كل جهدي. وكان قصدي من ذلك معالجة الخلل الناشئ في مفهوم الملكية الاجتماعية.

كنت اعتبر أن الأهرام يجب أن تكون نموذجـاً في كـل شـيء بمـا في ذلـك الإدارة العلمية. وقد أعجب عبدالناصر بذلك متمنياً لو كانت مؤسسـات الدولـة كلهـا تـدار بالطريقة التي تدار بها الأهرام. وبعدما زار عبدالناصر المبنى كان يتحدث في كل مكان

عن الأهرام. في مجلس الوزراء تحدث مرات كثيرة. وكان يقول انه سعيد جدا لان مشروعاً نجح في مصر وأنه يتمنى أن تنجح كل المؤسسات كما نجحت الأهرام.

وهو زار الأهرام مرة واحدة فقط. ولقد جاء ليشاهد هذه التجربة بعدما لاحظ أن معظم صحف العالم كتبت عنها باهتمام. هو طلب أن يزور الأهرام، وأنا مع كل فرد من أسرة الدار كنا في غاية السعادة والاعتزاز بهذه الزيارة.

نأتي إلى أمر آخر.. إلى المقالات.. أن كثيرين كانوا يتصورون أن الأفكار التي تتضمنها مقالاتي أو الأخبار والتحليلات التي كانت تنشر في الأهرام كنت أحصل عليها من عبدالناصر. وهذا لم يحدث أبدا. وكان كثيرون يتصورون أن التقارير التي تصل إلى عبدالناصر اطلع عليها ومنها انتقي الأفكار والمعلومات لأضمها لمقالاتي. وأنا أطلعت على مئات التقارير التي كانت تصل إلى عبدالناصر ومنها تقارير سفرائنا في الخارج ولم أجد فيها سوى أن الأداء البيروقراطي الموجود على السطح هو الأداء البيروقراطي الموجود في الداخل.

كنت أرى عبدالناصر في استمرار وأتناقش معه .. وكنت أعيش في وسط الأحداث، ولا أنتظر من يعطيني الخبر أو المعلومة. لقد عايشت أحداث التجربة المصرية ساعة بساعة كطرف في الحوار الدائر فيها، ولم أكن أمد يدي إلى جيب عبدالناصر لآخذ منه الخبر أو أنتظر منه أن يتصل بي هاتفيا ليقول لي انه سيخص الأهرام بخبر كبير.

كنت دائما إلى جانب عبدالناصر نتعامل من دون وساوس ولا انتظر نبأ يتعلق بقضية ما لأني كنت طرف حوار في هذه القضية. وإذا كان يحدث أن عبدالناصر يطرح فكرة أكون ضمنتها مقالة لي أو شعاراً أطلقته فيها فهذا معناه أن عبدالناصر اقتنع بضرورة طرح الفكرة أو إطلاق الشعار.

وكان كثيرون يتضايقون. وكان بعضهم يقول ما معناه لماذا لم يعطنا عبدالناصر الفكرة الفلانية وخص بها هيكل لتظهر في مقالته؟

وأكرر أنني كنت صادقا معه. وكان واثقا بي متقبلا ما أكتب وأنشر. لقد بدأ الحوار بيننا يوم ١٨ يونيو ١٩٥٢. واستمر من دون انقطاع حتى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ (يوم وفاته). أما مراحل التوتر فهي ايجابية وعادية بين قائد تاريخي وكاتب شاءت له الظروف أن يكون قريبا منه.. لكن مسألة تعييني وزيرا بدون أن يفاتحني في الأمر وفي وقت تزامن مع تعيين مجموعة أخرى من رجاله من بينهم سامي شرف رغم بعض الحساسيات معه.. فإنني أقول :

لعل هذه النقطة هي التي جعلتني احتج وأسعى لكي يقبل اعتذاري. وفى الماضي فاتحني في أمر التوزير أربع مرات. وفى كل مرة كان يطلب مني الاشتراك في الوزارة كنت أعتذر. المرة الأولى كانت عام ١٩٥٦ في أول حكومة تألفت برئاسته، وقلت له آنذاك اني أفضل الاستمرار في العمل الصحافي. وبعدها قامت الوحدة عام ١٩٥٨ طلب أن أكون وزيراً في الحكومة الأولى لدولة الوحدة، واعتذرت. وكانت المرة الثالثة بعد الانفصال، وقبل اعتذاري. والمرة الأخيرة كانت بعد نكسة ١٩٦٧، وقد تفهم الظروف ووافق على رغبتي في أن استمر في عملي الصحافي.

أما عندما أصدر عبدالناصر قراراً بتعييني وزيراً عام ١٩٧٠ من دون أن يفاتحني بالأمر فانه كان يبني حساباته. على أسس معينة. وكان معنى تصرفه هذا أن المسألة لا تحتمل اعتذاراً وهذا ما أوضحه لي بعد ذلك.

كنا وقتها في حرب الاستنزاف. وكانت حركة عبدالناصر دقيقة جدا. قتال في الجبهة وغارات في العمق ووجود سوفياتي مهم في مصر وفي المقابل تحرك سياسي ودلائل على قبول مبادرة وزير الخارجية الأميركية وليم روجرز، ودلائل أخرى على إعلان وقف إطلاق النار ترافقها دلائل على استعداد الجيش المصري للعبور بعد انتهاء مهلة وقف إطلاق النار التي حددت بثلاثة أشهر.

وشعر عبدالناصر أن تلك المرحلة التي ستتسم بمزج العمل السياسي بالعمل العسكري تحتاج إلى إعلام دقيق، ومركز يتولاه شخص محيط بالموقف الرسمي

وبأسلوب تحركه، ويستطيع أن يعبر من دون العودة إليه.

وعندما طلب مني الرئيس أنور السادات بعد توليه الحكم أن أشارك في منصب رسمي أورد الحجة نفسها التي أوردها عبدالناصر لأن الرئيس السادات كان على علم بها. ولقد حاولت أن أؤدي دوري بجوار الرئيس السادات في حرب أكتوبر ١٩٧٣ أثنائها وبعدها بمقدار ما استطعت. وكانت تلك فترة رائعة في تاريخ مصر أسعدني أنني تمكنت من رؤيتها والحياة في وسطها.

ملاحظة ضرورية هنا أن هيكل أدلى بهذه الاعترافات عام ١٩٧٥.. لكنه بعدها بسنوات أصدر كتابه خريف الغضب وقد خصصه للهجوم على السادات من كل الزوايا وقد دافع عن كتابه هذا قائلا :

وكتبت خريف الغضب. ولم يكن غضبا على أنور السادات لأنه وضعني في السجن. ولكني كنت أريد أن أشرح للعالم ما حدث في مصر خلال خريف عاصف سنة ١٩٨١. وكيف تطورت قضايا اجتماعية وفكرية واقتصادية وسياسية ودينية، لكي تصنع صاعقة البرق التي رأتها الدنيا على شاشات التلفزيون ظهر يوم ٦ أكتوبر.

ولم تكن في الكتاب كلمة إساءة واحدة إلى إنسان. وإنما كان عرضا وتحليلا لشخصيات وتيارات وسياسات واتجاهات وقوى في الداخل والخارج.

لكن البعض تصوروا أن ظهور الكتاب فرصة سنحت أخيرا لتصفية كل الحسابات مرة واحدة. واستغلت عبارات في الكتاب مبتورة. ومحاولات للغوص في أعماق النفس أخرجت من سياقها ومن مضمونها وبعيدا عن هدفها. ثم راحت الطاحونة تدور.

لثلاثة أشهر أو أربعة عاصفة لا تهدأ. بالكلمات والرسوم. حلقات بعد حلقات يوما بعد يوم كأن صواعق السماء كلها انقضت مرة واحدة.

ولم يقتصر الأمر على الكتابة والنشر، وإنما كان الجهد منظما لحملة تشويش

وتشويه.

أما الجزء الخاص بعائلة السادات وأمه السودانية الأصل.. فقد قال انه أسلوب متعارف عليه عند المؤرخين في استقصاء جذور الشخصية التي يكتبون عنها والدكتور طه حسين في كتابه عن شاعر العربية الأعظم أبوالطيب المتنبي خصص الفصل الأول منه لإثبات انه كان مولودا غير شرعي وأن عقدته نتيجة لضياع نسبه هي المكون الرئيسي لشخصيته والمؤثر الأكبر على توجهاته.. ثم جاء فرويد بعد ذلك بمدرسته الخاصة في التحليل النفسي للشخصيات بما يعرف بعلم النفس الحديث وان كان قد سبقه إلى ذلك من علماء العرب ابن إياس والجبرتي والسخاوي والمقريزي.

الحرب.. بالحبر

ليست المسألة في هيكل بما يمتلك من معلومة من مصادر عليا خصته بها أو اقتنصها أو شارك في صناعتها.. لكن المسألة انه إدارجي وعقلية مرتبة مثل حياته اليومية التي تبدأ مع أنفاس الفجر.. وحرصه على ممارسة الرياضة سواء المشي أو الجولف ثم الجلوس إلى مكتبه عند الثامنة والنصف فيظل يعمل حتى ما بعد الظهيرة إلى أن يحين وقت الغداء... سائقه وخادمه وزوجته وسكرتيرته برمجوا أنفسهم على توقيته الذي لا يخلف موعده أبدا.. إلا فيما ندر.

وهنا حكاية أو قل معركة لم يدخلها بشخصه.. لكن بصفته رئيسا لمجلس إدارة الأهرام ورئيسا لتحريرها مع مؤسسة قومية أخرى يفترض أنها مؤسسة الثورة لان الرخصة تحمل اسم جمال عبدالناصر وكان السادات أول رئيس لمجلس إدارتها ودفع من جيبه الخاص ٣٠٠ جنيه قيمة التأمين للرخصة.. والمؤسسة هي الجمهورية أو دار التحرير وعنوان الحرب معركة الماريشال جوكوف.. وهو من ابرز القادة السوفيت في الحرب العالمية الثانية.. وهذه هي قصة المعركة بين الأهرام والجمهورية وقد نشرت الجمهورية خبرا بأنها قد وقعت عقدا مع مؤسسة نوفستي

للطبع في موسكو وبالتالي أصبح لها الحق في نشر مذكرات جوكوف باللغة العربية ليس في مصر وحدها لكن في منطقة الشرق الأوسط مقابل ٨٠٠ جنيه وهو مبلغ كبير جدا في عام ١٩٦٩.. على أن تطبع المذكرات بعد ذلك في كتاب تتقاسم أرباحه مع نوفستي وأعلنت أن الحلقة الأولى من المذكرات سوف يتم نشرها في العدد الأسبوعي ابتداء من ١٥ مايو ١٩٦٩ وبدأت حملة إعلانية ضخمة في السينما والتليفزيون ومجموعة من المجلات الكبرى المصرية وصالات الجمهورية وجالت وأطنبت حول موضوع انفرادها بحق النشر دون باقي الصحف في الوقت الذي كان هناك هدوء مميت وقاتل ولا مبالاة من باقي الصحف المصرية حول هذا الموضوع.

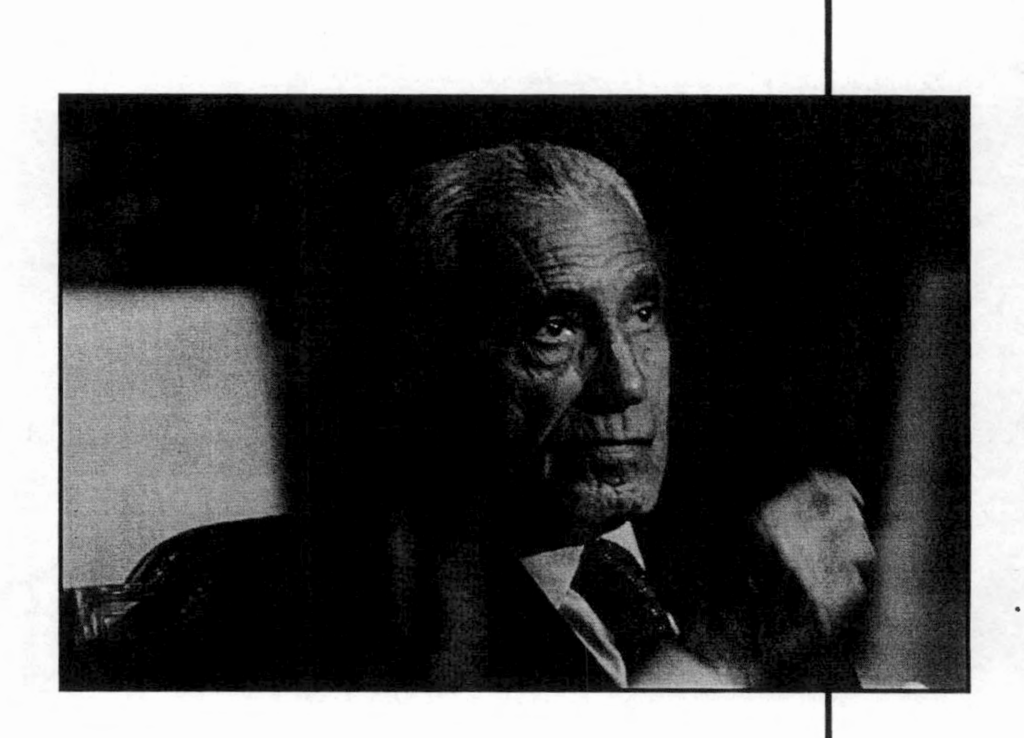
وفجأة وقبل الموعد الذي حددته جريدة الجمهورية لنشر مذكرات المارشال جوكوف بأربعة أيام. نشرت جريدة الأهرام على الصفحتين السادسة والسابعة الجزء الأول من هذه المذكرات وقدمت لذلك بخبر في الصفحة الأولى

وتقدمت الجمهورية بشكوى إلى نقابة الصحافيين وكان يرأسها في هذا الوقت الكاتب الكبير كامل زهيرى. وكان سكرتيرها العام صلاح الدين حافظ وهو أحد تلامذة هيكل واجتمع مجلس النقابة لمناقشة الخلاف بين المؤسستين الأولى تتبع جمال عبدالناصر اسماً وشكلاً.. والثانية على رأسها هيكل.. وكان من أهم قرارات مجلس النقابة إصدار مبادئ لاخلاقيات التعامل الصحافي سواء بين المؤسسات أو بين الصحافيين أنفسهم.. وقال المجلس في توصياته بعد التوصل إلى اتفاق لإنهاء المشكلة بالتراضي بين الطرفين قرر مجلس النقابة أنه لا يجوز لمؤسسة صحافية أن تتعرض لحق النشر الذي تشتريه مؤسسة صحافية أخرى من مؤلف أو ناشر أجنبي عن مصنف نشر في الخارج بأية صورة من صور الترجمة أو الاشتقاق أو التلخيص التي يعنيها القانون، وذلك بصرف النظر عن الأوضاع القانونية بين بلد الناشر وجمهورية مصر العربية المتحدة.



(١٢)

موسى صبري يطلب من هيكل السكوت لأنه «مبشر بالهزيمة» !



هل تصدق أن يكون قلم هيكل سبباً في إحباط جماهير الشعب وهو يعيش حالة اللاحرب واللاسلم في الفترة ما بعد نكسة ٦٧ وقبل انتصار أكتوبر.. وهل تتوقع أن يكون عنوان المقال «تحية للرجال».. وفيه سم قاتل كما قالوا.. وبالمناسبة لم يكن هذا هو المقال الوحيد ضد التيار.. وهنا نعود مجدداً إلى كتاب اللواء الحسيني الديب «هيكل وأخلاقيات الصحافة».

فقد نشرت جريدة الأهرام مقالا لهيكل في ١٢ مارس ١٩٧١ تحت عنوان تحية للرجال كان له أثر مدمر وخطير في خفض الروح المعنوية لأفراد القوات المسلحة الذين أعربوا بغضب عن رفضهم القاطع لآراء هيكل الهدامة، وقاموا بتمزيق الجريدة وداسوها بأقدامهم رافضين ما يكتبه من آراء، ومطالبين بإقالته لأنه غير ملتزم ، فهو يبدي آراء هدامة تدعو إلى الخنوع والاستسلام بدلا من القتال والاستبسال.

أراد هيكل أن يقدم التحية لأفراد القوات المسلحة، فخانه القلم، وجمح به الخيال بعيدا، وشط به الفكر إلى هوة سحيقة فلم يقدم التحية ولكنه قدم اليأس والتشاؤم، وأطنب وأفاض في وصف استعدادات العدو بشكل يوحى بأن التغلب عليها يعد ضربا من المحال، وأن القتال في سبيل الاستيلاء عليها يعد نوعا من الانتحار.

فقد أوضح هيكل أن القوات المسلحة المصرية تواجه معركة من أصعب معارك التاريخ، لأن قناة السويس مانع مائي خطير، فهو بعرض مائتي متر وبعمق أحد عشر مترا وفيه مد وجزر وليس عليه معبر ولا جسر، ويعتبره ثقاة العسكرية في الغرب والشرق واحدا من أهم الخطوط الدفاعية الطبيعية في العالم من حيث كونه مانعا ضخما أمام المدافع وعائقا ضخما بنفس القدر أمام المهاجم.

وعلى طريقة سياسة التهويل التي اتبعها هيكل في مقاله أكد أن منطقة الرمال المفتوحة بعد خط بارليف والمحصورة بين كثبان الرمال وبين مرتفعات منطقة

المضايق والتي لا تبعد عن القناة بأكثر من ثلاثين كيلومترا، هي منطقة عمل مدرعات العدو.

وأوضح هيكل أن الصدمة الأولى ضد قوات العبور ستكون من خط بارليف الذي يعتبر مصفاة، من ينفذ منها تتلقاه قوات المدرعات في المنطقة المفتوحة.

ومن يكتب له النجاة بعد ذلك سيجد أمامه منطقة المضايق التي تعتبر خطا دفاعيا ثانيا لأنها سلسلة جبال متشابكة مسيطرة تماما على المنطقة المفتوحة.

وزيادة في التهويل أشار هيكل إلى أن الصحراء المكشوفة بعد المضايق وحتى حدود مصر الدولية تسيطر عليها إسرائيل بالطيران تماما وتعتبرها منطقة عمل لمدرعاتها.

وزيادة في تعميق الخط المأساوي للمقال أوضح هيكل أن الجيش المصري سوف يواجه المعركة وحده وسوف يواجه الجيش الإسرائيلي بأكمله.

وفى ظل هذه الصورة القاتمة التي اجتهد هيكل في رسمها ألمح إلى أن الدنيا قد اهتزت كلها لرحيل عبدالناصر وخاصة رجال الجبهة زاعما أنه في نظرهم رجل المعجزة في زمان انتهى عهده بالمعجزات. وفى هذا كتب موسى صبري مقالا بعنوان «المبشرون بالهزيمة» موضحا أن هيكل يستغل أجواء الديموقراطية لكي يبشر بالهزيمة ويشيع اليأس والبلبلة والتشكيك بين الجماهير التي تعد نفسها لقتال مصيري، ويسعى في وضح النهار إلى تدمير معنويات المقاتلين في جبهة الحرب وتفتيت نفوس الجماهير الكادحة والمساندة بكل قواها لأبطالها على أرض النار، موحيا للجماهير بأنه اللسان الرسمي المتحدث باسم الدولة.

وأذكر في هذا المقام أن الرئيس السادات عقد خلال مارس ١٩٧١ عدة اجتماعات مع قادة تشكيلات القوات المسلحة والتي كان أخرها اجتماعه مع قادة قوات احتياطي القيادة العامة والقوات الخاصة والحرس الجمهوري والبحر

الأحمر والاستطلاع يوم ٢٣ مارس ١٩٧١.

وقد شرح الرئيس أن الهدف الأول من هذه الاجتماعات هو شرح أبعاد المعركة السياسية التي هي جزء من المعركة العسكرية، وأن الهدف الثاني هو توضيح ضرورة الحرب الشاملة التي تقودها القوات المسلحة ومن خلفها الجبهة الشعبية فالكل في خط النار في تعبئة واحدة، وأن الهدف الثالث تبيان أهمية دور القوات الخاصة عند انطلاقها في سيناء من أجل تحقيق النصر الأكيد.

وقد عبر السادات عن أسفه لدور الصحافة قبل حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ وذلك في الاحتفال بمرور مئة عام على إنشاء جريدة الأهرام حيث قال :

كان المفروض قبل حرب أكتوبر أن الصحافة تؤصل قيم المجتمع ولا تهدمها، بمعنى ألا يكتب أحد أو حتى يشتم من كتابته روح الهزيمة أو روح الخنوع أو روح التسليم. أنكتب في صحافتنا استحالة المعركة، كده صراحة، المعركة مستحيلة، فهل هذا يخدم أهداف شعبنا!؟.. وكان المفروض أن تعيش الصحافة المنعطف التاريخي لكل فترة من فترات أمتها، أنا كنت أتصور أن واجب الصحافة أن تقف معي وتحبذ حتمية المعركة، فطلع البعض يبشر باستحالة المعركة، وأن العرب لو انهزموا مرة يبقى معناها أن الأمة العربية قد انتهت وهذا هو كلام إسرائيل. وكان كلامي أننا كعرب نأخذ هزيمة واثنين وعشرة ولا نفنى، ولكن إسرائيل بهزيمتها هزيمة واحدة تنتهي.

وكان السادات يرد الصفعة لهيكل ولعله كان يقول أيضا أن هيكل لم يكن ليجرؤ أن يكتب ما كتب في وجود جمال عبدالناصر.

وقد كان مقال هيكل «تحية للرجال».. من أهم أسباب صدامه المبكر مع السادات عقب توليه رئاسة مصر.. وهو الخلاف الذي تطور.. وربما كان هيكل كمن يسكب البنزين على النار بمقالاته.. فقد عاد هيكل بعد انتصار أكتوبر لكي يشكك في إمكانية القضاء على ثغرة الدفرسوار وأثار المقال جدلاً واسعاً وقد

نشرت جريدة الأهرام في ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٧٣ تحت عنوان «قصة التسلل».. الثغرة اعترف فيه الكاتب أنه ليس خبيرا بالشؤون العسكرية ولا متخصصا في علومها وفنونها، وأنه يعتذر مسبقا عن إقحام نفسه فيما يبدو أنه خارج عن اختصاصه، وأنه كتب هذا المقال حتى لا تعيش مصر هذه اللحظات في جو إعتام فكري، وأنه كتبه إحقاقا للحق وإنصافا للواقع.

وأوضح أن رجال القوات المسلحة قد أعطوا وقاتلوا وأنه لا تستطيع قوة على الأرض أن تسرق عطاءهم وقتالهم وتأكيدهم لقيمتهم وقيمة وطنهم.

كما أوضح الكاتب أن قوة قدرها مجموعة لواءين من المدرعات، لواء من المشاه الميكانيكية، ومجموعة من قوات الكوماندوز يقودها أرييل شارون قد نفذت إلى الغرب لتحارب حرب العصابات بالدبابات في منطقة الدفرسوار وانتشرت شمالها وجنوبها فجر يوم ٢٢ أكتوبر بعد صدور قرار وقف إطلاق النار، هادفة تدمير شبكة الصواريخ المصرية، والعمل على مؤخرة الجيش الثالث، والتأثير على أعصاب القاهرة والعالم العربي وبالتالي العالم الخارجي.

ويقول الكاتب أنه ليس من أنصار التهوين ولا أنصار التهويل، وأنه بأعصاب هادئة، وبردود فعل متحفظة بتوازنها وبكل وسائل القوة السياسية، فان ما تصورته إسرائيل مخرجا لها، قد يصبح مأزقا لها!

وأخطر ما في المقال هي تلك الخريطة التخطيطية للثغرة التي نشرتها الجريدة ، والتي أثارت الجدل والنقاش والسخط وتسببت في ضعف الروح المعنوية لدى القراء، لما فيهم من تضخيم وتجسيم لقوات العدو وعدم توضيح لحقيقة قواتنا غرب القناة.

هذه الخريطة التخطيطية لا تتماشى إطلاقا مع منطق تحليل الكاتب ولا مع منطق البيانات العسكرية التي تصدرها القيادة العامة للقوات المسلحة مما أوجد

نوعا من البلبلة الفكرية بين قراء الأهرام.

وفي محاولة جادة للوصول إلى حقيقة هذه الخريطة التخطيطية التي نشرها هيكل مصاحبة لمقاله، اتضح أن الذي قام برسمها هو الفنان مكرم حنين رسام جريدة الأهرام.

وقد أوضح مكرم أن هيكل قد أعطاه قصاصة لخريطة تخطيطية كانت قد نشرتها مجلة نيوزويك الأميركية كفكرة عن الثغرة، وطلب منه محاولة تكملتها لتشمل منطقة غرب البحيرات المرة وشمال السويس غير الظاهرتين في قصاصة نيوزويك، كما طلب منه إضافة عدة دبابات في اتجاه الشمال والجنوب مع تبيان حائط الصواريخ المصري، ووعده بمكافأة قيمتها خمسون جنيها.

فأكمل الفنان مكرم المنظر العام للخريطة التخطيطية طبقا لما طلبه هيكل لزيادة إيضاح التقدم الإسرائيلي في مواجهة الدفاع المصري.

ونشرت الأهرام هذه الخريطة التخطيطية مواكبة لمقال هيكل فكانت مثارا للنقاش على اعتبار أنها أول خريطة تنشر عن الثغرة، وخلقت جوا من الكآبة، وأضعفت من روح الشعب وصلابته وصموده.

وكان من الواجب على هيكل أن يوضح لقارئ الأهرام أن دبابات إحدى الفرق المدرعة تحيط العدو من كل جانب وأن هناك خمس فرق في الشرق وأربع فرق في الغرب، هذا بخلاف حائط الصواريخ الضخم، وأن مدخل الثغرة في شرق القناة لا يتعدى ٦،٥ كم وانه إذا تم إغلاقه فسوف يقضى على الإسرائيليين تماما.

وكان يمكن لهيكل أن يطلب من مركز الدراسات الإستراتيجية عمل خريطة تفصيلية لقصة الثغرة من واقع البيانات العسكرية، خاصة أن هناك وحدة عسكرية في مركز الدراسات الإستراتيجية يشرف عليها اللواء حسن البدري الذي قدم فيما بعد الخريطة التالية عن الثغرة والتي نشرها في كتابه حرب رمضان.

وكانت حجة هيكل فيما كتب أن المعلومات لديه كانت قليلة رغم أن القوات المسلحة أصدرت البيانات من ٤٤ : ٥٨ حول الثغرة ابتداء من ١٦ : ٢٤ أكتوبر.. ثم أن هيكل يستطيع بما له من علاقات أن يتصل بالمصادر وبيانات الجيش فيها الرد على هيكل وأهمها البيان رقم ٥٨ الذي جاء فيه:

عند صدور الأمر بوقف النار الساعة ١٨،٥٢ مساء يوم ٢٢ أكتوبر بتوقيت القاهرة كانت قواتنا شرق القناة متمسكة بقوة بالأراضي التي استردتها من سيناء ولم يفلح العدو خلال هجماته المتكررة ضد رؤوس الشواطئ شرق القناة أن يكتسب منها أي جزء سوى ثغرة في منطقة الدفرسوار، وهي المنطقة التي تمكنت أجزاء من قوات العدو التسرب منها والانتشار في بعض المناطق غرب القناة.

أن هذا المقال وهذه الخريطة التخطيطية كان لهما أثر سيئ في نفسيه القراء، وكان الرئيس السادات يتوقع من الصحافة أن تعمل على إذكاء روح الحماس بين أفراد الشعب، ورفع روحهم المعنوية، وشرح الحقائق كما وردت في البيانات العسكرية وليس الاعتماد على ما تنشره مجلات وجرائد الدول التي تدور في فلكها إسرائيل.

وقد أعرب السادات عن شعوره تجاه الصحافة في واقعة الثغرة في الاحتفال المئوي لجريدة الأهرام عام ١٩٧٦ قائلا :

لم أحس أن الصحافة معي في هذه المعركة، فالبعض أخذ يشكك، ورجع إلى روح الهزيمة القديمة نتيجة الثغرة، وأنا أقول أنها معركة تلفزيونية، وحتى الجنرال بوفر مدير معهد الدراسات الإستراتيجية الفرنسي بادرني وقال لي :أوعى يكون عندك اهتمام بعملية الجيب التي في الغرب، أنها معركة تلفزيونية.. وكان واجب الصحافة في المنعطف التاريخي لكل مرحلة، أن تعمل على تقوية روح الشعب، وروح الصمود، لأن شعبنا فيه أصالة وفيه صلابة وفيه إيمان.

وفى هذا الاحتفال كان هيكل قد ترك منصبه في الأهـرام قبـل عـامين ويبـدو أن السادات أراد أن يرد عليه في عقر داره وبعد أن خلعه من المكان الذي أعاد تشييده على أعلى مستوى .

ومن المؤكد أن تلامذة هيكل في الأهرام كانوا يستمعون إلى كلمـات السـادات بنصف عقل ونصف اهتمام.. لان الاتهامات لهيكل تشملهم هـم أيضـا بشـكل أو بأخر.. أما رجال السادات داخل الأهرام فكانوا ينعشون ذاكرة من ينسى بمقالات عديدة لهيكل كتبها في أوقات حرجة وفيها الكثير مـن اللغمـز واللمـز والسـخرية منها مقال «الظلال والبريق» الذي نشره قبل خروجه مـن الأهـرام في عـام ١٩٧٤ ففي الوقت الذي كان السادات يتفاوض فيه مع كيسنجر بخصوص فض الاشتباك الأول بين القوات المصرية والقوات الإسرائيلية، نجد هيكل في هذا المقال يقلـل من شأن هذه المفاوضات، وينتقد الاعتماد على أميركا، ويسخر بتهكم مـن فكـرة قدرتها على أن تفعل شيئا ما أو تؤثر تأثيرا حقيقيا على موقف إسرائيل.

وكان هيكل يعتمد في مقاله على أن الولايات المتحـدة الأميركيـة لهـا أهـداف دائمة لا يمكن أن تحيد عنها، وتتخلص في حماية أمن ومستقبل إسرائيل ، وإخـراج الاتحـاد السـوفييتي مـن المنطقـة العربيـة مـع اسـتعادة النفـوذ الأميركـي فيهـا، والحيلولة دون قيام دولة عربية كبرى ولا وحدة عربية في المنطقة.

كما ركز هيكل عـلى أن الظـلال التـي تحـيط بنكسـون والبريـق الـذي يحـيط بكيسنجر لا يستطيعان تغيير سياسة الولايات المتحدة.

وقد سبقت هذه المقالة عدة مقالات كتبها هيكل منها كيسنجر ومعنى النجـاح أسلوب التفاوض مع إسرائيل وكلها تؤكد أنه لا فائدة مـن التفـاوض مـع أميركـا لأنها غير قادرة على عمل أي شيء.

وفي نفس الوقت طالـب هيكـل بالانتظـار حتـى تتلاشـى المـؤثرات الصـوتية والضوئية ونسمع صوت الحوار وحـده بغيـر ضـجيج مـدخول عليـه بالقصـد أو

بالمصادفة! وبعد ذلك نستطيع أن نحكم!

وأوضح هيكل أنه لا يريد لهنري كيسنجر أن ينجح في الشرق الأوسط وفق قانونه هو لان السند النهائي لأي قانون هو قوة الإجبار الظاهرة أو الكامنة وراءه.

والحقيقة أن هنري كيسنجر عقلية جديدة تتميز بأسلوب جديد في السياسة، يختلف عن أسلوب وزراء خارجية أميركا السابقين دالاس ودين راسك وروجرز. لذلك كان من السهل على الرئيس السادات أن يتفاهم مع كيسنجر في أخر أكتوبر ويتفق معه على إقرار خط ٢٢ أكتوبر في إطار فض الاشتباك.

وعندما حضر كيسنجر يوم ١١ ديسمبر ١٩٧٣ ألمح للرئيس السادات أن البنتاغون يعلم بأن هناك ٤٠٠ دبابة إسرائيلية في الثغرة ومن حولها ٨٠٠ دبابة مصرية وأن هناك صاروخ ونصف لكل دبابة بخلاف حائط الصواريخ القائم، وأن مصر قادرة على أن تصفي الثغرة بهذه القوات، ولكن البنتاغون لن يسمح لها بذلك، وعليه فكما بدأنا عملية السلام نعمل فض الاشتباك، تنتهي بمقتضاه هذه الثغرة سلميا، وقد وافقه الرئيس السادات على ذلك.

وتم الاتفاق على فض الاشتباك الأول في يناير سنة ١٩٧٤.

ولما حضر كيسنجر في يناير وبدأ رحلاته المكوكية بين أسوان وتل أبيب وشعر أنها تؤدي إلى طريق مسدود، قدم عرضا أميركيا لفض الاشتباك الأول هادفا فتح هذا الطريق المسدود، وقد وافقت كل من مصر إسرائيل على هذا العرض بفض الاشتباك الأول.

مما سبق يتضح أن أميركا هي الدولة الوحيدة القادرة على التدخل بين طرفين بينهما أحقاد ودماء وكراهية وعنف وأمكنها فعلا أن تنجح في فض الاشتباك الأول، وعليه فقد صدق الرئيس السادات حينما قال أن بيد أميركا ٩٩٪ من أوراق اللعبة.

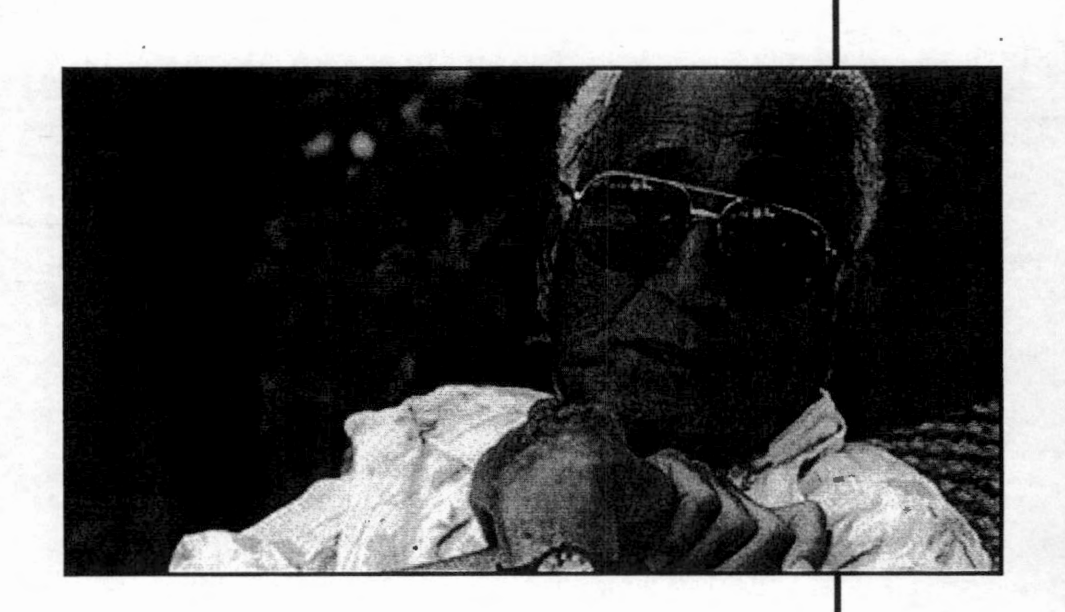
وخاب ظن هيكل فيما ذهب إليه من التقليل من شأن أميركا وقدرتها على أن تؤثر تأثيرا حقيقيا على موقف إسرائيل. وأثبتت الأيام نجاح أميركا في فض الاشتباك الثاني في أول سبتمبر سنة ١٩٧٥ بعد فتح القناة وعودة المهجرين، ونجاحها كذلك في توقيع اتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل في ٢٦ مارس ١٩٧٩.

فهل ترى بعد ذلك أن هيكل يعمل أغلب الوقت بنظرية خالف تعرف وان إحساسه في وقت عبدالناصر بأنه يعرف كل شيء.. جعله يتمسك بادعاء المعرفة حتى وان غابت المعرفة عنه وهو الرجل الذي يعشق الوثائق ويحشدها في كل كتبه..!!



(١٣)

أحمد بهاء الدين يؤكد : من أراد أن يعرف هذا اللغز عليه بمعرفة جمال عبد الناصر !



بعيداً عن السياسة.. وحتى بعيدا عن الصحافة بالمعنى المهني.. ماذا عن الإدارة.. وتجربة هيكل داخل الأهرام ماذا فعل بها ولها ومعها.. ومع ذلك لا تستطيع بسهولة أن تفصل بين السياسي والصحافي والروائي والمؤرخ والكاتب والإنسان.. وهذه شهادة الكاتب الكبير مكرم محمد أحمد أحد الذين عاصروا هيكل في الأهرام.. وهو يرسم له صورة خاصة فيقول:

كانت ميزة هيكل، أنه الأقدر بين جيله على صنع صحافة خصبة، محترمة، قوية التأثير، تحمل رسالة واضحة إلى قارئها، ولعله أنشأ بكتاباته مدرسة صحفية جديدة في مصر، استطاعت أن تحفظ للمهنة رصانتها واحترامها، وأن تحافظ في الوقت نفسه على قدرتها وبراعتها في لفت الأنظار وجذب الانتباه، واثارة شهية القراء الذين كانوا ينتقلون مع مقاله بصراحة إلى قلب الحدث ليشاركوه التفكير في كل كلمة ومعنى.

وعندما استعانت به «أسرة تقلا»، أصحاب الأهرام قبل تنظيم الصحافة، كي ينقذ الصحيفة العتيقة من الركود والجمود التي سيطرت على تحريرها لأكثر من عقدين من الزمان.. كان همه الأول، أن يحافظ على مصداقية الأهرام، لا يخدش شيئا من رصانتها، وأن يعطيها نفسا جديدا تتواصل به مع متغيرات عصرها لتصبح جريدة كل المصريين، وجريدة كل الأجيال.

وبرغم أنه كان أنجب تلاميذ مدرسة أخبار اليوم التي تعتمد الاثارة والتشويق لجذب قارئها، حرص هيكل على أن يحافظ على تميز الأهرام التقليدي في صدق الخبر ودقته، لكنه أضاف إلى نزعته المحافظة ما جعل الأهرام أكثر عصرية، وأكثر مصرية، وأكثر قدرة على التصدي لمشكلات المجتمع، ومخاطبة قواه الجديدة وكانت وسيلته إلى ذلك، أن فتح أبواب الأهرام لجيل جديد من الصحفيين الشبان، ساعدوه على أن تصبح الأهرام، يومها، واحدة من أفضل عشر صحف عالمية لقدرتها الاخبارية المتميزة، ومصداقيتها العالية، وقوة تأثيرها على الرأي العام ودوائر الحكم

في داخل الوطن وخارجه، فضلا عن دورها المهم كجسر للتواصل مع ثقافات العالم المختلفة.. ففي تلك الأيام التي يصفها البعض بالانغلاق، كان يندر أن يصدر كتاب مهم أو يذيع صوت مفكر واعد أو مؤثر في أي من أركان العالم، دون أن تجد صداه في التو واللحظة على صفحات الأهرام القاهرية.

كان ما يميز هيكل أيضا حرصه الشديد على تشجيع كل قدرة صحفية شابة يحس أنها يمكن أن تضيف إلى المهنة، كان يلتقط الموهوبين والمجدين يفتح لهم الأبواب، ويضاعف الفرص، وكان له مقلدون كثيرون، يقلدون خطه، ويقلدون طريقته في الكتابة، ويقلدون إيماءاته وإشارات وغير ذلك مما يسمونه اليوم لغة الجسد، وكان هيكل يوزع تعاطفه على هؤلاء جميعا بالقسط والحساب، وفي كل الأحوال كان يسبغ حمايته على جميع من يعملون معه، يتحمل عنهم المسؤولية، عندما يضيق الحكم ببعض كتاباتهم، في شجاعة وكبرياء إضافة إليه المزيد من الهيبة والاحترام. ميزة هيكل الأخرى أنه يملك قرون استشعار قوية تحرضه على الانحياز المستمر لقوى التغيير وقوى المستقبل.. كان أكثر الصحفيين المصريين ادراكا لمخاطر ما يجرى داخل الجيش المصري منذ انتخابات نادي الضباط التي انتصر فيها الضباط الأحرار لانتخاب محمد نجيب رئيسا للنادي اعتراضا على رغبة الملكية السامية، وكان أول المنحازين لعبدالناصر في صراعه مع محمد نجيب، وكان أول من قدم ياسر عرفات إلى عبدالناصر بعد أن ذاع نشاط منظمة فتح داخل الأرض المحتلة في أعقاب النكسة، وكان أول من مد يده إلى مجموعة باريس التي كانت تضم عددا من أساتذة الجامعة تزايد اعتراضها على الحكم بعد الهزيمة، وعندما كنا شبابا في الأهرام كان يحرضنا على ضرورة التمرد على الأمر الواقع، لكنه عند الاختيار، كان يقف دائما في صف الشرعية، يحرص على احترامها مهما تكن درجة خلافه مع الحكم.

أضفى هيكل على تحرير الأهرام قدرا من التميز والحماية لم تكن تتمتع به الصحف الأخرى، وكان ذلك مراعاة لشكاوى زملاء في المهنة، حسدوا الأهرام على

تميزها، وحسدوا «الأهراميين» على الحماية التي أسبغها هيكل على صحيفتهم، كما حسدوهم على هامش الحرية الأوسع الذي لا يتمتعون بمثله في صحفهم.

وما من شك في أن هيكل استطاع توظيف هامش الحرية الأوسع الذي تمتعت به الأهرام لخدمة رؤى عبدالناصر وأفكاره، لكنه وظفها أيضا لتعزيز مكانة الأهرام، وتعزيز دورها في الحياة السياسية المصرية، ففي ظل هامش الحرية الذي ميز الأهرام، نشر هيكل أعمال نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم التي كانت تعبر جميعها عن رؤية نقدية واضحة لأوضاع مصر الاجتماعية والسياسية تحت حكم ثورة يوليو، كما نشر أعمالا نقدية عديدة لغيرهما من كوكبة الكتاب الذين جاء بهم إلى الأهرام كي يبقى الأهرام ساحة حوار لكل تيارات الفكر المصري، يشارك فيها دعاة مصر الأوروبية الذين يعتقدون بانتماء الحضارة المصرية إلى حوض البحر الأبيض، وأنصار القومية العربية الذين تحمسوا لفكر عبدالناصر القومي، ومروجو الفكر الماركسي والاشتراكي الذين هجروا تنظيماتهم السرية لصالح التعاون مع ثوار يوليو ودعاة مصر الفرعونية الذين يعتقدون أن معظم أسباب تخلف مصر يأتي من انتمائها القومي!

كانت الأهرام ساحة جدل وحوار لكل هذه التيارات، يتحاور فيها حسين فوزي ونجيب محفوظ، وتوفيق الحكيم ولويس عوض، ولطفي الخولي، وبطرس غالى، وصلاح جاهين ورشدي سعيد، وزكى نجيب محمود، ويوسف ادريس، وصلاح عبدالصبور وآخرون يتحلق حولهم جميعا مجموعات من الشباب الواعد تنتمي إلى كل التيارات الفكرية، وكان هيكل سعيدا، يختال زهوا وفخارا بهذا المناخ الذي خلقه في الأهرام، حتى وقعت هزيمة ٦٧، وكان أكثر الجميع غضبا مما جرى شباب الأهرام، الذين كسرت الهزيمة أحلامهم، وأحسوا أنهم وقعوا خديعة حلم كاذب.

في هذه الظروف الحالكة صك هيكل تعبير النكسة ليخفف من وقع الهزيمة، لكنه جيش الأهرام كي تستعيد مصر الثقة بنفسها وتاريخها وقدراتها، وفى الوقت الذي كان صفحات التحقيقات تعيد نشر فصول رائعة من تاريخ الحضارة المصرية القديمة

تذكيرا للمصريين بقدراتهم الخلاقة، كانت صفحات الرأي في الأهرام تتحدث في هذه الظروف العصيبة عن زوار الفجر، ومراكز القوى، وغياب سيادة القانون، وانعدام دولة المؤسسات، كما تتحدث عن أهمية تقنين الثورة، وانعدام الكفاءة في أدار الصراع مع الولايات المتحدة، وبسبب هذه المقالات تعرض هيكل لحملة هجوم شديدة من أنصار مراكز القوى، داخل الاتحاد الاشتراكي وخارجه، كانت تأخذ في بعض الأحيان شكل صدام مكتوم تحت السطح، لكنها كانت تنفجر أحيانا أخرى في صراع علني تطال بعض سهامه هيكل ومعاونيه.

لم يكن هيكل الصحافي الأوحد في مصر، كان هناك آخرون يسبقونه أو يسابقونه في علاقاتهم مع قادة يوليو، لكن هيكل كان الأقدر والأكثر ذكاء وكفاءة، وعندما غادر هيكل الأهرام اثر خلافه مع الرئيس السادات عام ١٩٧٤ عمل من منزله بعيدا عن دوائر الحكم، حافظ هيكل بجده ودأبه وعمق صلاته العربية والدولية على موقعه في قمة هذا الهرم الشامخ، باعتباره أبرز صحافيي مصر، وأكثرهم متابعة للحدث، وأبعدهم عمقا في تحليل ما يجرى، وأكثرهم انتشارا على الساحة الدولية.

ويحكي صلاح الدين حافظ عن هيكل ويقول:

كنت في الأهرام أحد تلاميذ هذا الأستاذ العظيم، ولولا شجاعته في تحمل المسؤولية نيابة عن كل معاونيه، فربما كنت اليوم طريدا في الشارع، وربما كنت أقضى عقوبة السجن المؤبد لأنني تجاسرت على نشر مقالات لم تكن موضع رضا بعض أجنحة الحكم الناصري.

لكن علاقتي توطدت مع هيكل بعد خروجه من الأهرام، التقينا كثيرا وتحاورنا كثيرا.. وأحيانا كانت صراحة الحوار تأخذ أبعادا مؤلمة، لكنه كان دائما في موقع الأستاذ، وكنت في موقع التلميذ المشاغب، تجمعنا تجربة عمل رائعة في الأهرام؛ وود عظيم، واحترام متبادل، وعلاقات جميلة، وتحددت فيها بصورة واضحة نقاط خلافنا المحدودة.

كنت دائم الإلحاح عليه أن يقدم لأجيال مصر الجديدة رؤية نقدية للتجربة الناصرية تنقذ عبدالناصر من رؤى بعض المشعوذين الذين يحاولون أن يصبوا فكره في قوالب أيديولوجية جامدة، تشبه أن تكون طقوسا وطلاسم لا تقبل الجدل ولا الحوار ولا التطور، خصوصا وأن بدأ ذلك في مقال شهير عنوانه «عبدالناصر ليس أسطورة»، لكنه كان يعتقد أن المهمة سوف تشق على نفسه لأسباب عاطفية عديدة تتعلق بعلاقاته الشخصية مع عبدالناصر، لكن السبب الأهم من وجهة نظره، هي مخاوفه من أن تقدم هذه الرؤية النقدية وقودا يضاف إلى تلك الحملة الشرسة التي شنتها قوى عديدة على عبدالناصر بعد وفاته، استخدمت فيها كل أساليب الحرب النفسية كي تغسل أدمغة المصريين وأدمغة العرب من أية آثار طيبة لمرحلة حكمه.

وكنت أتمنى على كاتبنا العملاق لو أنه تجاوز عن مرارة علاقته بالرئيس السادات الذي أدخله السجن دون مبرر كي يعيد الاعتبار لقيادة وطنية مصرية، رفضت أن تظل سيناء رهينة خلافات عربية عربية عوقت قدرة المصريين والعرب على الاستثمار الأمثل لانجازات حرب أكتوبر التي فتحت طريقا صحيحا للسلام، عاون هيكل في ظروف سابقة على شقه وتمهيده، عندما كتب مقاله الشهير «تحية إلى الرجال» ليعفي الرئيس السادات من مأزق عام الضباب، وعندما صاغ له أمر القتال في حرب ٦ أكتوبر المجيدة، الذي تحدث عن حرب محدودة تتكبد فيها اسرائيل خسائر ضخمة، تحدث آثارا سياسية غير محدودة على مسرح العمل السياسي، وعندما شارك بحفاوة في مبادرة الرئيس السادات التي أعادت فتح قناة السويس، تأكيدا على انحياز مصر شبه النهائي لتسوية سياسية عادلة. لكن هيكل كان يرى لأسباب عديدة، أن اتفاقية كامب ديفيد خطأ لا يمكن غفرانه، وكنت أرى عكس ما يرى، ومع ذلك ظل هيكل على وده القديم، يمنحني مؤازرته وتشجيعه كلما التقينا.

مين هناك

يعتمد محرر الحوادث على التواجد في موقع الحدث وهو في كتابته يميل إلى الوقائع ويفتش عنها وكان هيكل محظوظا فقد كانت البلاد وقت أن بدأ محرراً

للحوادث في جريدة الاجيبشيان جازيت التي تصدر بالانجليزية.. ثم بعدها في مجلة روز اليوسف ومنها إلى أخر ساعة مع أستاذه محمد التابعي.. كانت البلاد كلها تتحدث عن خُط الصعيد وعصابته.. وذهب هيكل إلى الجبال لكي يرى الجريمة والمجرم وجها لوجه ويمسك بكل الخيوط ونجح أن يصل إلى صاحب النفوذ الذي يحمى الخط وعصابته وكان واحداً من زعماء الأحزاب السياسية وقد تقلد العديد من المناصب الكبرى.

وكتب هيكل عن حرب فلسطين وسافر إلى اليونان وعاش حربها الأهلية ثم سافر إلى كوريا والهند الصينية.. وفى ايران عاش معركة تأميم البترول وحضر محاكمة محمد مصدق رئيس وزراء إيران وحسين فاطمي وزير خارجيتها الذي نقلوه على نقالة من المستشفى إلى حجرة الإعدام.

قبل قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢بأسابيع قليلة وبالتحديد في ١٣ يونيو ٥٢ عين محمد حسنين هيكل رئيسا لتحرير أخر ساعة.. فقد كتب علي أمين مقالا في أخر ساعة خصصه بالكامل للحديث عن هيكل وهو يقدمه للقراء رئيسا للتحرير فقال علي أمين أقدم لكم استقالتي لأعود محررا عاديا في أخر ساعة وأقدم لكم مع الاستقالة رئيس تحرير أخر ساعة الجديد الأستاذ محمد حسنين هيكل.

ومع الأسابيع الأولى من ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بدأت علاقة فريدة ومتميزة بين البكباشي جمال عبدالناصر والسادات وهيكل والتي أسماها هيكل فيما بعد صداقة الحظ والشرف.

لقد بلغت هذه العلاقة إلى حد أن الكاتب الكبير احمد بهاء الدين قال: في تقديري أن محاولة فك لغز شخصية جمال عبدالناصر الشديدة التميز والتفرد في التاريخ المصري لا يمكن أن يتم فهمه ألا اذا أمكن فك لغز علاقته بثلاث شخصيات وصداقات كان لها أكبر الأثر في حياته.. عبدالحكيم عامر.. السادات وعلاقته بمحمد حسنين هيكل الصحافي الذي لم يكن من أقرب الناس اليه في أول الثورة

لكنه صار بعد ذلك في تقديري أقرب الناس اليه على الاطلاق فجعله شريكا في الحكم على أعلى مستوى وفى ٣/ ٤/ ١٩٥٦ عين رئيسا لتحرير الأخبار.

وفى ١٧/ ٧/ ١٩٥٧ قرر مجلس ادارة الأهرام في جلسته المنعقدة في ١٧/ ٧/ ١٩٥٧ تعيين الأستاذ هيكل رئيسا للتحرير ابتداء من أول أغسطس ١٩٥٧ مع احتفاظه برئاسة تحرير أخر ساعة فكان الصحافي الوحيد الذي يجمع بين رئاسة تحرير عملين في وقت واحد وعندما قبل العرض ووقع مع أصحابها عقد العمل رئيسا لتحريرها، كانت الأهرام تخسر ماديا طوال السنوات العشر السابقة وكانت خسارة تزيد في تلك الفترة على مليون ونصف المليون جنيه سنويا. وكان توزيع الأهرام في ذلك الوقت في حدود ٦٨ ألف نسخة بما فيها الاشتراكات، وكان التوزيع يتناقص- كما كانوا يقولون- بعدد اعلانات الوفيات في الأهرام، وكان معظم تجهيزاتها الفنية من آلات ومعدات مصنوعة في فرنسا في الفترة ما بين ١٩٠٤، ١٩٢٨ وكان رأسمال الشركة التي تصدر الأهرام هو أربعمائة ألف جنيه مصري زادت خسائر الأهرام عنها عدة مرات في السنوات السابقة، إلى الحد الذي دعا أسرة تقلا إلى التفكير في بيع الأهرام، وكان بين الذين حاولوا شراءها في ذلك الوقت دار التحرير للطبع والنشر، وكانت تملكها الحكومة، وكان رئيس مجلس اداراتها هو أنور السادات الذي تفاوض في عملية الشراء وكان المبلغ الذي جرى التفاوض عليه هو أربعمائة ألف جنيه- رأسمال الشركة- وأربعمائة ألف جنيه أخرى في مقابل اسم الشهرة للأهرام.

هكذا كانت الأهرام كلها مقدرة بثمانمائة ألف جنيه مصري حينما تسلم أمورها سنة ١٩٥٧ وقد تركها سنة ١٩٧٤- أي بعد سبعة عشر عاما- والأمور كلها فيها مختلفة اختلافا شاسعاً عما كانت عليه. موجوداتها- حينما تركها كانت تزيد على أربعين مليون جنيه وحجم عملياتها السنوية يدور حول مائة مليون جنيه.

ووصل متوسط توزيعها إلى ثلاثة أرباع مليون نسخة كل يوم، بما في ذلك عدد

الجمعة الخاص. وكانت أرباحها السنوية تصل إلى ما بين ثلاثة وأربعة ملايين جنيه.

وكانت سمعتها العربية والدولية التي تأسست وتأكدت في تلك الفترة تجعلها واحدة من الصحف العشر الكبرى في العالم طبقا لتقرير نشرته جريدة التايمز وأصبحت دارها الصحافية، بما فيها من تجهيزات حديثة ومعدات، واحدة من الدور الصحافية الثلاثة الأكثر تقدما في العالم، وذلك بشهادة مؤتمر الصحافة العالمي في لوس أنجلوس سنة ١٩٧١.

كل ذلك تم بدون أية معونات خارجية، وبدون أي مساعدات، وإنما تم العمل الإنساني وحده لكل الذين شاركوا هيكل في إعادة بناء الأهرام وأصبحت الأهرام المرجع العلمي الوحيد بالنسبة لمنطقة الشرق الأوسط كلها.

وظل هيكل يعمل وفقا لأبيات قالها أمير الشعراء أحمد شوقي:

أسير على نهج يرى الناس غيره   لكل امرئ فيما يحاول مذهب

أي انه لابد أن يكون دائما وأبدا مختلفا وله منهجه وأسلوب حياته.. فهو في حد ذاته نمط وأسلوب ومذهب كما وصفه احد مريديه وهو الكاتب الصحافي الكبير سمير صبحي ويقول:

كان هيكل، يحمل دائما أجندة بداخله، تحوي صفحاتها فكراً منظماً ودقيقاً يعكس رؤية شاملة ومعمقة لجميع القضايا السياسية والاستراتيجية وحتى الاجتماعية والفنية منها.. فهو مثقف موسوعي جذوره الطبقية والاجتماعية تمتد في أرض صلبة حيث الطبقة البرجوازية التي حملت أفكار التغيير في مصر منذ منتصف العشرينيات من القرن الماضي وقادت الثورات وحركات التحرير ونهضة الفكر والفن.. فكان طرحا لحقل جميل من الأفكار والقيم والتقاليد المهنية والاجتماعية، صقلها بخبرات لم تتوافر لكثير من أبناء جيله والأجيال التي تلته أو سبقته في الصحافة المصرية والعربية.

فمحمد حسنين هيكل.. وجد نفسه في الأربعينيات صحافياً.. مسألة صدفة وقدر!

التقط هذه الصدفة- التي كانت قدره- وطور نفسه منذ أن كانت الصحافة مازالت خيالا في ذهنه.. إلى أن أصبح له خياله الخاص.

نحن أمام رجل.. يحمل ترمومترا داخل عقله.. به يقيس درجة حرارة الخبر..!

والى جانب هذا الترمومتر فهو يحمل ذاكرة متينة يجددها بطريقته الفريدة التي ابتدعها.. يجددها بإعادة قراءة أوراقه.. ويسترجع الماضي والحاضر لذلك يجد المستقبل أمامه دونما أي مجهود.

هيكل.. لأنه له خياله الخاص فقد خاض الكثير من المعارك، واختار طريقه في زمن لا يرحم فقراء الخيال.

هذا الصحافي الذي يتحرق شوقاً إلى مصدره.. لكنه أبدا لا يتنازل.

إلا إذا بحث عن مصدره واطمأن عليه..

هو جاهز للقول والحوار ومن هذا الجدال تولد الأفكار وتقفز الأخبار إلى يديه بعد أن تخيلها لتصبح حقيقة.

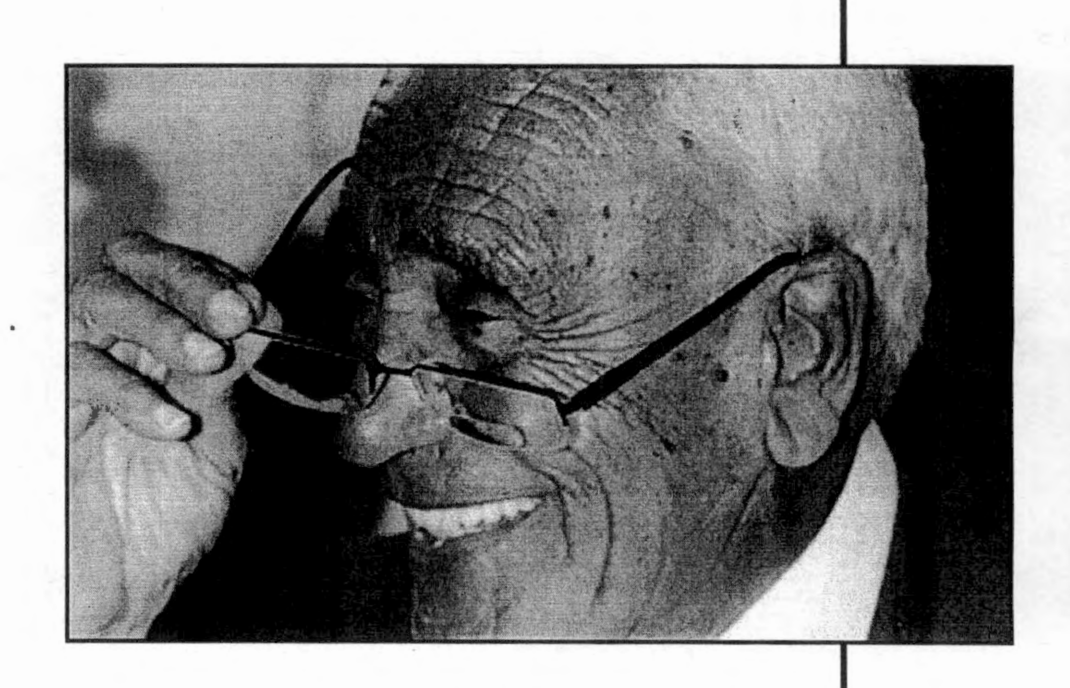
هيكل شاهد على العصر منذ منتصف القرن إلى نهايته، كما كان عبدالرحمن الجبرتي شاهدا على عصر نابليون ومحمد علي.. ولم يتأثر يوما بغيابه عن دور تنفيذي.

وهو يقول في ذلك: قلمي مازال في يدي.. وهذا أقل شيء.. والصحافي قلم وليس الصحافي مقعداً!!

إن محمد حسنين هيكل واحد من جيل الصحافيين الأعزاء الذين صنعوا أنفسهم بأنفسهم!!

(١٤)

هيكل قال لأبي : أثاث بيتك قديم لا يليق بك يا ريس !



تحكي الأساطير التي تناقلتها الأجيال في بلاد العرب عن الأقدمين أن طائر العنقاء الأسطوري الذي كان يعيش في الصحراء يظهر من سلالته طائر كل عدة عقود من السنين وانه يضرب بجناحيه على اتساعهما في الآفاق المهيبة مبهراً الخلائق وخاطفاً الألباب وساحراً العيون بريشه البديع لكنه عندما يحين الأوان فان هذا الطائر الوحيد الفريد ينتصب واقفا في كبرياء وسط لهيب المعارك ونيران الفتن لكنه لا يحترق وإنما ينبعث من قلب النار مبشرا بحياة ثانية منتشيا بشباب عمر جديد.

هذه الكلمات اختارها هيكل في رثاء المفكر المبدع جمال حمدان* راهب الجغرافيا صاحب موسوعة شخصية مصر.. وكانت الكلمات تبلغ أيضا كل سلالة النجباء الذين حملوا لواء التنوير في تاريخ مصر مثل رفاعة الطهطاوي ومحمد عبده.. بعض تلامذة هيكل عند وفاته فتشوا في سجلاته وأوراقه واختاروا هذه الكلمات ومنهم أنور عبداللطيف الكاتب الصحافي الذي قال إن هيكل بهذه الكلمات كان ينعى نفسه.. فهو أيضا من فصيلة طائر العنقاء وقد اعترفوا بأنه محب للحياة ومغرم بها وفي نفس الوقت متصالح ومتفاهم مع بعضها وهذه الحياة أعطته أحلى وأغلى ما عندها ومن الحق أن أدرك أن ما بعدها موصول بها اتصال الليل بالنهار وهيكل نادراً ما يبكي.. لكنه ضبط باكيا بحرارة في جنازة الكاتبة الصحافية فتحية بهيج عام ١٩٦٤..

وأيضا يوم وفاة ذراعه الأيمن في الأهرام توفيق بحري عام ١٩٧٠ ورغم اقترابه الشديد من عبدالناصر لم يتم ضبطه باكيا في وفاته ربما لأنه بكى عليه بالكلمات ومع ذلك بكت هدى عبدالناصر على هيكل في مقال طويل نشرته الأهرام بعنوان «لقاء أجمل في رحاب الله».. والعنوان له مدلول إنساني مقصود ويبعد به عن المشاركة السياسية التي جمعت بين ناصر الأب وهيكل العم أو اونكل.. وشهادة الدكتورة هدى لها أبعادها الخاصة التي تميزها عن كل ما كتبوا أو قالوا أو شاهدوا.. وقالت:

في بيتنا

من حسن حظي أن دخل الأستاذ هيكل وحرمه السيدة هدايت تيمور حياتي وأنا بعد في الثانية عشرة من عمري، وذلك عند زيارتنا الأولى إلى يوغوسلافيا في صيف ١٩٥٨على الباخرة الحرية (المحروسة سابقا وحاليا) بدعوة من الرئيس تيتو وحرمه جوفانكا بروز.

أثناء الرحلة كان الأستاذ هيكل يلاطفنا ويتحدث معنا، بل ويشاركنا الألعاب التي كانت على الحرية وبالطبع كنا قد رأيناه وقابلناه مرارا من قبل في بيتنا في منشية البكري، أما هدايت فكانت أصغر سيدة في الرحلة، ووجدتني أنجذب إلى حديثها، وأتعلم من تعليقاتها وخبرتها في هذه الفترة القصيرة التي دامت فقط أسبوعين، ولاحظت أنها تحمل صورة تنظر إليها كل فترة بقلق ووحشة، وعرفت أنها لابنها علي، وكانت هذه أول مرة تتركه.

وشاء القدر أنه أثناء رحلة العودة البحرية من يوغوسلافيا، أن تقوم ثورة العراق، ويضطر والدي ويرافقه زملاؤه في الرحلة ومعهم الاستاذ هيكل إلى العودة إلى براغ على متن إحدى المدمرتين اللتين كانتا ترافقان الباخرة الحرية ثم استقل والدي الطائرة من هناك إلى موسكو فدمشق. ظللنا وحدنا على الباخرة وانتاب هدايت بالذات الخوف، عندما قيل لنا أن أنوار الباخرة سوف تطفأ بسبب نشاط غير عادي للأسطول السادس في البحر المتوسط! بالطبع.. كنا صغارا لا نقدر خطورة مثل هذه الأوضاع، ولكني لا أنسى قلق هدايت على أ.هيكل! ولم نكن متعودين على ذلك، حيث إن والدتي كانت أعصابها أكثر ثباتا ربما بحكم التعود على المخاطر وكانت تحاول بكل الطرق أن تعمل على تهدئتها.

في أخر الرحلة رجعنا إلى يوغوسلافيا مرة ثانية ووجدنا الرئيس تيتو وحرمه في انتظارنا، وأمضينا عدة أيام في فيلا جميلة بحديقة واسعة مليئة بالأزهار والنباتات النادرة، إلى أن قيل لنا: سترجعون إلى القاهرة في طائرة حربية، ولا أنسى حتى الآن

كيف كانت كراسيها الحديد متعبة! حطت الطائرة أخيرا في مطار بلبيس الحربي.. وكانت رحلة لا تنسى! ولم أقترب من هيكل أكثر إلا في رحلتنا الثانية على الباخرة الحرية إلى اليونان ويوغوسلافيا في صيف ١٩٦٠.

ولم يتحدث معي هيكل طويلا في هذه الرحلة إلا ونحن جالسان على مائدة أول غداء رسمي أدعى إليه، وكان في القصر الملكي اليوناني بحضور الملك بول والملكة فريدريكا والأمير قسطنطين الذي أصبح ملكا على اليونان فيما بعد والأميرتان إيرين وصوفيا، التي أصبحت ملكة اسبانيا بزواجها من الملك خوان كارلوس.

دار أول صنف للأكل فوجدته غريبا فاعتذرت عنه، وهنا نظر إلى هيكل وعلى وجهه ابتسامة ساخرة، وقال لي: لا ترفضي الصنف القادم فلا يوجد شيء بعد ذلك! وضحكنا وعملت بنصيحته وسط اندهاشي، فنحن في مصر معتادون على تقدم عدة أصناف فما بالك بمائدة ملك اليونان!

وكان هيكل دائم الاهتمام بأخبارنا كما كنت أعلم من والدي وكان أول من أخبر والدي بمعلومات عن زوجي حاتم صادق الذي كان زميلي في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ثم استوضح.. ألن تسأل عنه؟ رد والدي.. لا.. إذا سألت فإن المعلومات ستستقى من بواب أو من يماثله! وأتذكر جيدا كيف كان هيكل متحمسا لزواجي. ومنذ ذلك الوقت توثقت علاقتنا به وبهدايت، حيث كانا يدعوانا إلى بيتهما ومزرعتهما دائما بحضور شخصيات مصرية وعربية مازلت أعتز بهم، وبمرور الوقت زاد اقترابنا من هذه العائلة المصرية الأصيلة.

حساد الموتى

وعن عملها في الأهرام.. تتذكر الدكتورة هدى عبدالناصر: كنت لأيام اجلس وحيدة في مكتبي، إلا عندما ينادي علي الأستاذ توفيق الحكيم الذي كان يشع مرحا ويوجه الكثير من الدعابات، أو عندما يطلبني الأستاذ هيكل ليطمئن علي وفي يوم فتح باب مكتبي وتقدمت مني صحافية شابة لم أكن أعرفها من قبل، وقالت: أنها

تريد أن تقدم لي العزاء بنفسها. شكرتها، ثم بدأت حديثا جعلني أفغر فاهي من غرابته! قالت لي: ألا تعرفين أنكم تتمتعون بميزات كبيرة لم يحصل عليها أحد من قبل؟! وتقصد بذلك قرار مجلس الشعب بتخصيص مرتب رئيس الجمهورية لوالدتي، وكذلك منزل منشية البكري وفيلا المعمورة إلى أخر عمرنا.

رددت عليها قائلة: إن ذلك كله هو شيء لم نطلبه وليس لنا يد في تحقيقه! وعلى الفور جاء في ذهني بيت الشعر.. حتى على الموت لا أخلو من الحسد.

ومن جانب آخر اكتسبت في الأهرام صداقات كثيرة اعتززت بها.. محمد سيد أحمد، أمينة شفيق، عبدالوهاب المسيري، إسماعيل صبري عبدالله، د.عائشة عبدالرحمن التي أصرت على زيارة والدتي عدة مرات.

وأتاح لي جو العمل في الأهرام الفرصة للانطلاق، وكان الأستاذ هيكل يشجعني في ذلك، فقد كانت طبيعتي تميل إلى التحفظ. إن الجو الثقافي في الأهرام ذلك الوقت كان مليئا بالندوات والمحاضرات من مصريين وأجانب كله حياة وفكر متجدد باستمرار، يعتمد على تواصل الأجيال وحرية الرأي والتعبير.

يضاف إلى ما سبق أن تحققت معرفتي بالأقسام المختلفة بهذه المؤسسة العريقة التي جعلها الأستاذ هيكل تضاهي أهم المؤسسات الصحافية العالمية في الكفاءة والتأثير، وقد كان هو أول من صحبني في جولة في المبنى في شارع الجلاء الذي لم يكن قد مضت على افتتاحه سنتان. وبالطبع كل ذلك أضاف إلى خبراتي الأكاديمية الكثير واعتبرته مكسبا علميا لا يعوض.

تواصل د.هدى: كان الجورنالجي هو اللقب الذي كان يفضله الاستاذ هيكل، وهناك العديد من رسائل الدكتوراه التي تناولت هذا الجانب من شخصية هيكل بالبحث والتحليل، وأعنى الصحافي والسياسي المثقف الواسع الاطلاع المتعدد الاتصالات، ولكنى سأشير هنا فقط إلى تجربتي مع مقالات بصراحة.

فمنذ ستة عشر عاما بدأت مشروع توثيق تراث والدي، ولم يكن متاحا لي سوى أوراقه الخاصة التي كانت في مكتبه في منزلنا في منشية البكري، فلم تفرج الدولة آنذاك أوائل السبعينات عن أي وثائق تتعلق بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

وبدأت أضع خطة العمل، وقررت الاستهلال بمقالات الأستاذ هيكل في الأهرام تحت عنوان بصراحة والتي بدأها في ٩ يناير ١٩٥٧، لماذا؟

- **أولا:** هذه المقالات كانت مصدرا مهما للمعلومات بالنسبة للقارئ فقد كان الأستاذ هيكل قريبا من عبدالناصر، يتصل به يوميا.. يعطي ويأخذ ويناقش ويحلل.

- **ثانيا:** الانسجام الفكري بين الصديقين، مع حرية أكبر في الحركة والاتصالات بالنسبة لهيكل، كل ذلك انعكس على هذه المقالات. وإن كان ذلك لم يمنع نقده لبعض مؤسسات الدولة وبعض المسؤولين وبعض السياسات، مما جعل من هيكل عدوا لهم يتربصون به.

- **ثالثا:** كان هيكل يرافق والدي في رحلاته ثم يكتب عنها، وعندما أردت أن أجد مثلا وصفا لرحلاته إلى الجزائر بعد تحريرها في ١٩٦٣، وإلى اليمن بعد الثورة في ١٩٦٤ لم أجد ألا مقالات بصراحة في الأهرام التي تصور كل هذا بأسلوب جميل دقيق ومشاعر فياضة، بل لقد دهشت عندما عرفت أنه ذهب إلى موسكو قبل زيارة خروشوف إلى مصر في ١٩٦٤، واستقل معه باخرته، ثم كتب عنه كانسان وكسياسي عدة مقالات رائعة.

- **رابعا:** كثيرا ما كان هيكل ينقل آراء عبدالناصر أو يكتب على لسانه كلاما، وتلك معلومات نقيمها في الأبحاث أنها مصادر درجة أولى.

- **خامسا:** لقد كان والدي أيضا محظوظا لأن هيكل كانت له قدرة على الشرح والتحليل لا يجاريه فيها أحد، فقد كان يقرأ أكثر مما يكتب وأرشيفه منظم جدا، ولا تخلو مكتبته من كتاب عربي أو أجنبي يضم إليها فور صدوره.

- سادسا: هذه المقالات التي وصلت في دراستي الأخيرة لها حتى مايو ١٩٦٧ مازالت تدهشني، وكثيرا ما دونت مراجع عربية وأجنبية ذكرت فيها، بل إن بعضها كان مثارا لنقاش بين ناصر ورؤساء دول عربية.

ونجحت في ٢٠٠٤ من الانتهاء من جمع مقالات الأستاذ هيكل في الأهرام والأخبار وأخر ساعة والأنوار اللبنانية ووضعها على موقع جمال عبدالناصر في مكتبة الإسكندرية www.Nasser.org، وأصبحت متاحة للباحثين فى بيوتهم.

- سابعا: كان هيكل يحرص دائما على أن يوثق كلامه، وكان معروفا عنه ولعه بجمع الوثائق، وخاصة عن مصر والعالم العربي، لذلك قدرت مدى حزنه عند اقتحام مجهولين حرمة بيته في برقاش وأشعلوا النار فيه، وهناك كان يحتفظ بكل الوثائق التي جمعها طيلة حياته! ولذلك.. في ٢٣ سبتمبر ٢٠١٤، كعادتي كل عام ففي يوم ميلاده، اجتمع مع عائلة هيكل على الغداء، وفكرت ماذا أهديه؟ وطرأ لي خاطر أن أقدم ما لدى من وثائق لم تنشر بعد على هارد ديسك ولكن طبعت قائمتها على ورق وعندما قدمتها له قلت: لا تحزن.. لقد استخدمت كل ما عندك من وثائق في مقالاتك وكتبك، أما هديتي فكلها جديد لم يطلع عليها أحد! وكنت سعيدة عندما لم ينتظر إلى نهاية المناسبة. وإنما تنحى جانبا وبدأ في قراءة عناوين المادة التاريخية.

وتختتم هدى عبدالناصر مقالها في رثاء هيكل وتقول لقد كان هذا باختصار جزءا مما جال في خاطري مع هذه اللحظات الحزينة، وإذا كنت قد تركت العنان لقلمي لكتبت صفحات وصفحات.. ولكن بالنسبة لي إنسانيا، فإنني احمد الله أن أعطاه العمر ليشاركنا الحياة، فيكفي أنه كان موجودا سندا معنويا داعما لنا عائلة جمال عبدالناصر في تجربة الحياة بما فيها من خير وشر.

والآن يلتقي الصديقان هيكل وعبدالناصر بعد غياب ٤٥ عاما مرت كلمح البصر ولكنه ظل خلالها الثابت على المبدأ الوطني الشريف، الذي أعلى بمجهوده وكفاءته وفهمه العميق للحضارة، وتطوره المستمر مع الحديث من العلم كلمة

بلاده ليس فقط في الدول العربية ولكن في العالم كله.

الفقي ليس درويشاً

محب آخر لهيكل اقترب منه كثيرا.. ولأنه باحث ومفكر وكاتب وجهة نظرة مختلفة ومحترمة أيضا بحكم معرفتي بهذا الرجل الدبلوماسي والسياسي مصطفى الفقي.. الذي ظل حريصا على أن يكون طرفا في أغلب المناسبات التي تخص هيكل وقد سألته عنه وقال الرجل:

هيكل علامة لأجيال الستينيات والسبعينيات وكونه استمر بحكم عمره المديد إلى ما هو ابعد من التسعين.. فان غيره من الممكن أن يكون قد بلغها مثله.. لكن الظاهر أن هيكل كان لأخر أيامه يتمتع بذاكرة إلى حد كبير قوية.. ورصيد ضخم رغم الحملات التي تعرض لها من هنا أو هناك.. منها ما يدخل تحت مظلة النقد واختلاف الرأي وهو أمر لا غبار عليه لكن التطاول والتربص وتصيد الأخطاء من واقع الغيرة المهنية مسألة لا تصح ولا تليق وقد تعود هيكل ألا يرد ويتجاهل الهجوم مهما كانت درجة قسوته أو تجاوزه للحقائق وكان يعتبر أن استمراره ممسكا بالقلم مع تغير العصور والأجيال اكبر رد.. لان أقلام وقامات.. سقطت مبكرا وظل هو على حيويته وانتظامه..

وقد قال عادل حمودة الكثير في كتابه خريف هيكل وكان واحدا من اشد تلاميذه تأثرا به في حركاته وسكناته وفى أسلوبه.. وقد اعترف بذلك علنا من خلال كتابين أصدرهما عن هيكل اقترب فيهما من الغزل.. ثم كان التحول في كتابه عن الأسطورة التى شاخت في موقعها.

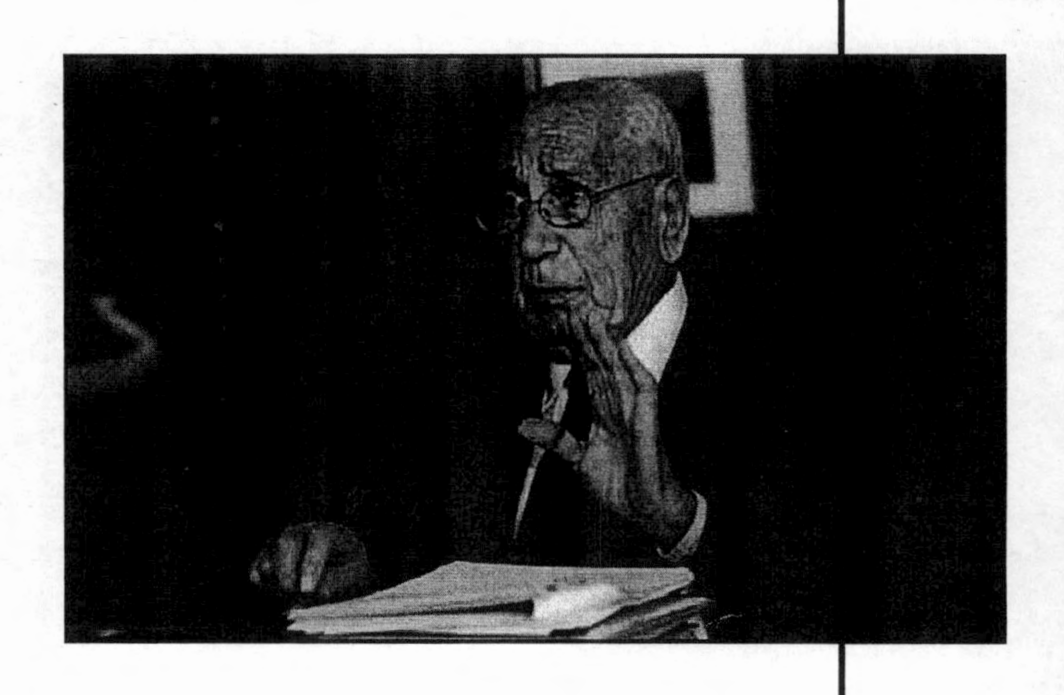
وأنا شخصيا أحب هيكل كما أحببت عبدالناصر يقول د.مصطفى الفقي- ولكني لا أخجل من انتقاد يصل إلى حد الاختلاف لكن الحب على الصعيد المهني والإنساني يظل كما هو غير منقوص لأننا مهما اختلفنا مع هيكل لا نختلف عليه بحكم المكان والمكانة والتمكن وهو جزء من ذاكرة الأمة.

أما مثلا ما يقوله عادل حمودة من أن هيكل أصبح مثل الفراشة ينجـذب تلقائيـا نحو السـلطة مهمـا كانـت طبيعتهـا.. ملكيـة.. جمهوريـة.. إسـلامية.. ناصـرية.. ساداتية.. عسكرية.. إخوانية.. مدنية.. يذهب إليها عارضـا خدماتـه ونصـائحه في صياغة ما تريد لا يهمه من فيها.. فكل عدو سابق هو بالمصلحة صـديق لاحـق.. وكل صديق حالي هو بانتفاء المصلحة عدو لاحق.

هذا الكلام فيه مبالغة.. لان الدنيا تتغير والحسابات تتغيـر.. وسـبحانه وحـده مثبت القلوب والعقول..!

(١٥)

وقال السادات : يا محمد أنا قررت أعتمد على جيلٍ أكتوبر واخترت قائد الطيران نائبًا لي !



في حوار أجراه الصحافي محمود مسلم مع الكاتب والمفكر مصطفى الفقي قال أن الرئيس القادم يحتاج إلى موافقة أميركية وعدم اعتراض إسرائيلي.. الحوار كان في يناير ٢٠١٠ أي قبل سنة من رحيل الرئيس حسني مبارك ونشرته جريدة المصري اليوم.. وبعد أيام أرسل محمد حسنين هيكل رسالة تناولت التعليق على المقولة وطبعاً استهل خطابه إلى مجدي الجلاد رئيس التحرير وقتها بمقدمة هيكلية ثم جاء إلى العبارة التي استوقفته في حوار على صفحتين.. ولكنها ليست عبارة بل جملة كاملة وقد جاءت من رجل تولى منصبا رفيعا في الرئاسة لسنوات طويلة وهو منصب سكرتير الرئيس للمعلومات ثم تولى رئاسة لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشعب.. وقال هيكل مخاطبا مجدي الجلاد: دعني أضف أن أسئلتي ليست سياسية وإنما مهنية فأنت تعرف كما اعرف أن أركان الموضوع في أي خبر لا تستوفي حقها ألا أن تجيب عن أسئلة ضرورية لاستيفاء عناصره فهناك فيما أورده الدكتور الفقي خبر كبير وذلك حين ذكر بعد تعبير عن الأسف أن الرئيس المقبل في مصر يحتاج إلى موافقة أميركا وعدم اعتراض إسرائيل.. وإذا كان ما ذكره الدكتور الفقي خبراً وهو خبر بالتأكيد فإن هناك أسئلة وإجابات لازمة لاستكماله وكلها ليست من عندي وإنما هي مجمل أول درس عن قواعد المهنة وأصولها سمعناه جميعا والحاصل أن الدكتور الفقي أجاب عن سؤال واحد من أسئلة الخبر وهو سؤال بماذا، أي ماذا حدث.. وقد لخصه عنوان الرئيس المقبل في مصر يحتاج إلى موافقة أميركا وعدم اعتراض إسرائيل.. لكن حق المهنة وواجبها يستدعي بقية من أسئلة لابد لها من إجابة عنها يستوفي الخبر أركانه هناك السؤال عن: متى؟ أي متى وقع الخبر ومتى أصبح الرئيس في مصر بموافقة أميركية وعدم اعتراض إسرائيل؟.. وهناك السؤال عن كيف؟.. وهناك السؤال عن أين؟ وهناك السؤال عن: من؟ وهناك السؤال عن: لماذا؟ وأخيرا هناك السؤال عن: ثم ماذا؟

أنني بعث إليك بهذه الرسالة واتركها في عهدتك وهي رسالة مهنية بحتة من

رئيس تحرير سابق إلى رئيس تحرير جديد لاحق وإذ أبعث بها إليك فإنني اتركها في عهدتك المهنية ترى فيها رأيك فحسب تقديرك واثقاً في كل الأحوال من كفاءتك صحافيا مدققا ومتقدراً. تقبل وأسرة تحرير المصري اليوم صادق الود وموفور الاحترام ثم وقع باسمه على الرسالة وكتب ملحوظة أسفل التوقيع يقول فيها: ربما يستطيع احد خبرائكم القانونيين أن يشرح لكم معنى التعبير القانوني شاهد ملك، وقد اخترته بدوري عنوانا لهذه الرسالة إليك.

إنه هيكل

لماذا اختار هيكل هذه الجملة في حديث الفقي دون غيرها ووضع تحتها من الخطوط ما استطاع إلى ذلك سبيلا بل أنه ابعد من ذلك اختار علامات الاستفهام التي تحول الجملة إلى حكاية.. ويتحلى ذكاء هيكل في انه لم يكتب تعليقا على حوار الفقي الطويل ولكنه وقف أمام جملة وكتب رسالة إلى رئيس التحرير فيها الكثير من عبارات الود التي يمكن له بعدها أن يحتفظ بها للزمن أو ينشرها كما هي خاصة أن الجملة في حوار الفقي أن كانت ملفتة لأنظار القارئ فإن هيكل برصدها والدوران حولها ادخلها إلى دائرة أوسع واكبر ومن عود ثقاب إلى حريق هائل ثم أعاد نشرها في كتابه مبارك وزمانه.. ماذا جرى في مصر ولها؟! وقد نشره عام ٢٠١٠. وهيكل بشطارته يستطيع أن يحول الجملة إلى كتاب يتناول فيه علاقته مع مصطفى الفقي وأيضا مع حسني مبارك ثم تأثير أميركا وإسرائيل على صانع القرار في مصر بل واختيار الصانع نفسه.. فهل قصد برسالته إلى مجدي الجلاد أن تصل إلى رئيس الجمهورية بطريقة غير مباشرة وإذا كان في رسالته أراد أن يفتش في عقل صديقه الفقي.. فهل لنا أن نفتش في عقل هيكل بالمقابل ونستعرض تاريخه مع مبارك كما استعرضناه مع الملك فاروق الذي مدحه وهو في أول طريقه الصحافي ثم مع عبدالناصر الذي عرفه في فلسطين واقترب منه جدا حتى مات عبدالناصر، ثم تواجد مع السادات حتى ابعده وادخله إلى السجن.. فماذا عن هيكل ومبارك..

كان الأول يسمع عن الثاني عندما عينه جمال عبدالناصر قائدا للقوات الجوية وفي حرب أكتوبر كان هيكل على موعد مع المشير احمد إسماعيل والتقى في مكتبه باللواء حسني مبارك قائد الطيران. وأخبره هيكل بشجاعة الطيارين المصريين في المعركة التي جرت فوق قاعدة المنصورة الجوية واندهش مبارك لمعرفة هيكل بأمر هذه المعركة التي لم يكن يعرفها ألا الرئيس السادات.. وقال مبارك بطريقته التلقائية: انتم جامدين قوي على كده..، وضحك هيكل وانتهى الأمر عند هذا الحد.. لكن ما جرى بعد ذلك غير مسار الأحداث وقلب الموازين.. وفي استراحة القناطر الخيرية وعلى الغداء يوم ٦ ابريل عام ١٩٧٤ كان للقصة اتجاهها.. ودار الحوار بين الرئيس وهيكل بشكل إنساني في كل شيء حتى قال السادات فجأة: لدي فكرة خطرت لي منذ أيام، وأدرتها في رأسي كثيرا.

الحاج حسين -نص تعبيره، وكان يقصد حسين الشافعي- لم يعد ينفعني كان يشغل منصب نائب رئيس الجمهورية في ذلك الوقت وقد جاء الوقت لكي يمشي، رجال هذا الجيل جيل ٢٣ يوليو، كانوا جميعا عبئا على جمال، ولا أعرف كيف تحملهم، أنا الآن أريد أن أفسح المجال لجيل ٦ أكتوبر.

ونظر إلي ينتظر رد فعلي على ما قال، ولم أنبس بكلمة، واستطرد هو: لقد فكرت في تعيين نائب جديد للرئيس وأريد واحدًا من جيل القادة الذين حاربوا في ٦ أكتوبر، وهنا عد على أصابعه أسماء القادة الخمسة الذين تصدروا معركة أكتوبر. ومرة أخرى لم أنبس بكلمة، بينما هو يتفرس ملامحي. ويشرح ويفصل لعدة دقائق رأيه في كل واحد من الخمسة، بما في ذلك مزاياه وخصائصه، ثم توقف لثوان واستأنف ليقول: يكاد رأيي أن يستقر على حسني مبارك.

وكنت أصغي إليه بجوارحي، وألقى بورقته الأخيرة الرابحة، وهو يقول:

حسني أفضلهم جميعا، ثم.. وقفة أخرى واستطرد بعدها. محمد لا تنس الدور الخاص للطيران، نحن مقبلون على أوقات صعبة، ومن يضمن الطيران يستطيع أن

يسيطر على الجيش كله، ومن يستطيع السيطرة على الجيش يستطيع أن يواجه أي احتمالات في البلد.

.. تكلم يا محمد

وجاء دوري لأتكلم، وكان بين ما قلت إني أعرف رأي جمال عبدالناصر في حسني مبارك كما أعرف دور حسني مبارك في إعداد الطيران وقيادته في معارك أكتوبر، ولكني أخشى أنه بهذا التعيين يظلمه.

أمام الناس قد تبدو دلالات هذه التعيينات مدعاة لكلام كثير.

رئاسة ممدوح سالم للجهاز التنفيذ سوف تبدو «بولسة» للوزارة.

ونيابة حسني مبارك له سوف تبدو «عسكرة» للرياسة.

وذلك كله سوف يعطي انطباعا بأننا على وشك دخول مرحلة قمع أو مرحلة ضبط وربط في أحسن الأحوال، ليس ذلك في صالح المرحلة ذاتها.

ومع ذلك فقد اقترحت وأرجوك أن تغفر لي يا سيادة الرئيس أن تتاح لك الفرصة قبل نيابة الرئيس لتتعرف على جهاز الدولة وعلى مشاكل الناس، ويكون ذلك عن طريق توليك عدة مناصب وزارية تضعك وجها لوجه أمام ظروف الحياة المدنية، وبعدها يكون دخولك إلى قمة السلطة السياسية خطوة طبيعية.

ورحل السادات وجاء حسني مبارك إلى قصر الرئاسة وأفرج عن كبار المعتقلين وكانوا قد اعتقلهم السادات في سبتمبر من عام ١٩٨١ أي قبل أسابيع قليلة من مقتله في حادثة المنصة.. ونترك هيكل يحكي:

وبعد خروجي -وخروجنا جميعا- من المعتقل، شاء الرئيس الجديد -حسني مبارك- أن يكون الإفراج عنا من أحد قصور الرئاسة، وكذلك دعانا للتوجه من سجن طره- كي نلقاه في قصر العروبة. ومن هناك خرجنا إلى عالم الناس، ولا أقول

عالم الحرية، لأن وضع رجل في سجن السلطة قد يحجب المعتقل عن حرية الفعل والحركة، لكن لا يحرمه حرية الفكر والإرادة، وربما دلت على ذلك واقعة جرت يومها في السجن، فقد حدث حين أعلن عن ترشيح حسني مبارك للرئاسة خلفا لأنور السادات، أن زار السجن أحد المستشارين الذي ادعوا الوصول على علاقة قوية بالسلطة، وقدم ذلك الزائر نفسه مبعوثا خاصا يحمل رسالة هامة، وطلب مقابلة ثلاثة من المعتقلين اعتبرهم -من منظوره- ممثلين لتيارات سياسية وفكرية مؤثرة، وكان الثلاثة هو الأستاذ فؤاد سراج الدين، والأستاذ فتحي رضوان، وكنت الثالث!

وجاءت الرسالة التي ألقاها زائرنا في السجن على كل واحد عندما التقاه على انفراد في مكتب مدير السجن المقدم محمود الغنام- بما مؤداه أن نكتب رسالة تأييد لترشيح حسني مبارك رئيسا للجمهورية، ويكون من ذلك إعلانا عن حسن نوايانا- تمهيدا للإفراج عنا- عائدين إلى بيوتنا.

ومن المدهش أننا -الثلاثة- وبدون تنسيق، وبدون معرفة مسبقة بمجيء رسول من خارج السجن، وبدون استعداد لسؤاله كلا منا منفردا معه في مكتب مدير السجن، أجبناه بنفس المنطق، بنفس الألفاظ تقريبا، وبما مؤداه: إن أي تأييد منا لترشيح الرئيس الجديد من وراء القضبان، مشوب ومعيوب- لا يليق بنا ولا يليق به، وإنه حتى لو خطر على بال أينا تزكية مبارك- تحسبا ودرءاً لمخاطر دهمت هذا الوطن باغتيال رئيسه السابق- وبظواهر إرهاب مسلح تفجرت نذره في صعيد مصر- فإن هذه اللحظة وهذا المكان، هما آخر لحظة وآخر مكان يقبل فيها رجال يحترمون فكرة الشرعية ذاتها- تزكية أي مرشح لأي منصب.

ومن حسن الحظ أن ذلك الرسول ذاب فيما بعد، ولم يظهر له أثر وقيل لنا أن قرار الإفراج كان جاهزا من يوم ٢٢ أكتوبر، لكنهم نصحوا الرئيس الجديد بتأخير تنفيذه حتى انقضاء يوم الأربعين على جنازة الرئيس السادات.

وعلى أي حال فقد وقع الإفراج عنا -كما أسلفت- وبعد الأربعين- من قصر

العروبة في الأيام الأخيرة من شهر نوفمبر ١٩٨١.

وكان لنا في الساعة التي قضيناها مع الرئيس الجديد حوار مفيد، ثم جرى بعدها بأيام أن دعيت إلى لقاء منفرد معه، ودار بيننا حديث تواصل ساعات، وأمر الرئيس بإلغاء عدة مواعيد تالية له، لأن لقاءنا استمر برغبته من الثامنة والنصف صباحا إلى الواحدة والنصف بعد الظهر!

وأظن دون إفشاء لسر أنني طرحت أمام الرئيس الجديد بعضا من خواطري وهواجسي، وتفضل من جانبه فأشار بأن نظل على اتصال، ورأى إعطائي أرقام تليفوناته المباشرة وغير المباشرة لأطلبه في أي وقت. وقلت له- بينما أحد ضباط سكرتاريته الخاصة يناولني ورقة عليها أرقام ثلاثة تليفونات- إنني شديد العرفان لكرمه، لكني أستأذنه مبكرا إلى أنني لا أنوى استغلال هذا الكرم، وعددت أسبابي وفيها:

ــ أن تقديري لقيمة وقته حقيقي وبدون حساسية، وفي تجربتي المباشرة سابقا فإني عرفت عن قرب أثقال الرئاسة وأعباءها أكثر من عشرين سنة سواء مع جمال عبدالناصر سبعة عشر عاما، أو مع أنور السادات قرابة أربع سنوات.

ــ ولأني لا أعرف طبيعة تقسيمه لوقته ولا ترتيب مواعيده- فإني لا أريد المجازفة بطلبه حين يخطر لي، بينما يكون هو مرتبطا بشيء آخر في إطار برامجه وشواغله، وفى كل الأحوال فإن كل الناس رهن إشارته حين يشاء.. وأضفت قائلاً: صدقًا لا أريد أن أكرر التجارب، لأن تكرارها مع تغير الأزمنة ليس مطلوبا، فهناك حقيقة أن لكل عصر هويته ومرجعيته- بمقدار ما أن لكل عصر سياساته وتوجهاته، وأنه ما من مشهد في العمل العام أسوأ من صورة رجال كل العصور، ودعائي إلى الله أن يحمى مصر منهم- ويحميه!.

ــ وأخيرا فإنني أخشى مسبقاً أن آرائي تختلف عن مجمل التوجهات السياسية العامة في السنوات الأخيرة- وفي حين أن هذه التوجهات سوف تكون ماثلة في

اعتباره مع كل اختيار، فإنني في الغالب سوف أكون من رأى قد يختلف، فإذا ألححت عليه بما أرى كل مرة- إذن فقد أتجاوز اعتباراته أو محدداته، بل وقد أبدو في كثير مما أقول به - رجلا لا يعجبه العجب كذلك قلت.

وبالفعل فإنني مع اعتزازي برخصة الاتصال المفتوح بالرئيس- لم أستعمل هذه الرخصة، تاركا له أمر الاتصال كما يشاء وحين يشاء- وكذلك كان.

بعد ١٤ سنة

لا يمكن الحكم على رئيس بعد أشهر.. ومع ذلك كتب هيكل مجموعة رسائل طويلة إلى مبارك عام ١٩٨٢.. ولهذه الرسائل قصة.. فهي لم تنشر في حينه ولكن في وقت لاحق ثم أعاد نشرها في كتاب مبارك وزمانه... الذي صدر بعد خروج مبارك من السلطة في أعقاب ثورة ٢٥ يناير ولكن هيكل كان قد كتب عام ٩٥ عن مبارك وقال:

الرئيس حسنى مبارك يظل في حسباني رجلا تلقي الظروف عليه هذه المسؤولية، واعتقادي أنه قادر عليها، ولكن ذلك، وبصراحة كاملة، يتطلب منه إعادة تنظيم الدولة، وفي مقدمتها رئاسة الجمهورية، حتى يستطيع مكتبه ومعاونوه المختارون أن يؤدوا مهام حيوية في المرحلة المقبلة.

صدام على العشاء

نعود إلى المقالات أو الرسائل المفتوحة التي كتبها هيكل عن مبارك ولم تنشر.. والواقع أنها كانت بطلب من الصحافي مكرم محمد أحمد- وكان آنذاك رئيسا لتحرير مجلة المصور الأسبوعية إذ طلب مكرم من هيكل أن يكتب مقالا يحلل فيه نظرته لهذا العام الذي مضى- من رئاسة مبارك لمصر- والأعوام المقبلة كيف يراها مع الرئيس في سفينة الوطن وأختار هيكل أن يكتب مقالاته على شكل رسائل مفتوحة للرئيس ولان هيكل يجيد التمهيد والتوسع والسرد والتجول بين الماضي والحاضر.. معتمدا على

معلوماته ووثائقه وحضوره في مشاهد تاريخية عديدة ويقول هيكل:

وفكرت ثم اخترت- لسبب يتضح داعيه من سياق النصوص- أن أكتب أما أريد على شكل خطابات مفتوحة موجهة إلى الرئيس حسني مبارك. وكذلك بدأت الكتابة أوائل أكتوبر سنة ١٩٨٢، وفرغت من ستة مقالات اخترت أن أسلمها للأستاذ مكرم مرة واحدة، مجموعة متكاملة مترابطة مع أوائل نوفمبر ١٩٨٢.

وتسلم مكرم محمد أحمد مني مجموعة المقالات الستة أوائل نوفمبر ١٩٨٢، واستمع مترددا لما رجوته وسألته فيه من ضرورة أن لا ينفرد في النشر بقرار. ومضت ثلاثة أسابيع حتى تلقيت اتصالا تليفونيا من المستشار أسامة الباز مقترحا أن يدعو نفسه على العشاء معي أي يوم واتفقنا بالفعل على موعد العشاء مساء اليوم التالي في بيتي، وحين جاء لاحظت من أول نظرة أنه يتأبط رزمة كبيرة من الأوراق تعرفت عليها، لأنها كانت نفس الرزمة التي سلمتها داخل مظروف إلى الأستاذ مكرم المقالات التي كتبتها للمصور.

وصحبت أسامة الباز إلى مكتبي في نفس الطابق وهو ملاصق لمسكني، كي يتخلص على الأقل من حمولته، سواء في ذلك رزمة المقالات التي يحملها تحت إبطه أو أي طلب من شأنها ينتظر على طرف لسانه قبل أن نجلس إلى مائدة العشاء.

ولم يكن هناك داع لمقدمات، لأن رزمة الأوراق التي استقرت أخيرا على مكتبي طرحت موضوعها، وملخصه:

أن هناك خشية من أن النشر قد يسبب حرجا في هذه الظروف!

أن هناك رجاء بتأجيل النشر خارج مصر كما في مصر أيضا.

أن الأمر في النهاية متروك لي.

ولم يأخذ الموضوع مني تفكيرا يقصر أو يطول، بل صدر ردي عفويا وطوعيا – مضمونه: أنا آخر من يريد أن يتسبب في إحراج من أي مقدار أو أي نوع لأي أحد

سواء للرئيس أو مكرم أو غيرهما.

بدون إحراج

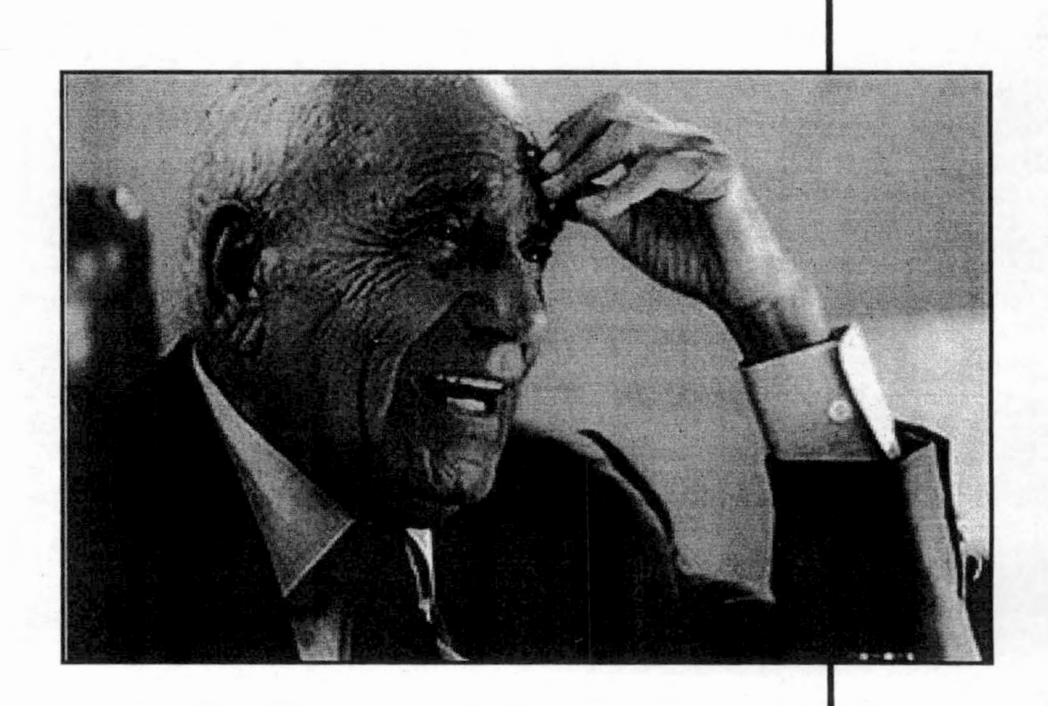
وكان هناك وقت آخر بين مبارك وهيكل في بدايات تولي مبارك حكم مصر.. يورده عادل حمودة في كتابه خريف هيكل ويعقد مقارنة بين هيكل وعبدالناصر من ناحية وبين هيكل ومبارك من ناحية أخرى ويبدأ حمودة بالمقارنة بين هيكل وعبدالناصر ويقول: كيف لنا أن نجمع بين هيكل وعبدالناصر في قارب سياسي واحد.. هيكل الذي تبدو صورته الارستقراطية متناقضة تماما.. مع رئيس عاش للغلابة ومن أجلهم وعلى طريقتهم وكم من مرة سأل هيكل: هل هناك طعام ارقي من الأرز والخضار واللحم وكان طعامه المفضل الجبن القريش والخبز الأسمر.. ناصر أقصى ترفيه يحصل عليه صورة يلتقطها لأحد أفراد عائلته أو فيلم سينمائي يشاهده معهم.. أو أغنية لأم كلثوم يستمع إليها.. بينما هيكل يسافر شرقا وغربا ليحضر أوبرا أو حفل موسيقى.. انه رجل السيجار والجولف والحياة الهاى كلاس.. فكيف تصدق أن هيكل عبر عن تجربة عبدالناصر وهو ابعد ما يكون عنها.. فإذا وصلنا إلى مبارك لا بأس من مشهد حاول فيه الرئيس الجديد وقتها أن يجامل هيكل فقدم له سيجارا وهو يعرف غرامه بتدخينه.. وضحك هيكل وهو يتفحص السيجار وأدرك مبارك أن سيجاره لم يعجب الرجل الخبير بهذا الشأن الكوبي فقال له مؤكدا: انه من نوعية روميو وجوليت ورد هيكل أن الشركة التي تنتج هذا النوع تنتج أكثر من ٣٥ نوعا منها النوع الذي يدخنه وقدم له واحدا منها وأدرك مبارك الفارق وقال ضاحكا: محمد بيه عايزنا نتعلم العز!!

فهل تعلم مبارك العز هو وولديه علاء وجمال والهانم سوزان.. من هيكل وولديه احمد وحسن وقد تشاركا مع أولاد الرئيس في البزنس.. وذلك نجد أننا أمام معادلة غريبة الشكل.. ظاهرها خلاف سياسي.. وباطنها شراكة بزنس.. فهل نصدق الأولى ونكذب الثانية أم نصدقهما معا؟



(١٦)

سر الحقيبة التي كان مبارك يحتضنها بحرص في مكتب وزير الحربية !



إذا سألت هيكل عن رأيه في السيسي فلن يجيبك بشكل قاطع مختصر، لكنه سوف يسرد عليك حكايته مع الرؤساء كيف كان يتصل بجمال عبد الناصر في أي وقت وكيف اختلف مع السادات وكيف نظر إلى مبارك ثم إلى مرسي.. ولا بأس أن يطير بك إلى الخارج فيكلمك عن رئيس فرنسا وعلاقته بهذا أو بذلك باختصار هو رجل مغرم بالماضي حيث كان توهجه.. ويعتز بعلاقات متعددة على أعلى المستويات التقى مع فلان وتعشى مع فلان.

وبعض الذين انتقدوا الأستاذ هيكل قالوا انه اصدر كتابه خريف الغضب بعد رحيل السادات.. وكتابه مبارك وزمانه (ج١ ج٢) بعد خلع مبارك.. وهو يعوض ذلك بشهادات ووثائق.. وفي كل الأحوال أنت أمام قيمة وقامة وربما يضيف في راوية ما يميزها عن أخرى.

دعوة على الإفطار

بعد أشهر من رئاسة مبارك للبلاد تلقى هيكل دعوة للإفطار وبالمصادفة كان يتواجد في مكتب هيكل أثناء تلقيه هذه الدعوة اثنين من الأصدقاء القدامى د. أسامة الباز ومنصور حسن وكليهما يعرف مبارك معرفة دقيقة.. أسامة اقرب المستشارين إليه ومنصور زامله وقت أن كان وزير دولة لشؤون الرئاسة في السنة الأخيرة لحكم السادات وكان مبارك نائبا للرئيس وبينهم علاقات ملتبسة كثرت حولها الأقوال والروايات وقال للاثنين: يظهر أنني سوف أقابل الرئيس الجديد بعد غد، وهذا رجل لم أره إلا في مصادفات على عكس كليكما، فكل منكما عمل معه عن قرب، وتعرف على جوانب شخصيته. وأضاف: لا أريد علاقة وثيقة مع رئيس دولة آخر في مصر، فقد أخذت نصيبي من هذه العلاقات مع جمال عبدالناصر من أول يوم إلى آخر يوم من دوره السياسي، ونفس الشيء طوال السنوات الأربع الأولى من رئاسة أنور السادات حتى اختلفنا في إدارته السياسية لحرب أكتوبر، وأنا لم أعد أريد لا صداقات ولا عداوات مع رئيس دولة جديد في

مصر، وما أريده هو أن أحتفظ بحقي في إبداء رأيي، ومن موقع الصحافي والكاتب - وليس أقل أو أكثر!!

والمعنى أنني لا أريد علاقة خاصة، ولا أسعى إلى صدام، وإنما أريد ومن بعيد علاقات عادية، وهذه فرصة أن أسألكما: كيف أتعامل مع صاحبكما في هذه الحدود، خصوصا أني كما قلت أعرف دواعي التزامه بسياسات لا أعتقد في صحتها، ومن ناحية ثانية فإني أراه أمامي شخصية أعقد بكثير من انطباع عام لدى الناس أشاع عنه نكتة البقرة الضاحكة بينما هو في ظني شخصية أكثر تعقيدا ورد أسامة الباز على الفور: بأني على صواب في طرح النكتة جانبا، لأنها بالفعل تبسيط لشخصية مركبة.

وأنا أعرف الباز جيدًا فقد، كان في هيئة مكتبي عندما كنت وزيرا للإعلام ووزيرا للخارجية، ثم اختار أن ينتقل معي إلى الأهرام بعد انتهاء مهمة وزارية محددة المدة والهدف، ثم ظل معي في الأهرام حتى تركته بعد الخلاف مع الرئيس السادات، فعاد إلى الخارجية مستشارا في مكتب وزيرها إسماعيل فهمي.. عملت معك -يواصل الباز- وعملت مع مبارك أيضا منذ كلفني الوزير إسماعيل فهمي لأكون مستشارا منتدبا من وزارة الخارجية مع مبارك وقت أن كان نائبا للرئيس خصوصا أن السادات راح يكلفه بمهام في الإقليم وفي اتصالاتنا الخارجية، وهكذا فإن لي معه الآن أكثر من اثني عشر عاما. وأضاف أسامة الباز: وإذن فأنا أعرفك وأعرفه.وأكرر أنه من الصواب أنك استبعدت تماما نكتة البقرة الضاحكة وإذا طلبت رأيي بعد ذلك فلدي أولا ملاحظتان في المنهج.

أولاهما: لا تتطرق في الحديث معه إلى أي قضية فكرية أو نظرية، فهو ببساطة يجد صعوبة في متابعة ذلك، لأنه أقرب إلى ما هو عملي منه إلى ما هو فكري أو نظري، وإذا جرت معه محاولة للتبسيط بالشرح، فإنه سوف يشرد من محدثه، ويتوقف عن المتابعة.!!

والثانية: أعرف أسلوبك في الحديث، تستطرد فيه أحيانا، ثم تـذهب إلى خـاطر يلوح أمامك، ثم تعود إلى سياقك الأصلي بعده. لكن مبارك لـن يتابعـك في ذلـك، كلمه في موضوع واحد في المرة الواحـدة، ولا تـدع الموضـوعات تتشـعب، وإلا فسوف تجد نفسك تتكلم بعيدا، وهو ليس معك.!!

وأضاف أسامة: تذكر أنه سمع كثيرا -أكثـر ممـا تتصـور- عنـك مـن الـرئيس السادات، وكثيرا ما سـألني: كيـف كانـت صـداقتك مـع الـرئيس السـادات بهـذا القرب، ثم كان خلافكما إلى هذا الحد؟!- وهذا موضوع أثار فضـوله، خصوصـا أنه كان يعرف عمق صداقتك مع الرئيس عبدالناصر، وكانت درجة هذه الصـداقة تبهره، وقد حكى لي أنه تابعك أثناء عملية تحريـك حـائط الصـواريخ إلى الجبهـة، عندما كنت وزيرا، وأنه أحس من كل ما تابعه، أنك تتصرف دون أن تنظـر وراءك، وهذا يعني أنك تقف على أرضية جامدة جدا (وتذكرت أن هذه هـي المـرة الثانيـة التي أسمع فيها نفس الوصف، مرة من مبارك مباشرة في الطريـق إلى مكتـب احمـد إسماعيل أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣)!! ومرة جديدة الآن نقلا عنه في ظروف لم أكن أعرف بها.

ثم واصل أسامة: ثانيا لى ملاحظتين في الأسلوب إضافيتين: هـو رجـل يعـرف قوة السلطة حيث تكون، وهذا مفتاح ثالث لشخصيته، ومفتاح آخـر، قدرتـه عـلى الاحتفاظ لنفسه بنواياه.. ولذلك أرجوك ألا تحاول استكشاف فكره، لأنك سوف تثير جذوره، والحذر غزيرة عنده مرتبطة بفهمه لقوة السلطة.

والتفت ناحية منصور حسن وكان يتابع الحديث باهتمام وبابتسامة زاد اتساعها عندما جاء الدور عليه أسأله كان رد منصور حسن إنه لن يقول لي شيئا، وإنما يـؤثر أن يتركني أكتشف بنفسي.

وأضاف منصور حسن: كـل مـا سـوف تسـمعه لـن يهيئـك لمـا سـوف تـراه، والأفضل أن ترى بنفسك وبعدها فأنا الذي سوف يسمع منك.!

أهلا بالجائع

ذهب هيكل للقاء مبارك.. ونتركه يحكي تفاصيل اللقاء بأسلوبه حيث قال: وصباح يوم موعدنا- السبت ٥ ديسمبر- وصلت إلى بيته في الموعد المحدد- وعبرت باب البيت في ردهة إلى صالون في صحبة ضابط برتبة عميد، ولم أنتظر أكثر من دقيقة في الصالون، حتى دخل مبارك مادا يده ومرحبا بابتسامة طيبة وملامح تعكس حيوية شباب وطاقة.

وقال على الفور وهو مازال واقفا: لابد أنك جائع فأنا أعرف أنك تستيقظ مبكرا.

وقلت: بصراحة -سيادة الرئيس- أفطرت فعلا، ولكني سوف أجلس معك وأنت تتناول إفطارك، وضحك وقال: الحقيقة أني أيضا أكلت شيئا خفيفا، وقلت له: إذن فلا داعي لإضاعة وقت على مائدة الإفطار، فلدي الكثير أريد أن أسمعه منك، وأبدى موافقته بعد تكرار سؤاله عما إذا كنت لا أريد أن أكل أي شيء مما جهزوه لنا، وكررت الشكر، وقال: إذن نطلب فنجانين من القهوة ونجلس.

قدم لي الرئيس حسني مبارك دون أن يقصد، ودون أن أقصد أيضا -مفتاحا لم أتوقعه من مفاتيح شخصيته، ولسوء الحظ فإن ما قدمه لي فات علي في وقته، مع أنه استوقفني فعلقت عليه!!

قلت للرئيس مبارك فور أن جلسنا: أني فكرت بالأمس أن أطلب مكتبه، راجيا تغيير موعدنا، لأني قرأت في الصحف عن مشاورات يجريها لتعديل وزاري أعلن عنه، وقد خطر لي أن موعدي معه اليوم قد يحدث التباسا وخلطا لا ضرورة له، بين لقاءاته في إطار التعديل الوزاري، وبين لقاءاته العادية الأخرى وضمنها موعدي معه، وأول الضحايا في هذا الخلط والالتباس -سوف يكون فريق الصحافيين الذين يغطون أخبار رئاسة الجمهورية.

ورد مبارك وهو يبتسم بومضة شقاوة في عينيه: وماذا يضايقك في ذلك.. اتركهم يغلطوا!!!

ولم يتضح لي قصده، وسألته وجاء رده بما لم أفهمه في البداية حين قال واصفا الصحافيين: دول عالم لبط.. وأبديت أني لم أفهم المعنى، واستنكر بطء فهمي فقال: لا تعرف معنى لبط - هل أنت خواجة؟! وأكدت له أني أبعد ما أكون، وراح يشرح معنى لبط ثم واصل شرحه: اتركهم يغلطوا حتى يتأكد الناس أنهم لا يعرفون شيئا. ومرة ثانية، لم يتضح لي قصده، ومرة ثانية سألته ورد، وعلى شفتيه ما بدا لي ابتسامة من نوع ما: إن الصحافيين يدعون أنهم يعرفون كل شيء وأنهم فالحين قوي والأفضل أن ينكشفوا أمام الناس على حقيقتهم وأنهم هجاصين لا يعرفون شيئا.

قلت: ولكن سيادة الرئيس هذه صحافتك، أقصد صحافة البلد ومن المفيد أن تحتفظ لها بمصداقيتها، ولا بأس هنا من جهد لإبقاء الصحافيين على صلة بالأخبار ومصادرها، ورد بقوله د. فؤاد (يقصد رئيس وزارته وقتها فؤاد محيي الدين يقابل الصحافيين باستمرار ويطلعهم على الحقائق، لكن بلا فائدة، هم يخبطوا على مزاجهم ولا يسألون أحدا!.. وقلت: إنه ليس هناك صحافي يحترم نفسه تصل إليه أخبار حقيقية ويتردد في نشرها.

وظل على رأيه: المسألة أنهم لا ينشرون، إما أن لهم مصالح خاصة، وإما أنهم لا يفهمون، وأحس أني لم اقتنع، وتابع بما ظن أنه مجاملة، قائلا: محمد بيه أنت تقيس الصحافيين الحاليين بتجربة زمن مضى، ليس هناك صحافي الآن له علاقة خاصة بالرئيس وكانت الإشارة واضحة. وقلت إن جمال عبدالناصر كان متصلا بكثيرين من الصحافيين، ثم إن هذا لا يمنع قيام صداقة مع أحدهم بالذات، ولكن المهم أن يكون أصبع رئيس الدولة على نبض الرأي العام طول الوقت.

وانتقل والدهشة عندي تزيد قائلا: على فكرة نحن كنا نتصور أنك تجلس على

حجر الرئيس جمال لكنه ظهر أن الرئيس جمال كان هو الذي يجلس على حجرك، واستطرد: لم أكن أعرف أن العلاقة بينكما إلى هذا الحد حتى شرحها لي (أشار إلى اسم الأستاذ أنيس منصور) واستهولت ما سمعت، وظهر ذلك على ملامحي، وربما في نبرة صوتي حين قلت له:

سيادة الرئيس أرجوك لا تكرر مثل هذا الكلام أمام أحد، ولا حتى أمام نفسك، أولا لأنه ليس صحيحا، وثانيا لأنه يسيء إلى رجل كان وسوف يظل في اعتقادي واعتقاد كثيرين في مصر وفي الإقليم وفي العالم قائدا ورمزا لمرحلة مهمة في التاريخ العربي وأضفت: فيما يتعلق بي فقد كان يمكن أن يرضي أوهامي أنني كنت كل شيء وقت جمال عبدالناصر ولكن ذلك غير صحيح، لأن جمال عبدالناصر هو جمال عبدالناصر وقد أسعدني ولا يزال أني كنت صديقا له وقريبا منه ومتابعا لدوره وهو يصنع للأمة كلها تاريخا يمثل على الأقل لحظة عز وقوة لها في عالمها وعصرها، وأنا أقول ذلك بعيون مفتوحة، مدركا أن تجربة عبدالناصر كانت إنسانية قابلة للخطأ أحيانا كما للصواب، كما أنها ليست أسطورية معصوبة بالقداسة لأن ذلك غير إنساني وهذه هي الحقيقة.

وقاطعني: أنا أعرف كم كان الرئيس جمال شخصية عظيمة، وما قلته لك كان كلام (أعاد الإشارة إلى أسم أنيس منصور)! وهو لم يقله لي فقط وإنما نشره أيضا أما أنا فلم أقل من عندي إلا ما قلته أنت في وصف علاقتك به، من أنك كنت صديقا له وقريبا منه هذا ما قصدته، وقصدت أنك كنت تعرف كل شئ بينما الصحافيون الآن لا يعرفون.

وبالطبع استمع هيكل وتأمل ثم قال لمبارك إن علاقته بالصحافيين في عهده من اختياره، وله أن يوصفها كما يرى لكني أتمنى لو استطاع أن يسهل على الصحافة أن تعرف أكثر، لأن تلك مصلحة الجميع، وأولهم هو شخصيا.

وظل على رأيه لم يغيره، وأكثر من ذلك فإن رده على كان بقوله: انه إذا عرف

الصحافيون أكثر فسوف يتلاعبون به.. وقلت في شبه احتجاج: سيادة الرئيس أنت تسيء الظن بإعلامك، وأنا أعرف بعضا من شيوخ المهنة وشبابها، وأثق أنهم لن يتلاعبوا في أخبار فضلا عن أسرار وشرحت لمحات عن مهنة الصحافة في مصر وتاريخها ورجالها، ومع أني أسهبت إلى حد ما في الحديث عن تاريخ الصحافة المصرية، فقد أحسست أنه يتابع، وكانت له عدة أسئلة واستفسارات عن الأشخاص وعن الوقائع ثم آثرت أن أنتقل من هذا الموضوع إلى غيره مما يعنيني. في أول لقاء مع رئيس الدولة الجديد في مصر وفى ظروف عاصفة يندر أن يكون لها مثيل، هبت على مصر نارا ودما.

مهمة استكشاف

وكذلك عدت بالحديث إلى مدخله الطبيعي فقلت للرئيس أني متشوق إلى سماعه.

ورد قائلا: ولكن أنا أريد أن أسمعك هذه المرة وأن أسألك، وفي المرة القادمة أنت تسألني -أضاف بتواضع أنه يعتبر نفسه هذه الفترة في مهمة استكشاف يتعرف فيها على الجو الذي يتعين عليه العمل فيه! وأضاف: طلبت منك أن تتكلم يوم جئت إلى قصر العروبة بعد الإفراج عنكم، ولكنك لم تتكلم، وقلت:أني اعتذرت لأن اتفاقنا قبل المجيء إلى عنده كان أن يتكلم واحد منا بالنيابة عنا جميعا، وقد اخترنا فؤاد سراج الدين لأنه أكبرنا سنا، وأسبقنا جميعا إلى ممارسة العمل السياسي.

وقاطعني بسؤال: هل عرفت سراج الدين وأنتم في طره؟! -وقلت: أني أعرفه من قبل ثورة ١٩٥٢، وحين كان سكرتيرا عاما لحزب الوفد ووزيرا للداخلية، وقتها (في أواخر العشرينيات من عمري) كنت رئيسا لتحرير آخر ساعة ومديرا لتحرير أخبار اليوم وعلى علاقة بمعظم الساسة في مصر، وكان فؤاد سراج الدين من أبرزهم، ولم تتغير علاقتي به أو بهم بل توثقت مع مرور الأيام، وحتى بعد ثورة

يوليو.

وقاطعني مبارك بسؤال: هل كان الرئيس عبدالناصر يعرف ذلك ويقبل به؟! قلت له: جمال عبدالناصر كان يحب مصطفى النحاس مثلا (رئيس الوفد) ويحترمه، وكان يرى مزايا كثيرة لفؤاد سراج الدين ويعتبره سياسيا ذكيا مجربا، حتى وإن اختلف معه.

توقف مبارك للحظة مترددا ثم سأل: ولكن ألم يحدث أن الرئيس جمال اعتقل النحاس باشا؟.

وقلت: بالمعنى الحقيقي لم يعتقله، وإنما أصدر قرارا بتحديد إقامته في بيته، وكان ذلك سنة ١٩٥٥، وفي الظروف الخطرة على الطريق إلى حرب السويس، وكانت المعلومات وقتها أن الانكليز يبحثون عن حكومة بديلة لنظام ٢٣ يوليو، وخشي جمال عبدالناصر أن يقوم أحد بتوريط النحاس باشا في حديث عن حكومة بديلة، خصوصا وأن المعلومات وقتها كانت أن تقترح إما النحاس باشا وإما اللواء محمد نجيب لرئاسة الحكومة، فالمخابرات البريطانية أرادت حكومة تستطيع الاتفاق معها، وأظنه أراد حماية النحاس باشا أكثر مما أراد الإساءة إليه، وأنا أعرف أن الأسلوب غريب فلا أحد يستطيع حماية رجل يحرص عليه بتحديد إقامته في بيته، لكن جمال عبدالناصر وفي الكلام معي أشار إلى هؤلاء الذين ورطوا النحاس باشا في حادثة ٤ فبراير ١٩٤٢ وأتذكر أني وقتها استأذنته أن أذهب قبل تطبيق القرار بتحديد إقامة النحاس باشا وأشرح له دواعيه، وأن عبدالناصر وافق وذهبت إلى مقابلة النحاس باشا بالفعل.

وكنت ومازلت حتى الآن على خلاف مع الأسلوب، رغم تفهمي لدوافعه وقاطعني مبارك: تريد أن تقول أن الرئيس عبدالناصر كان يحب النحاس؟، واستطرد: لا مؤاخدة الرئيس أنور قال لي إن عبدالناصر لم يكن يحب احداً.

وابتسمت وقلت: هذا رأي الرئيس السادات -بأثر رجعي كما يبدو لي لأنه هـو من وصفه في كتاب بأكمله بالقلب الذي يتسع لحب كل الناس وللإنسانية كافة.

وقاطعني: محمد بيه.. أنا أحببت الرئيس جمال لا تنسى أني أسميت أحد أبنـائي على اسمه.

وقلت: وكذلك فعل الرئيس السادات.

وسألني: هل أسميت أحدا من أبنائك باسم الرئيس جمال؟.

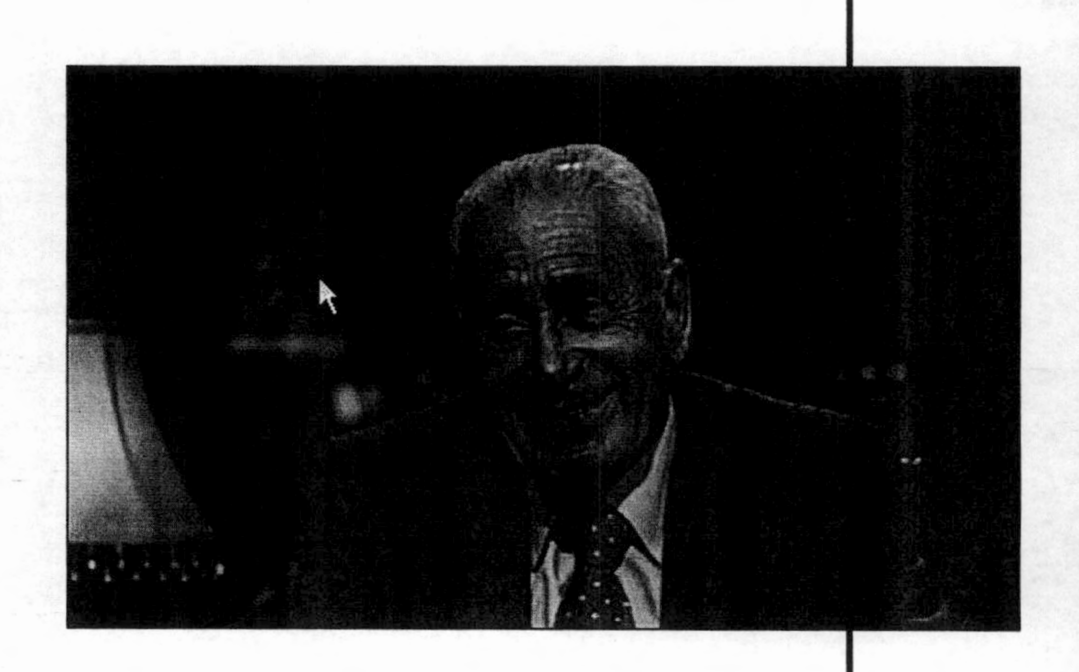
وأجبت بالنفي بل اخترت لأبنائي أسماء عربيـة تقليديـة وسـهلة: عـلي وأحمـد وحسن.

وسألني الرئيس مبارك: حيرتني علاقة الرئيسـين أنـور وجمـال -لمـاذا اختلفـا معا- أنت كنت شاهدا على العلاقات بينهما وكنت قريبا من الاثنـين حتـى وقعـت الواقعة بينك وبين الرئيس أنور.

وأجاب هيكل كشاهد عيان وكأنه يجلس أمام محقق اسمه حسني مبارك.



ميتران الفرنسي ومخابراته والليبي جلود.. يعرفون .. سر قائد الضربة الجوية؟



عندما التقى هيكل مع مبارك بعد أن أصبح رئيساً لمصر وبعد أشهر قليلة فقط سأله عن سر الخلاف بين عبدالناصر والسادات وأبدى هيكل دهشته من هذا السؤال لأن السادات كان وراء عبدالناصر حتى اختاره نائبا ثم رحل وتولى الرئاسة ثم بدأ يكشف عن اتجاهات مختلفة بعد حرب أكتوبر.. ولكل رئيس بالتأكيد أسلوبه وهذا ما صور للناس هذه الاختلافات.

كانت أسئلة مبارك كثيرة جدا.. وكأنه أراد أن يعتصر هيكل ويأخذ منه جرعة ثقافية وسياسية خاصة انه لا يحب القراءة ووجع الدماغ، لكنه للأمانة اعترف بأنه قرأ التوجيه الاستراتيجي الذي كتبه هيكل وتم توزيعه على الجنود والضباط لتحديد أهداف حرب أكتوبر.. لكن أبعد من ذلك مفيش.. حتى وصل الحديث إلى مقالات بصراحة وقال مبارك :

لاتزعل يا محمد بيه، إذا قلت إني لم أكن أقرأ مقالاتك رغم أنني أسمع أن كثيرين يقرأونها ولا أخفي عليك أني كنت أمنع ضابط الطيران من قراءتها.

وقال هيكل بعفوية : ياه.. لعل السبب خير.

أجاب مبارك : ما كان يحدث أن مقالك ينشر في الأهرام يوم الجمعة، ثم يجيء الضباط يوم السبت وقد قرأوه، وكلهم متحفزون لمناقشته، وكثيرا ما كانوا يتخانقون وأنا لا أريد في السلاح خناقات ولا سياسة.. أما عني أنا، فقد كنت أقرأ مقالاتك لأني عندما حاولت ــ لم أفهم ماذا تريد أن تقول في نهاية المقال وبصراحة على رأيك أضافها وهو ما زال يبتسم مقالك دائما ينتهي دون أن نرسو على «بر»، قالها بالانجليزية Conclusion ــ ولا نعرف بعد نتيجة.

ورد هيكل : سيادة الرئيس هناك مدرسة في الكتابة ترى أن تقديم واجبها معلومات صحيحة، واجتهادات في التحليل واسعة، واختيارات في المسالك المتاحة للحل مفتوحة، ثم يكون للقارئ أن يختار ما يقنعه، بمعنى أنني لا أريد أن يكون ما أكتبه معلبات وإنما أفضل أن أترك للقارئ حريته بمعنى أن Conclusion مقفولا على نتائج

تبدأ علاقته بالمقال بعد أن ينتهي من قراءته، وليس حين يهم بقراءته لأن هدفي تحريضه على التفكير وهو يقرأ، ورجائي أن يصل بتفكيره إلى حيث يقتنع.

وقال مبارك : يا عم ما الفائدة إذن أن يقرأ الناس لكاتب كبير؟! لابد أن يرسيهم على بر. وقلت : أنا أريد للقارئ أن يرسو على بره هو وليس على بري أنا.

وعلق بابتسامة مرة أخرى قائلا : يعني عاوز تدوخ الناس يا أخي قل لهم وريحهم.

واختصرت قائلا: على أية حال هناك مدارس متعددة في الكتابة.

وعاد مبارك؛ إلى سؤاله عن العلاقات بين الرئيس السادات وبيني فقال قالها أيضا Love-Hate Complex الغريب جدا أني أحسست أن علاقته بك كانت بالانكليزية (عقدة محبة وكراهية في نفس الوقت) وهو بالحق كان يتحدث كثيرا عنك بالتقدير، لكنه يأخذ عليك أنك تريد أن تفرض عليه رأيك قلت مستغربا : سيادة الرئيس .. كيف يمكن لصحافي أن يفرض رأيه على رئيس دولة؟!.. رئيس الدولة عنده السلطة كلها ــ وأدواتها تحت يده ــ فكيف أستطيع أنا أو غيري من الكتاب والصحافيين أن نفرض شيئا عليه؟! .. ربما يفرض عليه قائد جيش لديه سلاح، أو رئيس حزب لديه تنظيم، أو وزير داخلية عنده بوليس، أما الصحافي فلا يملك غير عرض وجهة نظره ولا أكثر، وهو يضعها أمام الرأي العام إما أن يأخذ بها أحد أو يعرض عنها، فتلك مسألة أخرى خارج قدرة أي صحافي!!.. بالعكس هو الصحيح فيما أظن، فرئيس الدولة هو في العادة من يريد فرض رأيه على الصحافي، وهنا المشكلة.

واستطردت بما يجعل موقفي واضحا أمامه: فيما يتعلق بموقفي مع الرئيس السادات لم أقتنع بما اتخذ من سياسات أثناء أكتوبر وبعدها عندما جاء هنري كيسنجر وأقنع السادات وتصرف الرئيس على أساس أن الولايات المتحدة تملك ٩٩٪ من أوراق حل أزمة الشرق الأوسط، وأن هنري كيسنجر هو من يمسك

بالقرار السياسي الأميركي .. وكان لي رأي مختلف، وقد تمسكت به وفى ذهني أن الرئيس الأميركي بنفسه أو بوزير خارجيته غير قادر على الفعل لأسباب كثيرة، حتى لو أراد، وفي الأوضاع الحالية فإن الإدارة الأميركية في شلل بسبب ورطة الرئيس في فضيحة ووترغيت.. ومن جانبي لم أستطع غير التحفظ على هذه السياسة الجديدة، وقد عبرت عن أفكاري في أكثر من عشرة مقالات ضايقت الرئيس السادات واعتبر أني بكتابتها أعرقل توجهاته، ومن هنا كان ضيقه.

وفي هذا الموضع من الحديث قلت للرئيس مبارك إن ذلك الخلاف قصة طويلة، ولا أريد أن أضيع وقته فيها، لكنه طلب أن يسمع، واستدعى أحد سكرتاريته وأمره بتأجيل موعد كان لديه في الساعة العاشرة والنصف.

فلاش باك

يتذكر هيكل ويقول: بدأت متابعتي للرئيس حسني مبارك من بعيد بالمسافة، من قريب بالاهتمام- عندما ظهر على الساحة العامة لأول مرة قائدا لسلاح الطيران المصري في الظروف الصعبة التي تعاقبت بعد أحداث يونيو سنة ١٩٦٧، ولم يخطر ببالي وقتها لحظة واحدة أن هذا الرجل سوف يحكم مصر ثلاثين سنة، ويفكر في توريث حكمها بعد لابنه.

وعندما أصبح مبارك رئيسا بعد اغتيال السادات في أكتوبر ١٩٨١، فقد رحت حتى ونحن لانزال بعد في سجن طره (ضمن اعتقالات سبتمبر الشهيرة سنة ١٩٨١)، اذكر نفسي وغيري بالمثل الفرنسي الشائع، الذي استخدمه الكاتب الفرنسي الشهير أندريه موروا عنوانا لإحدى رواياته، وهو أن غير المتوقع يحدث دائما وللأمانة فقد سمعت الفريق محمد فوزي (وزير الدفاع) يقدم لمبارك عند جمال عبدالناصر عندما رشحه له رئيسا للأركان في سلاح الطيران أثناء حرب الاستنزاف، وكانت شهادة الفريق محمد فوزي تزكية لما رشح له، ثم كان أن أصبح الرجل بعد أن اختاره الرئيس السادات قائدا للسلاح- موضع اهتمام عام

وواسع، لأن سلاح الطيران وقتها كان يجتاز عقبة إعادة تنظيم مرهقة، وكانت هذه العملية تجرى بالتوافق مع قيام السلاح بدوره في حرب أكتوبر.

صفقة الميراج

لا يتوقف هيكل عن جمع المعلومات من الداخل والخارج ويكفي أن يلتقط طرف الخيط لكي يصل إلى نهايته وهذا ما فعله مع مبارك فقد اكتشف أثناء رحلة إلى فرنسا معلومات عن صفقة ميراج كانت ليبيا قد أشترتها لحساب مصر وانتدبت بعض الضباط المصريين وأصدرت لهم جوازات سفر ليبية لإنجاز هذه المهمة وهيكل علم ذلك من أحد قادة المخابرات الفرنسية كان قد عمل مع مبارك في مهمة أخرى تتعلق بالعلاقات الفرنسية مع عدة دول أفريقية في السبعينيات.

وتأكد من هذه المعلومات من عبدالسلام جلود الرجل الثاني بعد العقيد القذافي وقد التقاه في باريس بالصدفة في صالة فندق بريستول ٢٠٠٨.. واخبره أن قيمة الصفقة كانت ٤ مليارات دولار.

أما رجل المخابرات الفرنسية ميراتش فقد ابدى دهشته من وصول مبارك إلى الرئاسة وقال لهيكل أنها أقدار يا عزيزي في تلميح يعني الكثير.. ومع ذلك يعود هيكل في افتتاحية كتابه مبارك وزمانه.. لكي يتوقف أمام مشهد محاكمة مبارك بعد ثورة يناير ضده وفي ذلك قال:

ومع أن مبارك وصل إلى قاعة المحكمة ممددا على سرير طبي دخل به إلى زنزانة حديدية فإن التهم التي وجهت إليه لم تكن هي التهم التي يلزم توجيهها، بل لعلها الأخيرة فيما يمكن أن يوجه إلى رئيس دولة ثار شعبه عليه وأسقط حكمه وأزاحه.

والمنطق في محاكمة أي رئيس دولة أن تكون محاكمته على التصرفات التي أخل فيها بالتزامه الوطني والسياسي والأخلاقي، وأساء بها إلى شعبه، فتلك هي التهم التي أدت للثورة عليه.

أي أن محاكمة رئيس الدولة أي رئيس وأي دولة يجب أن تكون سياسية تثبت عليه أو تنفى عنه مسؤولية الإخلال بعهده ووعده وشرعيته، ما استوجب الثورة عليه، أما بدون ذلك فإن اختصار التهم في التصدي للمظاهرات قلب للأوضاع يستعجل الخاتمة قبل المقدمة، والنتائج قبل الأسباب، ذلك أنه إذا لم يظهر خروج مبارك على العهد والوعد والشرعية، إذن فقد كان تصديه للمظاهرات ممارسة لسلطته في استعمال الوسائل الكفيلة بحفظ الأمن العام للناس، والمحافظة على النظام العام للدولة، وعليه يصبح التجاوز في إصدار الأوامر أو تنفيذها رغبة في حسم سريع، ربما تغفره ضرورات أكبر منه، أو في أسوأ الأحوال تزيد في استعمال السلطة قد تتشفع له مشروعية مقاصده!! وكذلك فإنه بعد المحاكمة السياسية- وليس قبلها- يتسع المجال للمحاكمة الجنائية، ومعها القيد والقفص!!

بمعنى أن المحاكمة السياسية هي الأساس الضروري للمحاكمة الجنائية لرئيس الدولة، لأنها التصديق القانوني على موجبات الثورة ضده، وحينئذ يصبح أمره بإطلاق النار على المتظاهرين جريمة يكون تكييفها القانوني إصراره على استمرار عدوانه على الحق العام، وإصراره على استمرار خرقه المستبد لعهده الدستوري مع الأمة!! ومن هذا المنطلق فإنني لم أستعمل في الإشارة إلى مبارك أوصافا مثل المخلوع أو المطرود أو حتى السابق وإنما استعملت عليه طول سياق هذه الصفحات ما هو عادي من الإشارات.

وعلى أي حال فإنه من حق من يشاء- إذا شاء- أن ينزع إشارات استعملتها بمنطق ما قدمت، وأن يضع بدلها المخلوع والمطرود أو السابق!!

هنا أعود إلى تعبير مبارك التلقائي الذي جاء على لسانه في أول لقاء جمعه بمحمد حسنين هيكل بعد أن أصبح رئيسا: بصراحة يا محمد بيه أنت أسلوبك يدوخ القارئ.

اسمع يا سيدي

يشرح هيكل للقارئ في كتابه مبارك وزمانه.. من المنصة إلى الميدان.. لماذا

فكر في كتابته فيقول :

بدأت التفكير في هذه الصفحات باعتبارها مقدمة لكتاب تصورت أن أجمع داخل غلافه مجمل علاقتي بالرئيس حسن مبارك وقد كانت علاقة محدودة وفاترة، وفي كثير من الأحيان مشدودة ومتوترة، وربما كان أكثر ما فيها- طولا وعرضا- لقاء واحد تواصل لست ساعات كاملة، ما بين الثامنة صباحا إلى الثانية بعد الظهر يوم السبت ٥ ديسمبر ١٩٨١ - أي بعد شهرين من بداية رئاسته- وأما الباقي فكان لقاءات عابرة، وأحاديث معظمها على التلفون، وكلها دون استثناء بمبادرة طيبة منه. لكن الواقع أن الحوار بيننا لم ينقطع، وكان صعبا أن ينقطع بطبائع الأمور طالما ظل الرجل مسيطرا على مصر، وظللت من جانبي مهتما بالشأن الجاري فيها، وعليه فقد كتبت وتحدثت عن سياساته وتصرفاته، كما أنه من جانبه رد بالتصريح أو بالتلميح، وبلسانه أو بلسان من اختار للتعبير عنه أو تطوع دون وكالة.

وقد تراكم من ذلك كثير مكتوب مطبوع، أو مرئي مسموع، وفكرت أن أجعله سجلا وافيا- بقدر الإمكان- لحوارات وطن في زمن، ولعلاقة صحافي مع حاكم ومع سلطة في الوطن وفي الزمن!!

لكني رحت أسأل نفسي عن الهدف من جمع هذا السجل، ثم ما هو النفع العام بعد جمعه؟!!

وبداية فقد ورد على بالي أنه تسجيل ما جرى في حد ذاته قد يكون وسيلة إلى فهم مرحلة من التاريخ المصري المعاصر مازالت تعيش فينا، ومازلنا نعيش فيها!!

ثم ورد على بالي أن كثيرا من قضايا ما جرى مازالت مطروحة للحوار، وبالتالي فالتسجيل سند للوصول والاستمرار.

كما ورد على بالي أن بعض الملامح والإشارات في سياق ذلك الحوار ربما تكون مفيدة في التعرف أكثر على لغز رجل حكم مصر، وأمسك بالقمة فيها ثلاثين

سنة لم يتزحزح، وتغيرت فيها الدنيا، وظل هو حيث هو، لا يتأثر.

ماذا يعرف غيري حقيقة وأكيد عن الرجل، وقد رأيت- ورأوا- صورا له من مواقع وزوايا بلا عدد، لكنها جميعا لم تكن كافية لتؤكد لنا اقتناعا بالرجل، ولا حتى انطباعا يسهل الاطمئنان إليه والتعرف عليه أو الثقة في قراره.

وإذا أخذنا الصورة الأولى للرجل كما شاعت أول ظهوره، وهي تشبهه بالبقرة الضاحكة La vache qui rit إذن فكيف استطاعت البقرة الضاحكة أن تحكم مصر ثلاثين سنة؟!!

وإذا أخذنا الصورة الأكبر بهاء، والتي قدمت الرجل إلى الساحة المصرية والعربية بعد حرب أكتوبر باعتباره قائدا لما أطلق عليه وصف الضربة الجوية- إذن فكيف تنازلت الأسطورة إلى تلك الصورة التي رأيناها في المشهد الأخير له على الساحة، بظهوره ممددا على سرير طبي وراء جدران قفص في محكمة جنايات مصرية، مبالغا في إظهار ضعفه، يرخى جفنه بالوهن، ثم يعود إلى فتحه مرة ثانية يختلس نظرة بطرف عين إلى ما يجرى من حوله، ناسيا- أنه حتى الوهن له كبرياء من نوع ما، لأن إنسانية الإنسان ملك له في جميع أحواله، واحترامه لهذه الإنسانية حق لا تستطيع سلطة أن تنزعه منه- إلا إذا تنازل عنها بالهوان، والوهن مختلف عن الهوان!!

وإذا أخذنا صورة الرجل كما حاول بنفسه وصف عصره، زاعما أنه زمن الإنجاز الأعظم في التاريخ المصري منذ محمد علي- إذن كيف يمكن تفسير الأحوال التي ترك مصر عليها، وهي أحوال تفريط وانفراط للموارد والرجال، وتجريف كامل للثقافة والفكر، حتى إنه حين أراد أن ينفي عزمه على توريث حكمه لابنه، رد بحدة على أحد سائليه تواصل معه من قديم، قائلا بالنص تقريبا: يا راجل حرام عليك ماذا أورث ابني أورثه خرابة؟!.

وبأدب السامع الذي أدهشته العبارة فلم يسأله : ومنذ متى تحولت مصر إلى خرابة والعياذ بالله!.

ولماذا قبل أن يتولى حكمها وهي على هذه الحال وإذا كان الأمر كذلك فماذا فعل لإعادة تعميرها طوال ٣٠ سنة وهذه فترة تزيد مرتين عما أخذته بلاد مثل الصين والهند لكي تنهض وتتقدم ثم إذا كان قد حقق ما لم يستطع غيره منذ عصر محمد علي- إذن فأين يذهب هذا الإنجاز؟!.. وكيف تحول تحت نظامه إلى خرابة؟! .. ثم لماذا كان هذا الجهد كله من أجل توريث خرابة خصوصا أن الإلحاح عليه كان حقل الألغام الذي تفجر في وسطه نظام الأب حطاما وركاما، ومازال يتساقط حتى هذه اللحظة بعد قرابة سنة من بداية تصدعه وتهاويه!!

وكيف؟!.. وكيف؟!.. وكيف؟!.

وهنا فإن التساؤل لا يعود عن الصور، وإنما ينتقل إلى البحث عن الرجل ذاته!

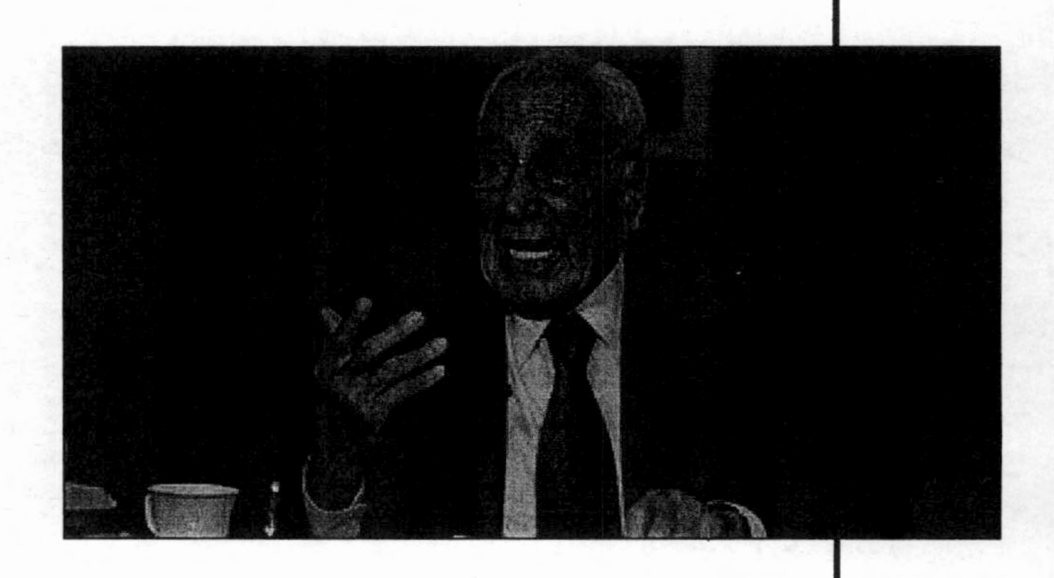
وعلى امتداد هذه الصفحات فقد حاولت البحث عن الرجل ذاته قبل النظر في ألبوم صوره، وعدت إلى ملفاتي وأوراقي، ومذكراتي وذكرياتي عن حسن مبارك ثم وقع بمحض مصادفة أنني لمحت قصاصة من صحيفة لا أعرف الآن بالتحديد ما دعاني إلى الاحتفاظ بها!

فما هي القصاصة وما هي الصحيفة وماذا فيها عن مبارك وقد أنعش ذاكرة هيكل بها بعد هذه السنوات.



(١٨)

الواشنطن بوست تكشف في ورقة عمرها أكثر من ٣٠ سنة : «مبارك لا يعرفه أحد»!



عاد إلى أرشيفه الضخم الكبير وأخذ يفتش فيه واستخدم ذاكرته النشطة العفية.. والتقط قصاصة من ورق الجرائد رأى أنها تضع بعض الملامح في الصورة التي حاول أن يرسمها لمبارك بقدر المستطاع، ورغم أن عمرها ٣٠ سنة إلا أنه يذكرها جيدا وقد عاد اليها سابقا وهذا هو وقتها.. وهنا يقول هيكل: كانت القصاصة مقالا منشورا في جريدة واشنطن بوست في يوم ٧ أكتوبر ١٩٨١، وفي بداية المقال جملة توقفت عندها، وفي الغالب بنفس الشعور الذي جعلني احتفظ بها قبل ثلاثين سنة!.. والجملة تبدأ بنقل أن الأخبار من القاهرة بعد اغتيال الرئيس السادات تشير إلى أن الرجل الذي سوف يخلفه على رئاسة مصر هو نائبه حسني مبارك ثم تجيء جملة تقول بالنص : إنه حتى هؤلاء الذين يقال إنهم يعرفون مبارك هم في الحقيقة لا يعرفون عنه شيئاً.

ويوضح هيكل: والآن بعد ثلاثين سنة وقفت أمام هذه الجملة، وشيء ما في مكنونها يوحي بأنها مفتاح المقال كله ، لأننا بالفعل أمام رجل رأيناه كل يوم وكل ساعة، وسمعناه صباح مساء، واستعرضنا الملايين من صوره على امتداد ثلاثين سنة، لكننا لم نكن نعرفه ولا نزال!!

وهي نفسها ثلاثون سنة من المتعثرات والتحولات في الإقليم وفي العالم، قادنا فيها رجل لا نعرفه إلى مصائر لا نعرفها- فإن زمان هذا الرجل يصعب تجاوزه أو القفز عليه مهما كانت الأسباب، مع أن هناك أسبابا عديدة أبرزها أن التاريخ لم ينته بعد كما كتب بعض المتفائلين من الفلاسفة الجدد!!

ولقد سألت نفسي كثيرا عن السبب الذي دعا الجميع إلى هذا التقصير في البحث عن الرجل ذاته، وكيف تراكم التقصير في التعرف عليه ثلاثين سنة؟!

وكان التفسير متعدد الأسباب وكلها منطقية، لكنها تاهت في الزحام: بعض الناس تلقفوه حين وجدوه، ولم يتوقفوا أمام شخصيته وهي تقفز من المنصة إلى الرئاسة، فقد أخذهم هول ما وقع على المنصة، وتمسكوا بمن بقي بعده!.

ويستطرد هيكل: وبعضهم أخذ الظاهر من الرئيس الجديد واستخف بما رأى، واعتبره وضعا مؤقتا لعبور أزمة، وبالتالي فالإطالة في تحليله إضاعة للوقت.. وبعضهم خصوصا من أجيال الشباب نشأوا وشبوا ولم يعرفوا رئيساً غيره، وبالتالي فإن أجيالا تعودت عليه، وتأقلمت بالتطبيع على وجوده.

وبعضهم رغبة في راحة البال تجاهل السؤال عن الرجل، واستعاض عنه بقبول جواب معبأ يصنعه إعلان يأتمر بالغلبة - غلبة السلطة - أو غلبة الثروة في مصر، وكان لسوء الحظ إعلاما فقد تأثيره، وإن بقي هديره!!

ولقد راعني- وأظنه راع غيري- أن كثيرين من هؤلاء الذين عملوا معه ومباشرة، كانوا أوائل من انقلبوا عليه، والمعنى هنا أن الرجل لم يرتبط بعلاقات إنسانية عميقة مع محيطه، ولا تواصل بولاءات متبادلة أو حميمة مع الذين اقتربوا منه وخالطوه، وإنما كانت علاقاته بهذا المحيط- على الأرجح- خدوشا على السطح لا يتبقى منها غير ندوب على الجلد تشحب وتزول بعد أيام أو أسابيع لا أكثر!.

ونتوقف أمام عبارة وردت على لسان هيكل وقال فيها : أنه لم يفكر أو يسعى للقاء أحد ممن عملوا مع مبارك من قريب وعايشوه فتلك مهمة غيري إذا حاول كتابة سيرته أو تتبع دوره.

ومع هذا سنجده يستشهد بأسماء كانت قريبة من الرجل في وقت ما.. لأنها أصبحت في قلب الحدث ولا يمكن ان تنفصل عنه وسنرى بعد ذلك كيف أن هيكل نفسه تحدث في كل شيء يخص مبارك.. إلا ما يخص أولاده هو وعلاقة البزنس التي ربطتهما بجمال وعلاء مبارك.

ولكنه يسأل ويجيب: مبارك استمر كل هذا الوقت لأنه محظوظ وبالتأكيد يتحمل الشعب المصري المسؤولية بالصبر والصمت وإظهار السأم والملل أحيانا

حتى جاءت ثورة ٢٥ يناير عندما لم يعد الصبر قادراً ولا الصمت ممكنا ولا الملل كافيا.. وقبل الثورة بأيام قليلة (٢٥ يوما بالتحديد).. ظهر هيكل على قناة الجزيرة القطرية في حديث أجراه مع الإعلامي محمد كريشان وقال هيكل فيه بلغة الواثق جدا: ونحن أمام أوضاع وصلت تقريبا إلى قرب الخاتمة أو قرب النهاية وأظن أن مصر من حقها أن تتصور أفقاً ينفتح إلى أوسع من هذا، لأننا لدينا مشكلة كبيرة جداً، فقد كانت هناك شرعية ٢٣ يوليو، وقد انتهت مبكرا، ولابد أن نكون واضحين، فالبعض يتصور أن كل الموجود في مصر طوال الخمسين سنة الماضية، هو استمرار لشرعية يوليو وهذا ليس صحيحاً، إن صورة المستقبل في مصر صعب جداً أن يراها أحد، صعب جداً أن يتصورها أحد، صعب جداً أن يرتب عليها أحد خطة لما هو مقبل، وأخشى أن مصر لابد أن تتغير، وإذا لم يحدث فهذه الأوضاع في اعتقادي سوف تؤدي إلى مخاطر كبيرة جداً.

وسألة كريشان عن موضوع توريث جمال مبارك للسلطة بعد أبيه، ومصر تعيش حالة من الصراع غير المعلن بين حرس قديم ينتمي إلى الرئيس الأب.. وتيار شباب يراهن على ابن الرئيس.. وقال هيكل : أعتقد أن موضوع التوريث أصبح صعباً جدا، وصحيح ما تلاحظه من أن هناك تيارين، تيار يصل به المنطق إلى درجة أن يقول إن الحزب في الخمس سنوات الماضية حقق قفزة، دون أن يدرى القائلون أنهم يلغون ال٢٥ سنة الأولى من حكم مبارك، كما لو أن ٢٥ سنة لم تكن فيها فائدة وأن كل شيء فجأة تكشف وانكشف، وتجلى واستنار في الخمس سنوات الأخيرة، وهذا كلام أعتقد أنه خطأ ومسيء للنظام كله على وجه القطع.. وهناك من يقول إن مبارك لا يريده، لكنني على استعداد لأن أقول، إن الرئيس مبارك رأى أن هذا المشروع لن ينجح، وأن عواقبه قد تكون خطيرة بالنسبة للبلد، وحتى بالنسبة لحرصه على ابنه، فأتصور وأرجو ألا أكون مخطئا في هذه النقطة أن الرئيس مبارك بنفسه نحى هذا وقرر أن يتقدم.. وهنا المأزق، وبما أن من المهم تأسيس شرعية جديدة، من نوع جديد مختلف، شرعية مستندة على شيء آخر، فقد

طرحت فترة انتقالية بمجلس أمناء الدولة والدستور وبوجود الرئيس مبارك وبرعايته تقريبا، ومع حضور القوات المسلحة بشكل أو بآخر.. وهو اقتراح لم ألح عليه ولم أتخل عنه، لكنني لم أشأ الإلحاح عليه كي لا يقال إني متمسك برأيي. أريد أن أقول لك إنني معني بالمستقبل لكنه ليس همي، لن أعيش فيه، أنا أتكلم عن مستقبل لن أراه ولن أحضره، فأنا رجل أعرف أين أنا من الزمن ولا أخطئ في هذا، وأعرف أن حدود ما سوف أراه، وما سوف أعيشه في المستقبل محدود، فأتكلم عن مستقبل يعنيني...

أولاد هيكل

تحدث هيكل عن جمال ومبارك ونفى تماما أنه جاهز للتوريث.. فما هي العلاقة التي لم يتحدث عنها الأستاذ وتخص علاقة ولديه أحمد وحسن بجمال وعلاء مبارك.. وهنا يجب أن ندخل إلى بيت هيكل لنعرف ما فيه وقد عرفنا صاحبه وسوف نتجاوز حديث الطفولة والذكريات والزوجة.. ونقفز مؤقتا إلى الأولاد أو الورثة بما أنه كان يتحدث عن التوريث وان اختلف الحال لان أولاده الثلاثة لا يعملون في مجاله.. وهنا يحدثنا احد المقربين من هيكل وهو الكاتب عادل حمودة فيقول: تعمد هيكل أن يبعد عائلته عن حياته العامة بكل ما فيها من إنجازات وصراعات.. وحتى ظهر أبناؤه على سطح البيزنس لم يكن أحد يعرف الكثير عنه.

بل، ربما لم نعرف أسماءهم إلا عندما أهدى إليهم كتاب بين الصحافة والسياسة حتى لا يضيع منهم الغد لسبب لا ذنب لهم فيه وهو أنهم لم يكونوا معنا في الأمس.

علي.. أكبر الأبناء، طبيب متخصص في الأمراض الباطنة، يمارس مهنته ويعيش حياته في هدوء بعيدا عن ضوء وصخب الشهرة، تعود أن يمر على والده كل صباح ليطمئن عليه بقياسات الطب المعروفة، وعندما كان يتصادف وجودي في ذلك

الوقت لم يكن يتجاوز التحية العابرة ولو بكلمة واحدة.. فهو على ما يبدو قليل الكلام، أو هكذا أعتقد. ولن تجد على شبكات الإنترنت سوى عنوان عيادته في القاهرة ومواعيدها اليومية وعندما نقل والده من السجن بعد القبض عليه في سبتمبر ١٩٨١ إلى قصر العيني ساعدت علاقاته الطبية في توفير مزيد من الرعاية لوالده.

وبسبب انشغال علي بالطب دون سواه لم تأت سيرته خارج عائلته ومرضاه وزملائه في المهنة.. بينما انفجرت سيرة شقيقيه أحمد وحسن على الألسنة بعد أن خرجا من واحة العائلة إلى غابة البيزنس.

وما أن قامت ثورة يناير حتى عرفت بلاغات قدمت ضد أحمد هيكل طريقها إلى النائب العام.. وبسبب شهرة الأب تضاعف اهتمام الرأي العام بها.. وبدا وكأن البلاغات تتجاوز المساس بالابن إلى التشهير بالأب.. وهو ما أوحى به هيكل في حواره المنشور مع لبيب السباعي في الأهرام يوم ١٧ مايو ٢٠١١ حين قال هيكل: إنني ترددت إلى حد العذاب قبل أن أكون مستعدا للكلام (في هذا الموضوع) لكني أشعر بالأسف فربما كانت حكاية نجل هيكل مرجعها قول أو موقف للأب وقع بسببه خلاف من أطراف ثم انسحب تأثير الخلاف على أقرب الناس إليه وذلك يحزنه.. وفي الوقت نفسه فإن بين هؤلاء الأقرب من يخشى أن يكون أساء لي ببعض ما نشر وذلك يحزنه هو الآخر.. ولو أن ما نشر كان صحيحا لكانت تلك هي الإساءة.. أما وأنا أعرف الحقيقة فقد رضيت الانتظار حتى لا يظل هناك مجال لالتباس أو ظن بل وكنت أؤثر السكوت لكن تلك العناوين الصارخة عن نجل هيكل لم تترك لي خيارا غير العذاب بين نقيضين : عذاب الصمت أو عذاب الكلام.

ويدافع هيكل عن أبنائه بما سبق أن قاله لي وقتها مركزا على مبدأين :

أقول بلا تلعثم أن أحدا من أسرتي لم يمارس عملية الخصخصة قطعا ويقينا

وكل من يعرفني يعرف نفوري منها سواء من ناحية المبدأ أو من ناحية الطريقة التي جرت بها وأنا واحد من الذين كانوا يفضلون أن يبقى القطاع العام في ملكية الشعب ثم إن يقوم بجانبه قطاع خاص يتصرف بكل حرية وفق القواعد الرأسمالية المعروفة والمقررة للرأسمالية على أصولها بحيث تكون التنمية جديدة وعريضة وليس مجرد انتقال في الملكية من عام إلى خاص ثم يجري بالطريقة التي جرى بها نهبا وليس إضافة.

وهنا أقر بصدد ما قاله هيكل، لكن مع إضافة أن أحمد وحسن هيكل لو لم يشتريا شركة وضعت في قوائم الخصخصة فإنهما عبر شركة هيرميس التي عملا وشاركا فيها أسهما في عمليات الخصخصة تخطيطا وتنفيذا وكسبا من وراءها بطريقة غير مباشرة الكثير.. ويوضح عادل حمودة: أن أحمد هيكل دخل في شراكة مع هيئة البترول في مسطرد كانت مجالا لتحقيق في النيابة كما سنعرف فيما بعد.

أما المبدأ الثاني الذي تحدث عنه هيكل بثقة فهو: أعلم وبثقة أن أحدا من أبنائي لم يكن لا صديقا ولا شريكا لأحد من أسرة الرئيس السابق مبارك وحتى لو تصور أحدهم مثل هذه الصداقة أو الشراكة لصد الطرف الآخر وأعرض لأن الكل يعرف من موقفي ما هو معروف مما لا سر فيه.

وهنا يمكن القول إن بعض مستندات الشركات التي أسسها جمال مبارك في قبرص قبل إخفائها تحت غطاء الأوف شور في إحدى الجزر البريطانية تشير لوجود حسن هيكل في واحدة منها.

بل أكثر من ذلك بدأت هناك علاقة مصلحة بين جمال وعلاء مبارك من ناحية وحسن هيكل من ناحية أخرى في قضية بيع البنك الوطني للتنمية.. وجدت طريقها إلى محكمة الجنايات بعد أن حققت فيها النيابة.. وحسب مذكرة الإحالة التي سنتعرض لها فيما بعد فإن حسن هيكل وياسر الملواني بإدارتهما لشركة هيرميس أفادا جمال وعلاء مبارك بمكاسب تقدر بمئات الملايين في عملية بيع

البنك.. وما كان ولـدا مبـارك يحصـلان عليهـا دون دور لشـركة هيـرميس التـي أسست مع شركة بوليون التي يمتلك جمال مبارك نصفها في شركة تحمل نفس اسم هيرميس في جزيرة من الجـزر البريطانيـة التـي تشـتهر بإخفـاء الثـروات وغسـيل الأموال.

إن خروج أحمد وحسن هيكل إلى غابـة البيـزنس أفقـد الأب مـا حـرص عليـه دائما.. إبعاد عائلته عن صراعاته ومعاركه السياسية والصحافية.

في ثياب الأستاذ

ويتقمص حمودة شخصية هيكل في السرد ويعود بنا إلى الوراء ويقول :

أتذكر أن هيكل دعاني في منتصف تسـعينيات القـرن الماضـي لحضـور حفـل زفاف أصغر أبنائه حسن، مشددا على أن الدعوة خاصة لا تتضـمن نشـر خبـر عـن المناسبة، بل إن الدعوة كانت شفهية دون بطاقة مطبوعـة.. كـان الحفـل في قاعـة البلفدير في هيلتون النيل بعد أن أغلقت على المدعوين.. وبينما راح الشـباب يعبـر عن فرحه بطريقته راح الكبار يقتلون الوقت بحـديث معتـاد في السياسـة وأحـوال البلد دون الالتفاف إلى النيل السـاحر الصـابر الـذي شـهد كـل التغيـرات دون أن يتغير.

وحسن ولد عام ١٩٦٦، حصل على الثانوية العامـة مـن مدرسـة الجيزويـت.. نفس المدرسة التي تعلم فيها علي وأحمد، لكن حسن تخرج في كلية الاقتصاد عـام ١٩٨٨ وكان الأول على دفعته على أنه لم يطق الحياة الأكاديمية أكثر

من عامين انتقل بعدها للعمل في البنوك التجارية منها ما هو محلي مثـل البنـك التجاري ومنها ما هو عالمي مثل غولدمان ساكس، وقد برع فيـه إلى حـد اختيـاره واحدا من أهم عشرة خبراء في هذا المجال.

وبانضمامه إلى شركة هيرميس الشهيرة بدأت المتاعب ووصـلت بـه إلى النيابـة

العامة ومحكمة الجنايات ووحدة غسيل الأموال والكسب غير المشروع. لقد بدأت جهات رقابية تتحرى عنه، ومن المعلومات التي توصلت إليها بالتعاون مع وحدة التحريات المالية في المملكة المتحدة أنه يحمل جواز سفر مصريا رقمه (A02638255) ويحتفظ بستة حسابات في بنك كولتس في بريطانيا حيث يرتبط هناك بسبع شركات أيضا تضع حساباتها في نفس البنك.

وتضيف التحريات أنه متزوج من سيدتين : شهرزاد عمر مصطفى فايد من مواليد ٣ أغسطس ١٩٦٠.. ورانيا كمال الشريف من مواليد ١٦ سبتمبر ١٩٧٢.

وإن كنت لم ألتق حسن منذ يوم زفافه ولو عابرا فقد التقيت أحمد أكثر من مرة.. أحيانا للنقاش في مقر شركته القابضة القلعة، وأحيانا صدفة في أماكن سهر بالساحل الشمالي.

وذات يوم همست لوالده بأن أحمد مهدد بسمنة مفرطة فنقل تحذيري إلى السيدة هدايت زوجته معبرا عن نوع من القلق على صحته.

ويضيف حمودة: لقد أخذ أحمد من والده ذكاءه لكن لم يأخذ منه حرصه على صحته بممارسة يومية لرياضة الغولف.. وحرص زائد عند تناول الطعام.. ومراجعة دائمة لكفاءة البدن.. والتدخل الجراحي إذا ما لزم الأمر.. وهو ما حدث عندما أزال ورما في البروستاتا وورما آخر في جزء من الكلى.

ولد أحمد في ١٩٦٣.. تخرج في كلية الهندسة جامعة القاهرة، وحصل على الدكتوراه في جامعة ستانفورد وطبع رسالته في كتاب صدر عن نفس الجامعة بعنوان تطور تحالفات التنمية المشتركة.

وحسبما ذكر لبيب السباعي فإن أحمد هيكل يدير أكثر مما يملك.. يدير رؤوس أموال عربية وأوروبية ويابانية ومصرية ولهذه المصالح نشاط كبير زراعي وصناعي في قلب أفريقيا من الجزائر إلى إثيوبيا ومن مصر والسودان شمالا إلى

أوغندا وكينيا في الجنوب بجهد وعمل أربعين ألف خبير وموظف وعامل منتشرين في القارات.

وبعد أن عمل أحمد هيكل في شركة هيرميس مع خاله محمد تيمور أسس شركة القلعة القابضة التي تبلغ استثماراتها نحو تسعة مليارات دولار.. وتضم نحو عشرين شركة فرعية تحتها تعمل في جميع التخصصات تقريبا.. الصناعات الغذائية، الخدمات المالية، الصناعة، الطاقة، والعقارات وغيرها.

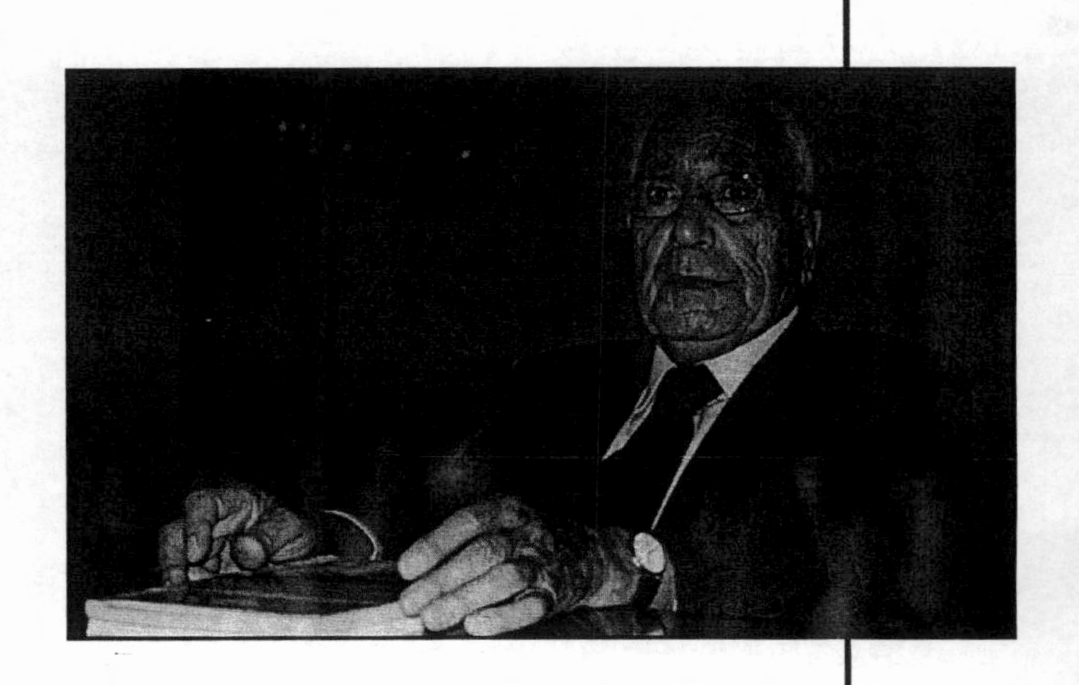
في عام ٢٠١١ تقدم عدد من العاملين وأعضاء اللجنة النقابية في شركة مصر للبترول ببلاغ إلى نيابة الأموال العامة جرى التحقيق فيه تحت رقم ١١٩ لسنة ٢٠١١ حصر تحقيق أموال عامة عليا وقيدت القضية تحت رقم ٣١٠ لنفس السنة حصر وارد أموال عامة عليا.

والشركة المصرية للتكرير إحدى شركات مجموعة القلعة القابضة التي يديرها أحمد هيكل.. وشركة التكرير شركة مساهمة مصرية والمفاجأة أن هيئة البترول تسهم فيها ب١٥٪ في رأسمالها وتنفي هذه الحقيقية أن أحمد هيكل أخذ بنصيحة والده في عدم التعامل مع الحكومة.. فهو لا يتعامل معها فقط وإنما يقبل بمشاركتها معه في شركة واحدة.

والتحقيقات التي جرت في هذا الشأن ستكشف عن مفاجآت عديدة لا تخص هيكل وحده.. لكنها ستصل إلى شخصية كبيرة يرتبط بها بالمصاهرة!!

(١٩)

لماذا هرب ابنه أحمد إلى لنـدن ثم عاد مع زوجته ابنة نبيل العربي !!



دائرة أولاد هيكل في البزنس ليست قاصرة على أحمد وحسن فقط لكن المعلومة الجديدة هنا والملفتة للنظر ظهور اسم مروان ابن الدكتور نبيل العربي (الأمين العام لجامعة الدول العربية) وهو في نفس الوقت زوج شقيقة السيدة هدايت زوجة هيكل وفقًا للتحقيقات التي جرت بشأن مخالفات مالية تخص شركة القلعة التي يرأسها مروان وتسهم فيها هيئة البترول بنسبة ١٥ في المئة وأن كل من أحمد محمد حسنين هيكل وطارق صلاح الدين عطية هما العضوان المنتدبان في مجلس الإدارة.. وبناء على دراسات شركة القلعة للاستشارات توصلت النيابة إلى أن المشروع سوف يحقق ربحية في مجال البترول وفائدة قومية حيث سيوفر للدولة نحو ٦٠٪ من قيمة استيرادها من السولار بسعر يقل واحد في المائة عن السعر العالمي.

وقال مروان في التحقيقات إنه قدم استقالته من الشركة بتاريخ ٨ مارس ٢٠١١ ووافق مجلس الإدارة عليها وعين عبدالفتاح أبوزيد إبراهيم رئيساً لمجلس إدارتها منذ ذلك التاريخ.

واستطرد إنه يتعهد بتنازله عن أي حق من حقوق الشركة ترتب على التعاقد مع هيئة البترول الموقع في ٩ فبراير ٢٠٠٦ وملحقاته.. كما تعهد التنازل عن أي حق للشركة يترتب على خطاب الحكومة المصرية عن ضمانها تنفيذ المشروع لحين الانتهاء من التحقيقات وقدم إقراره كتابيا بذلك وحسب ما جاء في مذكرة النيابة فإن المشكو في حقهم (أحمد هيكل ومروان العربي وعبدالفتاح إبراهيم) قدموا تعهدا بسداد أي أموال لصالح الدولة تظهر من خلال نتائج أعمال لجنة مصلحة خبراء وزارة العدل.. وتعهدوا بسداد قيمة الإنشاءات التي دفعتها هيئة البترول إلى شركة بتروجيت.. وتعهدوا بتعديل ما تضمنته عقود الانتفاع فيما يثار عنها من بنود إذعان.

ويحكي عادل حمودة في كتابه خريف هيكل فيقول: طوال تحقيق الواقعة كان أحمد هيكل هاربا في لندن بعد أن خرج من القاهرة في وقت مناسب، وتصادف أن عاد إلى القاهرة على نفس الخطوط الجوية البريطانية التي عدت عليها بعد رحلة إلى لندن

وجلس هو وزوجته مي نبيل العربي على بعد أمتار مني، ولم أشأ أن أزعجه بأسئلتي فقد شعرت أنه في حاجة إلى الاسترخاء بعد طول قلق وتوتر.. ونحمد الله على نجاته من القضية التي حفظت، لكني توقفت عندها لإثبات أن ما قاله هيكل عن ابتعاد أبنائه عن الدخول في بيزنس مع الحكومة غير صحيح، كما أن القضية انتهت بعد تعهد من المشكو في حقهم بأن يغيروا العقود لتلافي أي أضرار يمكن أن تلحق بالمال العام.

ويضيف حمودة: عاد أحمد هيكل من لندن لتطمئن قلوب عائلته عليه، لكن تلك القلوب سرعان ما تمزقت قلقا على شقيقه حسن الذي خرج في الوقت المناسب أيضا هاربا إلى لندن على ذمة قضية جنائية أشد وأصعب.. قضية بيع أسهم البنك الوطني المصري.

وتتلخص هذه في التلاعب من خلال البورصة في أسهم البنك الوطني المصري والاستحواذ على عدد كبير من أسهمه قبل بيعها كلها لمستثمر واحد مما حقق للمتهمين أو لغيرهم أرباحا كبيرة قدرت بمليارات الجنيهات ما كانوا ليحصلوا عليها لولا ما توافر لديهم من معلومات بحكم أعمالهم.. سجلت القضية برقم ١٠٤٢٧ لسنة ٢٠١٢ جنايات العجوزة بعد أن سجلت برقم ٨٨٩ لنفس السنة كلى شمال لجيزة ورقم واحد لسنة ٢٠١١ حضر تحقيق المكتب الفني للنائب العام.. ووقع على أمر الإحالة المستشار أحمد حسن بمكتب النائب العام والمستشار عاشور فرج المحامي العام في المكتب الفني.

تضمن قرار الإحالة تسعة متهمين هم:

(١) أيمن أحمد فتحي حسين سليمان (٥١ سنة) رئيس مجلس إدارة البنك سابقا ورئيس مجلس إدارة شركة دريكسل للمعدات البترولية فيما بعد والمقيم في الزمالك.

(٢) أحمد فتحي حسين سليمان (٨١ سنة) عضو مجلس إدارة البنك سابقا والمحامى الحر حاليا والمقيم في الدقي.

(٣) ياسر سليمان هشام الملواني (٥٠ سنة) عضو مجلس إدارة البنك سابقا والرئيس التنفيذي في شركة هيرميس القابضة حاليا والمقيم في الدقي.

(٤) أحمد نعيم أحمد بدر (٤٤ سنة) عضو مجلس إدارة البنك سابقا والعضو المنتدب لشركة النعيم القابضة حاليا والمقيم في النزهة.. هارب.

(٥) حسن محمد حسنين هيكل (٤٥ سنة) رئيس تنفيذي في شركة هيرميس القابضة والمقيم في الجيزة.. هارب.

(٦) جمال محمد حسني مبارك (٤٧ سنة) عضو مجلس إدارة هيرميس للاستثمار المباشر.. محبوس.

(٧) علاء محمد حسني مبارك (٤٩ سنة) عضو مجلس إدارة شركة بوليون سابقا.. محبوس.

(٨) عمرو محمد القاضي (٥٢ سنة) عضو مجلس إدارة البنك سابقا ومدير عام بشركة أسيك حاليا ومقيم في الدقي.

(٩) حسين لطفي صبحي الشربيني (٤٥ سنة) عضو مجلس البنك سابقا والعضو المنتدب بشركة (اتش سي) ومقيم في الزمالك..

وقد حدثت وقائع القضية في دائرة العجوزة خلال عامي ٢٠٠٦/ ٢٠٠٧ وما يهمنا هنا الاتهامات الموجهة إلى ولدي هيكل وجمال وعلاء مبارك وقد جاءت مرتبطة بالمتهمين الثالث والرابع (ياسر الملواني وأحمد نعيم بدر) فقد حصلا المتهمان الثالث والرابع (ياسر الملواني وأحمد نعيم بدر) بصفتيهما السابقة حصلا لغيرهما على ربح ومنفعة بغير حق بأن حصلا للمتهمين السادس والسابع (جمال وعلاء مبارك) على ربح من خلال استغلالهما اختصاصهما الوظيفي في إخفاء المعلومات الجوهرية وهي اتفاق كبار المساهمين على بيع أسهم البنك لمستثمر استراتيجي بأن قاموا بشراء الأسهم بسعر متدن لإعادة بيعها لذلك المستثمر بسعر

يزيد عن سعر شرائها بالمخالفة للقوانين السابق ذكرها.. وقد جاء أيضاً في أوراق القضية:

تمت عمليات البيع والشراء من خلال صندوق حورس (٢) الذي تديره شركة هيرميس للاستثمار المباشر والتي تمتلك فيها شركة بوليون نسبة تصل إلى ٣٥ في المئة.

ويساهم المتهم السادس (جمال مبارك) فيها بنسبة ٥٠ في المئة رغم عدم سبق تعامل هذا الصندوق على تلك الأسهم قاصدين من ذلك تمكين المتهم السادس من الحصول على أرباح تنفيذ هذه الصفقة بنسبة مساهمته في شركة بوليون وبأن أمدا المتهم السابع (علاء مبارك) بالمعلومة الجوهرية المشار إليها فقام بشراء عدد ٢٩٠ ألف سهم قبل تنفيذ الصفقة مباشرة مستغلا تلك المعلومة مما حقق له ربحا بغير حق مقداره ١٢ مليونا و٣٣٥ ألفا و٤٤٢ جنيها كما أمدوا الأشخاص المبينة أسماؤهم في التحقيقات بالمعلومة الجوهرية ذاتها مما حقق لهم ربحا مقداره مليار و٧٧ مليوناً و٦٤٢ ألف و٦٠٨ جنيها.

- المتهم الخامس (حسن هيكل) اشترك مع المتهمين من الأول وحتى الثالث (أيمن فتحي وأحمد فتحي وياسر الملواني) بطريقي الاتفاق والمساعدة في ارتكاب جريمة التربح مما مكنهم من الحصول بغير حق على ربح مقداره ٥٩٤ مليونا و٢٨٣ ألفا و٣٥٤ جنيها فوقعت الجريمة بناء على ذلك الاتفاق والمساعدة.

- المتهم السادس (جمال مبارك) اشترك مع المتهم الثالث (ياسر الملواني) بطريقتي الاتفاق والمساعدة في ارتكاب جريمة التربح موضع التهمة بأن اتفق معه على تكوين حصة حاكمة من أسهم البنك وساعده بأن يستغل صفته كمساهم استراتيجي في شركة بوليون التي تساهم في شركة هيرميس للاستثمار المباشر والتي تقوم على إدارة صندوق حورس (٢) فوجهها لشراء أسهم البنك من خلال صندوق حورس (٢) للاستثمار مما مكنه من الحصول لنفسه وللشركة التي يسهم

فيها بغير حق على ربح ومنفعة مقدارها ٤١٤ مليون و٤٠٧ آلاف و١٣٠ جنيها فوقعت الجريمة بناء على ذلك الاتفاق وتلك المساعدة.

واشتركا معا بطريقي الاتفاق والمساعدة على تكوين حصة حاكمة من أسهم البنك وساعده بأن أسند لشركة هيرميس للاستثمار المباشر القائمة على صندوق حورس (٢) تنفيذ عمليات شراء الأسهم فحقق لنفسه وللشركة التي ساهم فيها بغير حق ربحا مقداره ٤٩٣ مليونا و٦٢٨ ألفا و٦٤٦ جنيها فوقعت الجريمة بناء على ذلك.

- المتهم السابع (علاء مبارك) اشترك مع المتهم الثالث (ياسر الملواني) بطريقي الاتفاق والمساعدة في ارتكاب جريمة التربح موضع التهمة بأن اتفق معه على أن يمكنه الأخير من الحصول على ربح بغير حق وأن يمده بالمعلومة الجوهرية وهى إبرام اتفاق مع كبار المساهمين في البنك على بيعه لمستثمر استراتيجي فقان بشراء ٢٩٠ ألف سهم من خلال حساب لزوجته هايدي محمد مجدي راسخ حسنة النية في تاريخ معاصر لإتمام الصفقة مما مكنه من تحقيق ربح مقداره ١٢ مليوناً و٣٣٥ ألفا و٤٤٢ جنيها يمثل الفارق بين سعري البيع والشراء وجرى تحويل المبلغ في ذات الوقت من حساب زوجته إلى حسابه الشخصي بالبنك الأهلي فرع البرج فوقعت الجريمة بناء على ذلك.

جزر العذراء

وتقول ملاحظات النيابة العامة على القضية:

- ثبت من تحريات هيئة الأمن القومي المرفقة بالأوراق أن المتهمين السادس والسابع (جمال وعلاء مبارك) شاركا في تأسيس شركة بوليون القبرصية مع المدعو وليد كابا الذي يتولى حاليا منصب مدير بشركة هيرميس برايفت أكويتي، ويرتبط المتهم السادس (جمال مبارك) بعلاقات قوية مع كل من المتهم الثالث (ياسر الملواني) والمتهم الخامس (حسن هيكل) كما يمتلك حصة قدرها ١٨٪ أو أكثر من أسهم شركة هيرميس.

وقد استغل المتهم السادس (جمال مبارك) نفوذه للسيطرة على الجهاز المصرفي وتفرد في تعيين رؤساء البنوك وقام بتعيين البعض منهم في لجنة السياسات والبورصة وسوق الأوراق المالية ويدين له الجميع بالولاء.

وقد أسست شركة هيرميس عدد (٢١) صندوقا بعضها بجزر العذراء البريطانية المعروف عنها اشتهارها بغسل الأموال ومنها صندوق حورس ٢ الذي أسس عام ٢٠٠٥ بغرض شراء حصص في البنك الوطني ومن خلال صناديق الاستثمار حورس ١ و٢ و٣ تم استثمار مبلغ ٥٣٤ مليون دولار في ٣٥ شركة وبعدها تم التخارج من ٢٥ شركة منها وحققوا مكاسب أكثر من ١٤٦ مليون دولار.

وارتبط المتهم السادس (جمال مبارك) بمجموعة من رجال البنوك والمال والأعمال والذين حققوا ثروات مالية طائلة جرى تهريب جزء كبير منها للخارج مع بداية اندلاع ثورة ٢٥ يناير وحتى ٢٨ فبراير ٢٠١١ ولم يتبق برصيد حساباته في البنوك سوى مبالغ ضئيلة.

كما تبين ورود استعلام أمني من الهيئة العامة للاستثمار والمناطق الحرة في ٢٧ يناير ٢٠١١ عن دخول المتهم الثلث (ياسر الملواني) والمتهم الخامس (حسن هيكل) وأن عمله ينحصر فيما يسند إليه من أعمال بمعرفة المتهمين الثلث (ياسر الملواني) والمتهم الخامس (حسن هيكل).

كمساهمين في شركة هيرمس للترويج وتغطية الاكتتاب ويرأس مجلس إدارتها المتهم الخامس حسن هيكل.

واعترف أشرف محمود زكي المدير التنفيذي لشركة هيرمس للترويج بأن هذه الشركة تتكون من إدارة واحدة مسؤول عنها المتهم الخامس (حسن هيكل).. وأن عمله ينحصر فيما يسند إليه من أعمال بمعرفة المتهمين الثالث (ياسر الملواني) والمتهم الخامس (حسن هيكل).

وفي التحقيقات قرر حازم مصطفى أحمد شوقي مدير تنفيذي لشركة هيرميس للاستثمار المباشر بأن تلك الشركة مملوكة لشركة هيرميس القابضة بنسبة ٦٥ في المئة وتملك النسبة الباقية شركة بوليون التي يمتلك جمال مبارك نصف أسهمها.. وقد سجلت هيرميس للاستثمار المباشر شركة أوف شور يصعب كشف معلومات عنها في جزر العذراء البريطانية ويتكون مجلس إدارتها من المتهم الثالث (ياسر الملواني) والمتهم الخامس (حسن هيكل) والسادس (جمال مبارك) بالإضافة إلى وليد كابا، وعند انضمامه للشركة طلب منه المتهمان الثالث (ياسر الملواني) والمتهم الخامس (حسن هيكل) التقابل مع المتهم السادس (جمال مبارك) للموافقة على تعيينه.

وأضاف: إن شركة القلعة للاستثمارات وأحمد هيكل ضمن المؤسسين لصندوق حورس ٢ وشركة صحارى للزيت والغاز المملوكة للمتهم الأول أيمن فتحي وآخر وبدأت في عام ٢٠٠٥ واستثمار فيها نحو ١٥ مليون دولار.

وبدخول أحمد هيكل على الخط تكتمل الدائرة بين نجلي مبارك وولدي هيكل.. ليختلف الكبار في السياسة وليتفق الصغار في الثروة.. أما الهدف فلا مانع أن يكون حكوميا.. مرة هيئة البترول.. ومرة أخرى بنكا وطنيا.. فكل شيء أصبح مباحا أمام البيزنس ولو مات الشعب المصري من الجوع.

هرب حسن هيكل إلى لندن خوفا من القبض عليه وأبدى ياسر الملواني استعداده لتحمل المسؤولية عنه، وفي الوقت نفسه وحتى تفسد القضية بدأ دفاعهما يطالب بإدخال كل من اشترى سهماً من أسهم البنك الوطني للتنمية في القضية، وتضم القائمة أسماء متنوعة ومؤثرة في أسواق الاستثمار، وتوجيه الاتهام إليها يعني المساس بسمعتها. وربما يؤدى إلى انسحابها من تلك الأسواق.

ونعود إلى عادل حمودة الذي يقول: لا أحد يتمنى أن يصاب حسن هيكل بأذى.. و نتمنى أن يحظى بالبراءة ويتمتع بحريته ويعود إلى وطنه وعائلته خاصة

أننا أمام شخص موهوب في تخصصه قادر على إفادة بلاده بما يفهم ويستوعب، لكن تلك القضية سرعان ما جرت قضية أخرى تخص وزير التجارة والصناعة الأسبق رشيد محمد رشيد.. اتهم فيها هو وابنته عاليا بالتربح وكسب مئات الملايين من الجنيهات بمساعدة من مديري هيرميس (ياسر الملواني وحسن هيكل) وإن لم توجه إليهما اتهامات فيها.

ويواصل حمودة سرد تفاصيل قضايا أحمد وحسن هيكل وعلاقة ذلك بجمال وعلاء.. ويقول :

إن ما فعلت هيرميس تحت قيادة ياسر الملواني وحسن هيكل من عمليات مريبة في الاقتصاد المصري تفوق ما حدث في ملف الخصخصة.. لقد حاولت هيرميس الملواني وهيكل أن تستحوذ على البنك التجاري الدولي (سي آي بي) لتضعه وتطويه تحت جناحها لتضيف إلى نشاطها الاستثماري نشاطا بنكيا تجاريا.. بعلاقتها القوية بجمال مبارك راحت هيرميس تعرض الاندماج على هشام عز العرب المسؤول الأول عن البنك التجاري.

ولم تتوقف الذئاب الجائعة عن التفكير، لكن ما حدث في يناير ٢٠١١ أنقذ البنك التجاري الدولي وكشف تلاعب هيرميس وارتباطها بالقوى السياسية الحاكمة.. بدأت تلك المحاولات في عام ٢٠٠٧ واستمرت أربع سنوات تقريبا، وما يؤكد سوء الظن القصد أن هيرميس بعد أن نفخت في سعر أسهمها وصلت قيمتها السوقية في عام ٢٠٠٧ إلى ٢٥ مليار جنيه.. وقدرت القيمة السوقية لأسهم البنك التجاري بنحو ١٧ مليار جنيه، ولكن تغيرت القيمة الآن فانهارت قيمة هيرميس إلى ٥ مليارات وصعدت قيمة البنك التجاري الدولي إلى ٢٩ ملياراً.. وتكشف الأرقام عن مدى اللعب في البورصة للوصول إلى مكاسب فاحشة تضر بالاقتصاد القومي.. من جديد يمكن القول بأن حسن هيكل لم يكن بعيدا عن جمال مبارك ولا مجموعته ولو لم تكن علاقته من باب الود فإنها كانت لتحقيق مصالح لهم.. بخلاف ما يقول هيكل.

عندك أقوال أخرى

لن نستطيع أن نجد تفسيرا أو شرحا أو تبريرا من هيكل تجاه ما يفعله أولاده.. فهو بقلب الأب لا يريد لهم الأذى والبهدلة.. لكن بعقل الصحافي والسياسي والمؤرخ يود لو مزق الكثير من الصفحات التي تحكي زواج البزنس القومي لأولاد الأكابر.. والسؤال : هل كان من السهل على ولديه احمد وحسن.. الحصول على الثروة التي حققاها بدون الارتكاز على اسم الأب وشبكة علاقاته سواء برضاه أو بعيدا عنه.. خاصة إذا وجد أنهما حققا ثروة وضعتهما فى قائمة كبار أغنياء العرب في عام ٢٠١٠.. صحيح أنهما احتلا المرتبة رقم ٤٠ من ٥٠ اسما بثروة تقدر بنحو ١.٧ مليار دولار.. بينما بلغت استثمارات شركة القلعة التي يمتلكانها أكثر من ٨.٣ مليار دولار وهي عبارة عن ١٤ شركة متخصصة في صناعات متعددة منها الاسمنت والزجاج والتعدين والبترول والطاقة والنقل النهري والبنوك الاستثمارية والإعلام والزراعة والصناعات الغذائية.

ومن المنطق أن يعمل أولاد هيكل مثل غيرهم.. هذا حق مشروع.. لكن ماذا عن اختصار السنوات والمعاناة وتحقيق الأرباح في شبكة علاقات تجارية تضارع علاقات الوالد الصحافية والسياسية.. وعندما تثار الشبهات حول الثروة يفرض السؤال نفسه والأمر يظل بين يد القضاء يقول كلمته.

فهل كان هيكل ينتقد مبارك علناً.. ويلاغيه سراَ؟!.. أم أن النظام في هذا الوقت كان يترك الباب مفتوحا أمام الجميع خاصة إذا امتدت الشراكة إلى جمال وعلاء.

وقد كان رنين التليفون أيام مبارك يأتي لكبار المسؤولين بتوجيهات وتعليمات محددة.. اتركوا فلان.. وحاصروا فلان.. وهي مكالمات واجبة النفاذ على الفور في ظل حكومة كان معظمها من رجال الأعمال أصحاب المصالح الذين جمعوا بين السلطة والثروة فباعوا واشتروا كل ما استطاعوا.. وكسبوا جميعا وخسرت مصر وشعبها الغلبان.

(٢٠)

علاقة حسين سالم بمبارك ليست هي علاقة السادات بعثمان أحمد عثمان



تعرض هيكل للكثير من الهجوم والنقد سراً وعلانية ولكنه بذكاء وضع لنفسه منهجاً لا يحيد عنه تحت أي ظرف.. وقال: عاهدت نفسي ألا أرد على أحد مهما كان القول، وأيا كان القائل، وكثيرا ما ذكرت نفسي بحكاية رواها لي السير انتوني ناتنج وزير الدولة البريطاني الأسبق، الذي استقال من وزارة انتوني إيدن ابان حرب السويس ١٩٥٦، احتجاجا على تورط إيدن الذي خلف تشرشل على رئاسة المحافظين ورئاسة الوزارة في مؤامرة سرية للعدوان الثلاثي على مصر!

كان ناتنج عند أول الحكاية التي سمعتها منه سياسياً صاعداً وعضواً مستجداً في مجلس العموم، ورأى أن يذهب لمقابلة الزعيم البريطاني ونستون تشرشل وهو يعرفه صديقا لوالده اللورد ناتنج الكبير وضيفا على قلعة الأسرة في إسكتلندا. وكان غرض النائب الشاب الصاعد أن يسمع من صديق الأسرة الأسطوري نصيحة تنفع مستقبله.. ورد تشرشل بإنه سوف يجيب بلغة الطير، عارفا أن والده من هواة مراقبة الطيور، ثم تكلم السياسي المجرب العجوز:

استغل كل طاقتك وإرادتك حتى تقوي جناحك ليحملك إلى الفضاء العالي، حيث تحلق النسور - هناك الحرية وهناك الخطر - إذا لم تستطع فلا تسمح لنفسك تحت أي ظرف بطلب الأمان في قفص ببغاء تنطق برطانة يدربونك عليها ثم يكون دورك أن تكررها وتعيدها كلما مروا عليك، وطلبوا منك أن ترقص وتغني حتى يراك السيد (زعيم الحزب) ورفاقه، وربما أبناؤه أيضا وقد يصفقون لك ويضحكون ثم يتركونك حيث أنت ويذهبون.

وفي حكاية ناتنج أن تشرشل نظر إليه بعد أنهى درسه، ثم صاح فيه نسر إذا استطعت.. ببغاء أبدا مهما تحملت!.

وأقر بأن تلك الحكاية التي رواها لي أنتوني ناتنج عادت من حافظتي إلى ذاكرتي في مواجهة ما تعرضت له من حملات تلك السنوات ولعلها كانت مؤثرة على حين

اخترت الصمت عزوفا عن مشادات وجدتها إهدارا للحبر بلا معنى، واستهلاكا للورق دون جدوى! واكتفيت بأن قلت كلمتي ومشيت وخطاي على الأرض لا فضاء النسر، ولا قفص الببغاء.

مناورة الانصراف

بعد الوزارة وبعد الخروج من الأهرام وبعد الاعتذار عن مناصب كبرى منها نائب رئيس الوزراء ومستشاراً للرئيس، أعلن هيكل الانصراف وأثار جدلا واسعا.. وقال الذين يعرفونه جيدا إن الصمت قد طال به وأراد أن يقول للناس وللبلد كلها: نحن هنا بدليل أن مقال الاستئذان جاء بعنوان تقرير ختامي.. رجاء ودعاء.. وفي هذا التقرير استعرض تاريخه كله وكأنه يقول للأجيال التي سمعت عنه لكنها لم تقرأ له أو تتابعه.. أنا هيكل، وبين عملية الاستئذان أو الانصراف كما قال عنها وبين رحيله الأخير.. ١٣ عاماً، رأينا فيها هيكل يتحول من صاحب قلم يكتب بيده، إلى صاحب لسان يحكي ويأخذ جمهوره هنا وهناك من التاريخ ومع الزعماء: قابلت هذا.. وأكلت على مائدة هذا.. وطلبني هذا، ويعترف انه فكر في الانسحاب في لحظة وفاة عبدالناصر عام ١٩٧٠ وتحديداً في غرفة نومه ولكنه يأخذنا من لحظة الانصراف التي تخصه وحده.. إلى انصراف زعيم يخص وطنا بأكمله وبمهارة الكاتب يتسلل من الخاص إلى العام ويستدرج القارئ بمهارة بالغة إلى المناطق المحببة له.. وقد كان فيها فاعلا ومصدراً للخبر.. وهو الذي يعتز بكونه المخبر الصحافي.

وهنا نستأذنه نحن.. لكي نصل إلى ما جرى في يناير ورأي هيكل فيه وموقفه.. وله في ذلك مقابلات تليفزيونية عدة.. في الجزيرة القطرية ثم مع الإعلامية لميس الحديدي.. وعندما سألته عن رأيه في محاكمة حسني مبارك قال هيكل إنها جرت على طريقة الأغنية الشهيرة روح منك لله.. لأن هيكل في تصريحات سابقة، كان

رأيه أن تتم المحاكمة بشكل سياسي وليس بالشكل الجنائي الذي جرت بـه عـلى الرغم من انه أشار إلى اتهامات وشبهات في ذمة مبارك أبرزها ما جمعه من معلومات حول صفقة الميراج التي اشتراها بالمال الليبي لحساب مصر أيـام حـرب ١٩٧٣ وبلغت قيمتها ٤ مليارات دولار وثار الغبار حـول عمـولات اختلفـت الأطـراف حولها.. وانضم مبارك إلى الشركاء حيث تم الاستعانة به لإنهـاء الخـلاف وكانـت ليبيا قد استعانت بمجموعة ضباط مصريين أخذوا جـوازات ليبيـة ضـمانا لسـرية الصفقة.. ثم امتدت الأسئلة إلى رجال مبـارك وعصـره، وهـل يجـوز عـودتهم إلى الحياة بعد الثورة.. وعندما وصل سؤال إلى العلاقة بـين مبـارك وصـديقه حسـين سالم، قال هيكل إن العلاقة التي جمعت السادات وعثمان أحمد عثمان مختلفة لأنهـا كانت محصورة في نطاق معين.. لكن ما بين مبـارك وحسـين سـالم جـرى في ظـل مسار بنكي عالمي يمكن للأموال أن تخرج فيه وتتجول بسهولة.

وأضاف هيكل أن ثورة ٢٥ يناير لم تغير البلد ولم يصل تغييرها إلى الناس.. فقـد قلت عن أيام مبارك إننا لسنا أمام فساد دولة ولكـن أمـام دولـة فسـاد.. وهـذا مـا يحتاج إلى وقفة مع كلام هيكل وتصريحاته لأنها هامة جدا.

وقد توقف هيكل أمام تقرير لجنة تقصي الحقـائق الـذي أعـده الـدكتور فـؤاد رياض قاضي المحكمة الدولية حول فض اعتصام رابعة.. حيـث أشـار إلى فسـاد عصر مبارك الذي أدى إلى وصول الإخوان إلى الحكم.

وأشار هيكل مرة أخرى إلى حسين سالم واعتبره مفتاحا لكثير مـن الألغـاز فقـد كان موجودا بجانب مبارك يمـارس دورا غامضـا يحتـاج إلى تفسـير وهـو ضـمن الألغام الغاطسة في التاريخ المصري وهناك علامات استفهام عديدة أخـرى منهـا قصة أشرف مروان وما جرى له في لندن ويقول هيكـل: النـاس قـد تختلـف عـلى الماضي على تفسيره لكن تتصارع على المستقبل ومصالحه وما نـراه اليـوم أن ٢٥ يناير تعني أن هناك ضرورة تغيير ومن يقول إن ثورة ينـاير ليسـت كـذلك وأن ٣٠

يونيو هي الحقيقة أعتقد أنهم يظلمون ٣٠ يونيو نفسها ما هو المنطق؟ السؤال علمياً هل هي ثورة أم لا؟ حاولت تقصي التعريفات هل هي ثورة أم ليست ثورة وأنا أخذت هنا تعريفين.. أول تعريف أن الثورة إما إطاحة أو رفض نظام موجود والرغبة في إحلال شيء آخر محله وهذا ينطبق على يناير، والثورة تعني تغيير كامل من دستور إلى آخر وتعديل في الأوضاع بما هو مأمول وليس قائم بالمعايير كلها، الثورة هي رفض ما هو قائم رفضاً مطلقاً والرغبة في إحلال شيء آخر قد لا أستطيع توصيفه لكن استطيع التعبير عنه ثورة يناير لها كل هذه المواصفات وفي يوم ٢٥ يناير وما بعده مشهد جليل في التاريخ المصري وكل من ينكره هو يأخذ من الشعب ويأخذ من الجيش. ثم دخل بعد ذلك من استغل الثورة.

ويضيف هيكل: .. مصر كانت تعاني من تآكل قوتها الناعمة وهذا حدث قبل يناير والعالم العربي كله والعالم نظر مذهولا لما يحدث في مصر ليس في ميدان التحرير.. نتحدث عن حركة ٢٠ – ٢٣ مليون في منتهى النظام لكن عودة قوة مصر الناعمة في ثلاثة أيام رأيتها تعود بقوة وربما أكثر كما كانت عليه فقد رأى الناس الشعب يرفض ويعبر عن نفسه وأن يكون قادراً وهو مظهر بديع والجيش المصري أيضا وبيانات الجيش كلها في هذه الفترة ساندت الشعب فالجيش في هذا الوقت شهد نقلة كبيرة جدا وجزء من هذا الفضل يعود ليس للسيسي فقط بل لثلاثة أعضاء آخرين من المجلس العسكري.. والأهم أن وقفة الجيش مع الشعب أكدت للعالم كله قوة مصر بهذا التلاحم وبوضوح ثورة يناير ثورة حقيقية ولا يضيرها أن هناك من حاول سرقتها، وأن هناك من دخل يتلاعب في الميدان أو أن المجلس العسكري تصرف وقتها بنحو غير جيد، لا أريد الدخول في تفاصيله بالطريقة التي تصرف بها أوصل الإخوان، وأنا في مرات كثيرة أقول إن المجلس العسكري أراد أن ينتقم من مصر، بمعنى أنه لم ينجح في تصرفه فقال ألم يعجبكم شيء إذا فخذوا الإخوان ليس ممكناً هذا الكلام إذا لا يوجد قانون ينظم فكر ينظم

أشياء أخرى، فالقناعات وتغيرها تتغير بفكر وليس بقانون. والمجلس العسكري أذكى من أن يسلمها للإخوان لكن اللعبة كانت كبيرة وفيها مخابرات لدول عديدة.

الإسلام هو الحل

الإخوان في عصر مبارك اكتسبوا أرضا لأن الساحة كانت خالية أمامهم.. وأطلقوا شعارهم الإسلام هو الحل وهنا نجد مشكلة كبيرة جداً، لأنك تتكلم عن بلد فيه على الأقل ١٢ إلى ١٥٪ من سكانه أقباط مسيحيون، الإسلام هو الحل لجزء من الناس لكن ليس هو الحل للجزء الآخر، فالإخوان المسلمون في واقع الأمر خارج المجال السياسي.. وإذا كانوا قد حصلوا في الانتخابات أيام مبارك على ٨٨ مقعدا.. فذلك لأن بحر السياسة فارغ وقد أدركوه بحواسهم وبغرائزهم واتجهوا إلى الملكوت الآخر.

ثم ماذا قدموا في البرلمان بعد أن وصلوا إليه: لا مشروع لا قانون لا أثر أليست هذه فرصة أخذوها واثبتوا فشلهم فيها.. ومع ذلك كان هناك من يقول إن الشعب تعجل رئيسه الإخواني قبل أن يقدم أوراق اعتماده.. لكن الحقيقة أن هذا الرئيس كان غلطة.

وقد عُرف هيكل بمعارضته الشديدة لنظام محمد مرسي، وهذا ليس غريبا على هيكل الذي عاصر عداء عبدالناصر للإخوان، والذي ربما كان جزءا منه.

عقب فوز مرسي بمنصب رئاسة الجمهورية، وصفه هيكل في حواره مع صحيفة صنداي تايمز البريطانية بأنه رجل طيب جدا على المستوى الشخصي، إلا أنه غير متيقن بمدى معرفته بالعالم العربي، والسياسة المصرية.

واعتقد هيكل أن النجاح لن يكون حليفا للإخوان، ومع ذلك يؤمن بضرورة منح مرسي والحركة الإسلامية التي يمثلها الفرصة، قائلا: لقد ظلوا في مسرح

الأحداث ردحا طويلا من الزمن، وهم يشكلون تيارا يظن البعض أن فيه الخلاص.

ثم كان هيكل مؤيدا لكل المظاهرات والاحتجاجات التي خرجت ضد نظام مرسي، بل اعتبر أن هذه المظاهرات هي استفتاء شعبي لصالح عبدالفتاح السيسي ليطيح بالرئيس الإخواني في ٣٠ يونيو ٢٠١٣.

ولهذا أراد الإخوان معاقبة هيكل وسلطوا بعض صبيانهم لحرق عزبته الموجودة في قرية برقاش في القليوبية.

ومع ذلك فوجئ هيكل بمكالمة من القيادي الإخواني محمد بشر يؤكد له الأسف عما جرى وان الإخوان أبرياء من هذا الفعل.

وقد تسربت الأنباء عن لقاء بين هيكل وبعض قيادات الإخوان الموجودة خارج السجون واضطر هيكل في لقاء تلفزيوني على قناة cbc أن ينفي بشدة.

وبعد أسابيع من احتراق مزرعة هيكل بمنشأة القناطر، وحرق فيلته ومحتويات مكتبه، كشفت تحريات أجهزة الأمن في محافظة الجيزة، عن انتماء المتهمين الخمسة لتيارات دينية وجهادية، حيث ألقت المباحث القبض على المتهم الرئيس في الواقعة، وتبين أنه من سكان منطقة تكلا ومن أعضاء جماعة الإخوان المسلمين.

فيلا هيكل نشب فيها الحريق عقب انفجار أربع أسطوانات غاز بداخلها، ما أسفر عن احتراقها بالكامل، وذلك بعدما قام المتهمون بإطلاق النار في الهواء، من أسلحة آلية، لإرهاب العاملين في الفيلا وإجبارهم على الخروج منها وعدم الاتصال بالشرطة، وفور اندلاع الحريق فروا هاربين.

معاينة النيابة أكدت أن الفيلا داخل مزرعة على مساحة ٢٥ فداناً، وقد احترقت المكتبة عن آخرها وبداخلها ١٨ ألف كتاب. منها كتب نادرة وتاريخية، على

رأسها كتاب وصف مصر.

وكان محامي هيكل اتهم خلال محضر الشرطة، الإخوان المسلمين بالمسؤولية عن الحادث بعد فض اعتصامي أنصار محمد مرسي في رابعة العدوية ونهضة مصر.

وكانت المكتبة تضم أيضا الكثير من الوثائق النادرة التي تؤرخ لزيارات كبار زعماء العالم لمصر.. كما دمر الحريق يوميات حرب فلسطين التي حصل عليها حيدر باشا وزير الحربية قبل الثورة.

وقد ذكر هيكل أنه حضر اجتماعا قبل ٣٠ يونيو مع قيادات الإخوان وعلى رأسهم المهندس خيرت الشاطر.. وبحضور الفريق أول عبدالفتاح السيسي وزير الدفاع وقتها وقد طرح عليهم كل الحلول الممكنة للخروج من الأزمة ولكن الشاطر لوح بالتهديد وان هناك كميات كبيرة من السلاح.. وستدخل البلاد في نفق مظلم وان الإرهاب سوف يعمل بكل قوة.. أما بخصوص البرادعي فقد تعجل بتقديم استقالته بعد ٣٠ يونيو وكان يجب أن ينتظر في منصبه كنائب لرئيس الجمهورية.. ومع ذلك طالب هيكل بوقف الهجوم على البرادعي وعدم الانتقاص من دوره.

الانقلابي

ونظرا لأن هيكل انحاز لثورة ٣٠ يونيو تعرض للهجوم من الإخوان واتباعهم.. فقالوا إن الرجل أراد أن يركب الموجة وقد بلغ من العمر أرذله وظن أنه سيعيد أيامه مع عبدالناصر من خلال السيسي وفي ذلك قال الدكتور أيمن نور زعيم حزب غد الثورة الهارب إلى تركيا والذي حاول أن يلعب على كل الحبال :

بالرغم من دور هيكل في وضع تصور المرحلة الانتقالية، فإن السيسي تخلى عنه مبكراً خلال فترة قصيرة بعد الانقلاب، وتخلى السيسي عن كل من يسعى

لتزويده برؤى فالنظام العسكري للسيسي يختلف عن نظام جمال عبدالناصر الـذي كان يسمع لكل تصورات هيكل.

وأضاف نور أن هيكل كان يتوقع أن السيسي مثل جمال عبدالناصر الذي يسـمع منه، ولكن السيسي يرفض أي فكر مدني ويثق بالفكر العسكري، مؤكدا أن الأستاذ هيكل كان أسيرا لتاريخه الذي كان يتحاشى الأنظمة العسكرية، وكـان يـرى أنهـا هي الأنسب للبلاد.

الوثائقي

والسؤال هل تعمد الإخوان حرق مكتبة هيكل لكي يحرقوا قلبه على أثمـن مـا لديه من وثائق وكتب نـادرة جمعهـا عبـر ٧٠ عامـا مـن العمـل في الحقـل الثقـافي والصحافي والسياسي.. جمعها من انكلترا وفرنسا وأميركا ويقول المؤرخ الـدكتور عاصم الدسوقي : كانت مقدرة هيكل التاريخية من نوعية خاصة فقد كـان يكتـب التاريخ كما وقعت أحداثه في اللحظة الواحدة معتقدا أنه يعيد رسم صورة حوادثـه كما وقعت وحين كانت، وجدناه ينتقل بين عدة أماكن ليقرأ موقفا معينا أو حادثـة بعينها، متجولا ما بين مكتب مسؤول، وغرفة طعام وصالون وضيافة ومكـان عـام وسيارة خاصة، ونادي خاص أو حتى عـلى الرصـيف في مصـر وفي خارجهـا لـيلا ونهارا، فبدا الأمر وكأنه يعد سيناريو ضخما لعمل درامي كبير أحسب أنه لن يأخذ جهدا في إخراجه على الشاشة لأنه يوفر على كاتب السيناريو والمخرج ما يحتاجانه من مناظر وأوصاف وحوادث ورسم للشخصيات.

ويبدو واضحا أن هيكل يعلـم تمامـا أنـه لا يكتـب بحثـا في التـاريخ بـالمعنى الاصطلاحي وربما أن صفة المؤرخ لا تعجبه، فنراه في كل مـا أصـدره تقريبـا إنـه قارئ للتاريخ وليس كاتبا له، وكأنه يحذر المتخصصين من توجيه أي نقد منهجي له، لكنه يغفل أو ينسى في هـذا الخصـوص أن كتابـة التـاريخ هـي قراءتـه في ذات

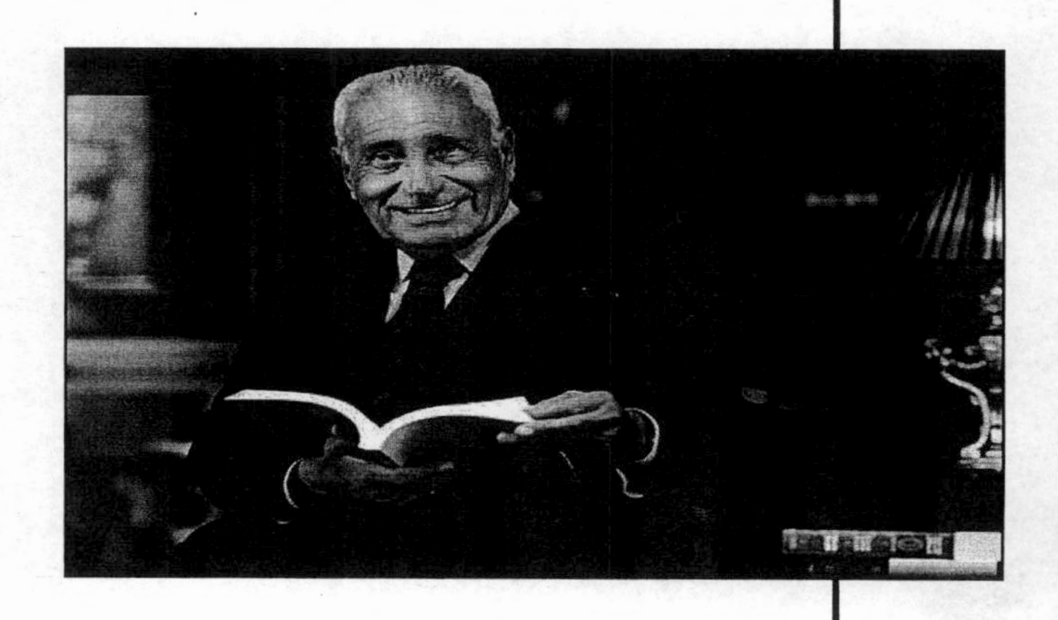
الوقت وما التاريخ في النهاية إلا صناعة كاتبه الذي قرأ أحداثه ومن هنا فإن التفرقة بين قراءة التاريخ وكتابته تفرقة تعسفية ومجرد تلاعب بالألفاظ.

لماذا اتخذ هيكل هذا الأسلوب الوصفي البارع المتقن دقيق الملامح في كل ما يكتبه؟

والسؤال الآخر: ماذا سيقول التاريخ نفسه عن هـذا الرجـل الصـحافي المغـرم بالتاريخ؟

(٢١)

أيها الكاتب الكبير لماذا تعود بنا إلى الماضي كلما سألناك عن المستقبل؟



هذه حكاية طريفة.. فقد حاول الإخوان في آخر أيام حكم مرسي استقطاب هيكل والاحتفال بعيد ميلاده سنة ٢٠١٢ وطلبوا منه اختيار ٣٠ شخصية للمشاركة في هذا الاحتفال في قصر الاتحادية الرئاسي وتقبل هيكل الدعوة شاكرا ومرحباً وبدأ الاتصال بمن يريد دعوتهم، لكن مكالمة الرئاسة لم تتكرر فقد نقلوا الخبر إلى مكتب الإرشاد الذي رأى في الاحتفال نفاقا مخزيا لرمز بارز من رموز عبدالناصر العدو الأكبر للإخوان والقصة جاءت في كتاب عادل حمودة خريف هيكل، لكن المفاجأة لم تتوقف عند هذا الحد لأن القائد العام للقوات المسلحة عبدالفتاح السيسي أرسل برجاله لاصطحاب هيكل إليه وحده.

ويستثمر حمودة القصة لكي يتحدث عن الذين تبدلوا قبل أن يسعفهم الوقت بتغيير ملابس الدور من مساندة الإخوان إلى رجل الجيش الذي فجر بركان ٣٠ يونيو.

ويكشف حمودة عن لقاء جرى مع مرسي استمر ساعة تقريبا قبل رحلة له كانت مقررة إلى إيران وانتهز هيكل الفرصة لكي يكلمه عنها وهو الخبير بها وله كتاب عنها وعاد يقول: لقد اكتشفت سطحية مرسي وضحالة فكره.. وسأله بعضهم ولماذا ذهبت يا أستاذ؟! إلا أن تريده رئيسا يضاف إلى ألبومك الرئاسي المزدحم بالصور والشخصيات.. والدليل على أن مرسي سمع هيكل بالأذن اليمنى واخرج كلامه من الأذن اليسرى لأنه بعدها بأيام قليلة اصدر إعلانه الدستوري المدمر.

محطة السيسي

السيسي يحترم كل الناس.. وبالتالي فإن احترامه لهيكل مفروغ منه.. ولكن عدم اقترابه منه بالشكل الذي يحبه هيكل لم يتحقق مع السيسي الذي كان حريصا من أول لحظة ألا يجامل صحافياً على حساب أخر.. ويأخذون على هيكل أنه يتكلم من واقع إحساسه بالتميز والانفراد والاقتراب من صانع القرار أو بؤرة الأحداث ووقفوا عند تصريحه الشهير بأن السيسي لن يترشح للرئاسة أثار جدلاً

واسعاً.. ثم عاد يوضح بأنه لن يترشح للرئاسة إلا إذا رشحته الناس وهو مطلب السيسي الذي حققه الشعب.

ولم يفوت عادل حمودة الفرصة وقال في كتابه خريف هيكل: لقد أثار هيكل بما قال القلق بين المصريين المتحمسين للسيسي في وقت تمر فيه البلاد بحالة من عدم الاستقرار لا ينقصها مزيد من البلبلة وكثير من الفتنة.. ولم يسكت هيكل بعد كل ما أثاره تصريحه البيروتي فقد عاد ليقول كلاما يشابه الرقص على الحبال: إن السيسي حائر..و يعز عليه خلع سترته العسكرية..وهو مرشح الضرورة.. وأعادت هذه الجمل من جديد حالة من الفتنة والبلبلة.

وفي تحليل العالم النفسي الشهير د. أحمد عكاشة فإن السيسي ليس مترددا، وإنما هيكل بحكم السن هو المتردد.

وبمزيد من التفسير أضاف: إن السيسي يتأنى في اتخاذ قراره، فالشخصية العسكرية لا تعرف التردد لكنها تعرف التروي وهيكل لا يعرف شيئا عن العسكرية.

واستطرد: إن الشخص الذكي هو الذي يتخذ القرار بعد تفكير عميق ومدروس أما الغبي فهو الذي يقول إنه على يقين من الأشياء وإنه دائما على صواب.

ويكشف حمودة: وحسب رؤيتي للسيسي وقد شاءت الظروف أن التقي به أكثر من مرة فإنه رجل متدين بسماحة الصوفيين، ابن بلد تربى في الجمالية، يمتلك موهبة تقييم الشخصيات،لا يتكلم في موضوع إلا بعد دراسته، يفيض في الشرح بأكثر من طريقة، يعرف كيف ينتقل من النقاش إلى الحسم.. ويؤمن بأن الله سوف ينصره في النهاية.

وحسب معلوماتي أيضا: فإن السيسي التقى بقيادات مؤثرة وقادرة في منتصف سبتمبر٢٠١٣ ليناقش معهم أمر ترشحه.. وبعد ثلاث ساعات من محاولات

الإقناع تلاحقت فيها الشواهد والبراهين على أهمية الطلب فض الرجل الجلسة بجملة قصيرة خاطفة : إنني لم أقل نعم بعد، فأعاد الجميع إلى نقطة الصفر، على أن الحضور اعتبروا النتيجة التي وصلوا إليها إيجابية.. فهو لم يقل نعم.. لكنه أيضا لم يقل لا.

في الصالون

حتى لا يقال انه رجل الماضي كان هيكل ابتداء من عام ٢٠٠٠ يختار عنوانا لما يقول أو يكتب المستقبل الآن.. وكأنه بذلك يريد أن يجمع بين الماضي الذي صنع فيه مجده.. والحاضر الذي يجني فيه ثمار ماضيه.. والمستقبل الذي كان يرى بحكم السن انه ليس ملعبه ولكن لا بأس أن يلحق بالعربة الأخيرة من قطار المستقبل.. وإذا تأملت محاضراته عن المستقبل ستجد أنها في الغالب عبوات من الماضي مع تجديد تاريخ الصلاحية عليها.. وكان عادل حمودة قد انتقد هيكل في مقال كتبه ولأنه لا يرد بشكل مباشر انتهز فرصة ظهوره في حلقة تلفزيونية أو قل انه خطط للظهور فيها لأن مقدم الحلقة هو عبدالله السناوي الكاتب الصحافي وأحد دراويش هيكل والذي يغضب ويقاطع إذا ما حاول احدهم التطاول على الأستاذ أو الصورة الكاملة التي لا يجب خدشها أو حتى لمسها.. ووقتها أشارت الناس إلى السيسي لكي يقود المسيرة وفرضت معطيات الواقع المعقد والمتشابك على السناوي أن يبدأ صالونه التلفزيوني بهذا السؤال الصعب عن المستقبل.. وهو سؤال قليل الكلمات.. كثير الاجتهاد.

وفي خلفية المشهد الذي فرض السؤال.. قائد أنقذ أمته من براثن التنين مطالب بأن يكمل جميله.. هو عبدالفتاح السيسي، وهناك تنظيم إرهابي شرس تغلغل في جسد الدولة ينسف ويقتل ويدمر ويصر على تخريبها هو تنظيم الإخوان المحلي والدولي.. دائرة محلية متوترة وقلقة ومنقسمة تحاول أن تصل إلى صيغة مناسبة للنجاة.. دائرة إقليمية أوسع تضم دولا تسترد عافيتها القديمة للهيمنة والسيطرة..

قطيع من الذئاب يبرز أنيابه ومخالبه.. يرقب ما يجري على أرضنا في انتظار لحظة مناسبة ينقض فيها على فريسة حائرة.. وقوى عظمى تختلف على ما يحدث وتتحسس خطواتها لكي تخرج في النهاية بالغنيمة الكبرى، لكن الأهم من ذلك كله شعب حقق معجزة سياسية ساندتها عناية إلهية لا يمكن تجاهلها بعد أن فرض على الجميع معادلاته وقراراته.

شارك في الصالون شخصيات سياسية وأدبية وصحافية لها وزنها: مصطفى حجازي، يوسف القعيد، ياسر رزق، بهاء طاهر، عماد جاد، فريدة الشوباشي ومحمد عبدالهادي.

سأل السناوي في البرنامج: كيف يفكر هيكل في المستقبل؟..لكن هيكل ابتعد عن السؤال تماما بل ويمكن القول بانه رفضه.. قائلا: قبل الحديث عن المستقبل لابد أن تكون متأكدا أنك على طريق المستقبل.. وحسم الموقف مضيفا: اعتقد أننا بعيدون جدا جدا عن طريق المستقبل.. في هذه اللحظة نحن في حالة تايه في الصحراء.

بل أكثر من ذلك وصف مصر بأنها سيارة كبيرة خربت.. أتلف السادات إحدى إطاراتها، وتصور مبارك أنها طائرة لا سيارة.. وتعامل مرسي معها على أنها توك توك.

ويستطرد هيكل : في هذه اللحظة التي نحن فيها الآن يقف كل أصحاب السيارة سيارة الوطن أمام أعطالها وهي تسير بطريقة خاطئة.. فتجد العواجيز اللي زيي يقولون : يا جماعة ليس بهذه الطريقة.. في حين يواصل الشباب الدفع بالسيارة من الخلف في مشهد غريب جدا.

سيارة خربة.. تيه في الصحراء.. مسيرة لا تعرف لنفسها اتجاها.. مجهود ضائع تبذله الأجيال الجديدة.. وصراخ في البرية لا يسمعه أحد.. انتهت الإجابة على السؤال في الدقائق الخمس الأولى من الصالون.. إجابة سوداء، يائسة، محطمة،

تصل بنا إلى جملة صغيرة شائعة مفيش فايدة..

إن أخطر ما في التحليل السياسي التورط في تشبيه أدبي يأخذنا بعيدا عن رصد الواقع وتشخصيه وتحديد مراكز ضعفه ومناطق قوته.

ويشرح عادل حمودة وجهة نظره في هذا الرأي المستفز من وجهة نظره ويقول: التحليل السياسي مثل التحليل الطبي لابد أن يعتمد على صور دم وأفلام أشعة وتقارير للرنين المغناطيسي لمعرفة الداء قبل تحديد الدواء..تصور أن مريضا ذهب إلى طبيب يشكو إليه أوجاعا ما فإذا بالطبيب يترك السماعة ويمسك برواية لنجيب محفوظ أو يوسف إدريس أو غارسيا ماركيز ليشخص الحالة.. لا يكشف عليه.. لا يقيس الضغط أو السكر.. لا يطلب منه تحاليل عاجلة.. ويكتفي بالقول إنك مثل سيارة خربة بلا إطارات.. لا أمل في دفعها إلى الأمام.. بل ويصعب بيعها خردة.. هل هناك طريق آخر أمام المريض سوى الانتحار؟.

وطالما أن الأستاذ وصف الحالة بسيارة خربة فلابد أنه على من دعى للحديث بعده د. مصطفى حجازي أن يصدق على التوصيف دون تردد والذي قال فعلاً: إنه توصيف دقيق جدا.

بل أكثر من ذلك، ضاعف مصطفى حجازي وهو بالمناسبة مستشار استراتيجي لرئيس الجمهورية من مساحة السواد.. مضيفا : استطيع أن أقول بكل صدق إن مصر بلا عقل.. (حجازي كان مستشارا للرئيس عدلي منصور).

ولو كان هيكل في البرنامج ركز على القضايا الرئيسة التي تعاني منها مصر: الغذاء والمياه والطاقة، لكان الحوار قد أخذ مسلكا عمليا مناسبا، لكن تشبيه السيارة الخربة وضع الجميع في ورطة صعب على أغلبهم الخروج منها.

ومن جانبه سعى السناوي إلى الخروج من تلك الورطة طارحا إشكالية الأمن والحرية.. كيف يمكن أن نحافظ على أمن الوطن دون التغول على أمن الوطن؟.

أجاب الأديب بهاء طاهر أحد ضيوف الحلقة شارحا ما فعل الإخوان بمصر منذ أن عادوا إلى البلاد في منتصف السبعينيات.

حاول السناوي أن ينهي تعليقه قائلا :يعني السيارة مازالت خربة؟

لكن بهاء طاهر فتح نافذة من الأمل، وقال: أنا متفائل لسبب.. لقد مررنا في تاريخنا بظروف أشد سوادا من التي نجابهها الآن واستطاعت القوة المصرية التي تحدث عنها أرنولد توينبي (مؤرخ شهير) مواجهة التحدي.

السيارة كانت خربة جدا وكانت تجرها أحصنة مريضة لكن استطاع المصري بهذه القدرة الهائلة على قبول التحدي أن يسير بها.

ونستطيع ضرب أمثلة عديدة من التاريخ.. نكسة ١٩٦٧.. وكيف تمكن الشعب من التغلب عليها.. ونضرب مثالا آخر بحكاية حكم الإخوان الذي كاد يدمر الوطن واستطاع الناس في ٣٠ يونيو وغيره أو يتغلبوا عليه.

هنا نتوقف طويلا.. لنرصد موقف هيكل من المثالين اللذين ضربهما بهاء طاهر.. الخروج من هزيمة يونيو والتخلص من حكم الإخوان.. إن الربط المشترك بينهما هو المخزون الحضاري للشعب المصري.. وهيكل كم كتب عن الشعب القائد والمعلم فهل كان يقوله قديما من وراء قلبه وعقله وأمام تشبيه السيارة الخربة يرى الشاعر أحمد عبدالمعطي حجازي أن هيكل يستخدم لغة مجازية لا ندري كيف نتعامل معها.. واللغة المجازية تستخدم غالبا في الكتابة الأدبية التي تستثير خيالنا وتخاطب مشاعرنا وعواطفنا من خلال التشبيهات والاستعارات التي تعبر عن المعنى بطريق غير مباشر لأن المعنى الذي يقصده الشاعر أو القصاص أوسع أو أعمق من اللفظ المباشر، فهي تلجأ للتصوير والتخيل وتضعنا في حالة شعورية نعيش بها المعنى المقصود ونتمثله دون أن نقبض عليه.. غير أننا نمر الآن بمرحلة نحتاج فيها لأقصى ما نستطيعه من توضيح

ما نقوله وتحديده لنتحاور ونتفاهم ونسلم بالحقائق الموضوعية التي لابد أن نسلم بها جميعا مهما اختلفت عقائدنا السياسية.

وأضاف حجازي إن هزيمة يونيو حلت بنا في أيام عبدالناصر.. وتعثر التنمية الاقتصادية واللجوء إلى الاستدانة وسوء إدارة المصانع والشركات المؤممة بدأ أيام عبدالناصر، وتراجع المد القومي العربي نتيجة للهزيمة التي فتت عضد القوميين العرب وأنعشت النظم العربية التقليدية بدأ في أيام عبدالناصر.. فإذا كان الفساد قد استشرى بعده في أيام مبارك ومرسي وأصبحت الدولة المصرية سيارة خربة فالنظام العسكري البوليسي الذي أقامه عبدالناصر والسلطة المطلقة التي انفرد بها وانتزع من المصريين حقهم في اختيار حكامهم ومراقبتهم ومحاسبتهم وتصحيح أخطائهم.. هذه السلطة المطلقة هي أصل الفساد وهي سبب الهزيمة.. هذه حقيقة يجب أن نعترف بها وننتظر كلمة الأستاذ هيكل فيها.. وإذا كان الفساد قد بلغ غايته في أيام مبارك فمبارك لم يكن هو الذي زرع الفساد وإنما هو الذي حصده، لقد استأثر بالسلطة وانتفع من النظام الشمولي لكنه دفع الثمن أيضا.

ولقد بدا مبارك جنديا مخلصا لوطنه، لكن النظام حوله إلى طاغية.. وإذا كان المصريون قد أسقطوا مبارك في ثورة يناير فهم لم يسقطوا النظام.. والدليل على هذا وصول الإخوان إلى السلطة، لأن كل شيء كان يعمل لمصلحتهم.. فهم الورثة الشرعيون لنظام الطغيان الذي تعرض في الثلاثين من يونيو لزلزال عنيف لا نستطيع حتى الآن أن نقدر نتائجه ولا ندري أين صرنا بعده وأين نحن الآن من هذا النظام؟. هل خرجنا منه حقا؟ أم أننا نعيد الآن إنتاجه؟.. إذا كنا قد خرجنا من نظام الطغيان بجناحيه العسكري والديني فقد ضمنا أننا في الطريق إلى المستقبل.. وإلا فسوف نظل تائهين في الصحراء.

ويختم عبد المعطي تعليقه: أريد أن أقول في النهاية إن الحرية بالنسبة لنا مسألة حياة أو موت.. وأنا أخالف الأستاذ هيكل في خوفه من أن يؤدي بنا ظمأنا الشديد

للحرية إلى فوضى يحذرنا منها فيقول إنه يرى بلدًا ينتحر بدعوى الحرية.. لا يا أستاذ هيكل.. الحرية ليست انتحارا.. إنها هواء نقي متجدد.. وهي الفطرة التي فطرنا الله عليها فإن أخطأنا فيها الطريق فهي تصحح لنا طريقنا.. ونحن بالحرية نبعث من جديد بعد أن متنا في زمن الطغيان.

وتذكرنا منال لاشين في مقالها المنشور في الفجر يوم الخميس ١٢ فبراير بأن هيكل سئل في عام ١٩٩٧ نفس السؤال: مصر إلى أين؟ في ندوة كان ضيفها فقالت منال: إنه وقتها أجاب بقصة طريفة.. حكى أن الشاعر حافظ إبراهيم تربى في بيت خاله، وأن خاله ضاق بالتكفل بنفقاته فهجر حافظ إبراهيم البيت وترك له أبياتا من الشعر قال فيها ثقلت عليك مؤونتي إني أراها واهية.. فافرح فإني ذاهب في داهية.. وما بين التصفيق والضحك غادر هيكل مكان الندوة.

تكرر السؤال رغم تباعد الأعوام، لكن الإجابة واحدة.. نحن ذاهبون إلى داهية.

بهذه الرؤية يصر هيكل على أن مصر لم تتغير بعد ثورتين شعبيتين.. وأن مشهد النهاية واحد في كل عصر.. في عصر مبارك وعصر الإخوان.. وحتى العصر القادم. وترى منال لاشين إن سر إخفاق هيكل في التحليل سببه تجاهله لدور الجماهير في اللحظات العصيبة والحرجة في تاريخ وطنهم.. فخروج المصريين ضد مبارك ومرسي.. وثوراتهم ضد الاستبداد لم يضف جديدا في معادلة هيكل.. لأن هيكل خلافا لعبدالناصر لا يؤمن بحركة أو قدرة الجماهير وقوتها الدافعة والمقاومة للتحديات وإذا كانت آراء هيكل في السيارة الخربة التي هي مصر في مرحلة ما بعد الإخوان وما قبل السيسي.. فهل لنا أن ننعش الذاكرة بما جاء على لسان حسني مبارك عندما سألوه عن توريث ابنه جمال للسلطة من بعده.. فقال لمن سأله :

ابني يورث إيه.. دي خرابة!

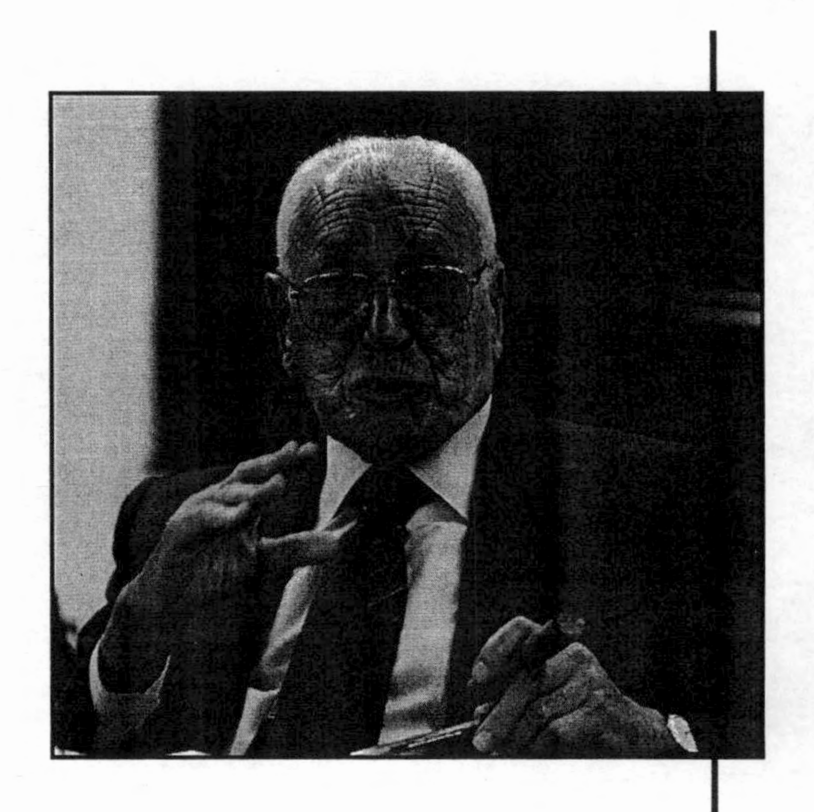
وقد أخذ هيكل على مبارك هذا التشبيه المستفز المناقض لأبسط قواعد الأدب

مع الوطن.. ثم ها هو يعود وبدلاً من الخرابة.. استبدل تشبيه مصر بالسيارة الخربانة.. التي تعطلت معظم الأجزاء فيها فبدت وكأنها قطعة من الخردة..

وإذا كان زملاء هيكل من كبار الكتاب قد استنكروا ما قال وأجيال أخرى من بعده جادلته فيما قال، لكن هناك أيضا من جاء من خارج البلاد يسعى ويؤكد لهيكل أن ما وصف به مصر ويأسه من قيامها وتمردها على خرابها ومن خربوها.. وبذلك يكون هيكل قد خسر الرهان وهذه حكاية بطلها كاتب كبير من الغرب ..



وجاء مقال الواشنطن بوست لكي يــزيح القنـــاع عــن صـــاحب «بصراحة»!



هذا الرجل الشهير جاء إلى الجامعة الأميركية في القاهرة بدعوة من المؤسسة التي أسسها هيكل لتدريب الصحافيين الشبان، وكان الهدف من المؤسسة أن تضم وثائق الرجل قبل أن تلتهمها نيران الإخوان في مزرعته الريفية.. ولكن المؤسسة هذه لم تستمر في نشاطها وأغلقت أبوابها.. ونحن قد نفهم أسباب تأسيسها وفيها وما هو شخصي لرجل أراد أن يستمر اسمه وحضوره وتأثيره حتى بعد رحيله وفيها ما هو مهني ونفترض بكل حسن النية أنها مؤسسة غير ربحية يصرف عليها هيكل من جيبه وهو يقدر على ذلك..

ونعود إلى الرجل الشهير وهو الصحافي الأميركي سيمور هيرش، وتاريخ المحاضرة نوفمبر ٢٠١١ أي قبل أسابيع قليلة من ثورة مصر.. وهيرش من أصل يهودي وأشهر مؤلفاته كتاب الخيار شمشمون الذي دان فيه ما جرى في العراق على يد أميركا.

في تلك الليلة أيضا، وكما كشف هيرش فيما بعد في مقال نشره في صحيفة واشنطن بوست يوم ١٣ أكتوبر ٢٠١٣، تبادل هيكل وهيرش حوارا جانبيا عن الثورة والجيش والإخوان أصبح بعد سنوات قليلة أكثر أهمية من موضوع المحاضرة، أو ربما كان دليلا عمليا عليها.

هيرش: لو وصل الإخوان إلى الحكم بثورة أو بصفقة أو بطريقة أخرى فإنهم سيواجهون حربا شرسة من جيش عميق مغروس حتى العنق في أمور السياسة بشكل غير مباشر وغير مرئي أو مكشوف.

هيرش: قد يحدث هذا بثورة يضحي فيها الآلاف بأرواحهم مقابل تطهير الجيش المؤسسة التي لو طهرت ستسير بالبلاد نحو مستقبل واضح مستقيم.

هيكل مبتسما فى سخرية : أى شعب هذا الذى تحدثنى عنه الذى سيضحى

بالآلاف ليطهر الدولة والجيش؟!

أجاب هيرش على ابتسامة هيكل الساخرة بابتسامة ساخرة أخرى دون تعليق مكتفيا بتسجيل الحوار الخاطف والمثير فى أوراقه الخاصة منتظرا فرصة مناسبة للعودة إليه ونشره.

وجاءت الفرصة بعد أن قام الشعب الذى سخر منه هيكل بثورتين (فى ٢٥ يناير و٣٠ يونيو) مضحيا بالآلاف من الشهداء.. حسب نبوءة هيرش.. مطالبا بتطهير مؤسسات الدولة من الفساد.. فاتحا الطريق أمام الجيش ليقود البلاد فى خط مستقيم.. متحفظا فى التعامل مع الوجوه القديمة التى نهبت البلاد تحت حكم مبارك.. معلنا الطلاق بين الثروة والسلطة بعد زواج دام سنوات طوال أنجبا فيها قبيلة من الفساد.

اتصل هيرش تليفونيا بهيكل قائلا :

هيكل.. ها هو الشعب يا صديقى قد ثار مضحيا بالآلاف مقابل حريته وكرامته.

لكن.. هيكل أغلق الهاتف فى وجهه.. ثم أغلق كل الهواتف الأخرى التى يعرف هيرش أرقامها.. حسب ما نشر فى مقاله.

وعلق هيرش على ما فعل هيكل قائلا :

«وبما أنك يا صديقى تعرف أننى عنيد.. سأقول لك : «كن شجاعا» وأعترف أنك قلت إن الجيش يجب أن يبتعد عن السياسة ويلتفت إلى عدوه الأساسى ويترك الحكم لأى حكومة حتى لو كانت «حكومة اسلامية».. وأنك قلت إن الحكومة الإسلامية هى الوحيدة التى يمكن أن تجبر العالم على القبول بمصر فى وضع جديد.. وأن الليبراليين والإعلاميين أغلبهم مجندون للأجهزة الحساسة».. بما يوحى بأن لا فائدة ترجى منهم.

وكرر هيرش : «إن هيكل ليس شجاعا بما يكفى.. بدليل مساندة الجانب الخطأ».

مضيفا : «إن هيكل الذى كان يحترمه قد اختفى بعد أن سقط القناع عن وجهه».

وزاد هيرش فى سحب صفة الشجاعة عن هيكل مستطردا : «لماذا خالفت مبادئك.. وساندت الجيش.. ووقفت فى الجانب الذى كنت تعتبره الجانب الخاطئ».

وأنهى هيرش مقاله الحاد قائلا : «افتح تليفونك يا هيكل فأنا لا يشرفنى الاتصال بك ثانية لقد اختفى هيكل الذى أحترمه وسقط القناع عنه».

هنا نسجل عدة ملاحظات :

الأولى : إن هيكل لم يثق فى الشعب المصرى الذى تحدث عنه أكثر من غيره أكثر من ستين سنة.. وعبر عن ذلك بالسخرية من قدرة الشعب المصرى على القيام بثورة وتقديم آلاف الشهداء ويطهر مؤسسات الدولة نحو الطريق الصحيح.

الثانية : أن هيكل يرى فى الحكومات الإسلامية ما لايراه فى غيرها فقد كان على العلم بالخطوات التى سبقت وصول مرسى إلى الحكم.

الثالثة : الصحف المصرية امتنعت عن ترجمة مقالات «سيمور هيرش».. إكراما لهيكل ومنعا لاحراجه.

الرابعة : أن هيكل يزهو بمجموعة من الصحفيين والكتاب والاعلاميين تحيط به وتثق فى كل كلمة يقولها أكثر مما تثق فى نفسها.

ولكن ما يضيف عادل حمودة فى الملاحظة الرابعة. ان اغلب هؤلاء عملاء للأجهزة الحساسة.. ولهذا أردت أن انسبها اليه فهو أدرى بها منى.. وقد يسأل القارئ لماذا يهاجم حمودة بهذه القوة وسنتركه يجيب بنفسه ويقول كل ما عنده.

أنا وهو

يقول عادل حمودة معترفًا : بينى وبين هيكل من التشابهات.. وكثير من الاختلافات.

ولد هيكل فى حى الحسين.. وانتقل إلى شارع «الجيش».. فى اتجاه حى العباسية.. حيث ولدت.

فلكيا.. يبدأ برج الميزان بيوم ميلاد هيكل.. يوم ٢١ سبتمبر.. وهو نفس البرج الذى ولدت فيه.. ولكن.. يوم ١٥ أكتوبر.

بدأ هيكل مشواره مع الصحافة المصرية فى روزاليوسف.. وهى نفس المجلة التى ولدت على صفحاتها.. وعشت فيها نحو ثلاثين عاما من عمرِى الصحفى.. ولكن.. هيكل لم يستمر فيها طويلا.. ولا يحتفظ أرشيفها إلا بمقالين كتبهما مديحا فى الملك فاروق.. الأول فى العدد ٨١٨ بعنوان « إنه الفاروق».. والثانى فى العدد ٨٣٠ بعنوان «فى يوم عيدك يا مولاى».

كانت مناسبة المقال.. زيارة الملك لمناطق مصابة بالكوليرا فى جنوب الصعيد.. وصادف يوم الزيارة يوم ميلاده.. فكتب هيكل :

«الملك فى الصعيد.. الملك يزور مناطق المرض بنفسه ليشرف على ما يجرى وليواسى شعبه.. هذا هو النبأ.. النبأ العظيم الذى لم يكن يدهش له أحد ولم يعجب له أحد.. ولكن الناس جميعا أضاءت عيونهم بنور الأمل والثقة وتقابلت أنظارهم فتبسموا ابتسامة حب وحنان.. إنه الفاروق.. إنه الفاروق دائما.. فاروق الأمس.. فاروق اليوم.. وفاروق الغد».

وفى فقرة أخرى يضيف هيكل :

«ذهب الملك إلى شعبه الذى هتف له من أعماق قلبه.. يعيش فاروق منقذ الصعيد.. يعيش فاروق حبيب الفلاح.. يعيش فاروق نصير الفقراء.. زيارتك

شرفتنا يا مولانا.. إحنا فى حلم يا مولانا.. هذه ليلة القدر.. هذه الزيارة بعثت فينا الحياة.. نريد أن نقبل يدك.. رفعت رأسنا وشرفت مقدارنا.. وقال الملك : بل أنا منكم.. وهتفوا له : فاروق.. فاروق.. فاروق.. أجل إنه الفاروق».

وكانت مناسبة المقال الثانى الذكرى الثامنة لجلوس الملك على العرش.. وكتب هيكل :

«ثمانى سنوات وأنت تحمل مسئولية هذا الوطن وهذا الشعب.. كنت فيها نعم الملك الدستورى فى ظروف لعلها أدق ما مر فى تاريخ حياتنا.. أوليس الفاروق الذى قال ذات مرة : إننى أحب قيادة السفينة فى العاصفة».

وينهى هيكل المقال قائلا :

«يا مولاى.. هذه ثمانى سنوات وأنت وهذا الشعب تتقاسمان السراء والضراء فى ظروف الحياة بأزهارها وأشواكها.. وستبقيان معا إلى الأبد لأن رباطا من الحب يوثق بينكما.. رباط من الحب الخالد».

ولا يخطىء من يقرأ المقالين سيطرة الأسلوب الأدبى على ما كتب.. بما لا يوحى بميلاد محلل أو محرر سياسى كما عرفنا فيما بعد.. هيكل صائغ بارع.. يستخدم التشبيهات إذا ما عجز عن الوصول إلى معلومات.. أما مرحلة المستندات فلم يدخلها إلا عندما أصبح قريبا من السلطة الناصرية.. وجزءا منها.

أراد هيكل أن يجد لنفسه أسلوبا مميزا فى الكتابة.. وكان ذلك هاجسى أيضا.. بل.. إننى دخلت روز اليوسف ومعى «كشكول» يضم قصصا قصيرة.. لكن.. صلاح حافظ فاجأنى قائلا : «إننا بعد هزيمة يونيو لم نعد بحاجة إلى أدباء.. أصبحنا فى حاجة إلى صحفيين.. لقد تحول الروائيون مثل يوسف إدريس وفتحى غانم ويوسف السباعى وغيرهم إلى محللين».

لكن.. روز اليوسف لا تعترف بصحفى لا يمتلك أسلوبه الخاص مهما كانت

أهمية مادته.. هذه عقدة المكان الذى يكاد لا يوجد اسم لامع فى الصحافة المصرية لم يمر عليه.

والمؤكد أن سر هذه العقدة محمد التابعى الذى أسس هو وفاطمة اليوسف «روز اليوسف».. وكان أسلوبه السهل الجذاب انقلابا حادا فى الكتابة الصحفية.

وبينما بقيت فى روز اليوسف نحو ثلاثين عاما لم يستمر هيكل فيها سوى عدة شهور.. فطموحه كان يستعجله بحثا عن مكان آخر يمنحه بتميزا معنويا وماديا.

ولكن.. الجيل القديم فى روزاليوسف نقل إلينا تميمة شخصية أدت إلى صدام بين هيكل وإحسان عبدالقدوس الذى قال فيما بعد : «إن هيكل يستولى على الرأس الكبير فى أى مكان.. استولى على عقل والدتى.. ثم عقل محمد التابعى.. ثم عقل على أمين.. ثم عقل جمال عبدالناصر».

ومنذ أن غادر هيكل روز اليوسف لم يدخلها إلا بعد خمسين سنة بدعوة منى سجلت إقبالا مذهلا كاد من شدة الزحام أن يحطم الواجهة الزجاجية لمدخل المبنى.. ويومها لم يتحدث هيكل عن ذكريات المكان.. ودخل مباشرة فى قضايا الزمن.

ولم أجد نجما صحفيا واحدا ممن لمعوا على صفحات روزاليوسف يميل إلى هيكل.. ويعتقد البعض أن شخصية هيكل أوحت لكتاب عرفوه عن قرب بأعمال روائية مثل فتحى غانم «الرجل الذى فقد ظله» وإحسان عبدالقدوس «وغابت الشمس ولم يظهر القمر».

وحسب ما سمعت من هيكل فإن فتحى غانم قال له ذات يوم : «أهلا بالرجل الذى فقد ظله».. فرد عليه هيكل : «وأهلا بالرجل الذى فقد عقله».

وقد وجد هيكل نفسه فى آخر ساعة.. ثم أخبار اليوم.. وأخيرا استقر فى «الأهرام».. ليقفز بها إلى مصاف الصحف الكبرى فى العالم.. وعندما أخرجه

السادات منها لم يعمل فى صحيفة أخرى.

وكانت الأهرام أيضا.. آخر صحيفة حكومية أعمل فيها.. لكننى خرجت منها لتأسيس صحيفتين مستقلتين هما صوت الأمة والفجر.. كانت بمثابة قاعدة انطلاق لصحافة خاصة فرضت نفسها على الصحافة والسياسة فيما بعد.. أما هيكل فقد تفرغ لتأليف الكتب ونشر مقالات فى صحف متنوعة خارج مصر.

وما يلفت النظر أن هيكل لم يكن مالكا لمؤسسة صحفية واحدة.. لكنه.. بعد تأميم الصحافة أصبح مسيطرا على غالبية المؤسسات الصحفية.

وبينما لمع نجم هيكل من اقترانه بالسلطة عرفت طريقى إلى الضوء بالجنوح ناحية المعارضة.

وبينما يفضل هيكل الاحتفاظ بما يتوافر لديه من معلومات حتى يأتى يوم يضعها فى كتاب أجدنى متسرعا فى تقديمها للقارئ طازجة.. وساخنة.. وفى وقتها.

وبينما تركز انتقادات هيكل على أمور عامة مثل الفساد والتوريث وضعف الحكم لا أتردد فى أن أكشف عن وقائع بعينها.. بأسماء أصحابها.. وفى الحالة العامة لايشعر أحد بأنه المقصود.. وفى الحالة الخاصة تكون المواجهة مباشرة وواضحة وحادة بين من نكتب عنه بكل ما يملك من نفوذ ومال وقدرة على توظيف الحروب القذرة وبين الحقيقة.

وأتذكر أن هيكل نفسه قال : إن الآراء لا تؤثر بنفس القدر الذي تؤثر به المعلومات.. زكريا عزمى وهو ضلع قوى فى نظام فاسد تحدث بنفسه عن الفساد.. لكنه.. لم يكشف عن واقعة واحدة محددة.

وكان الثمن الذى دفعته فى مواجهة ديناصورات الفساد باهظا.. قضايا لاتتوقف.. تشهير لا ينتهى.. ومؤامرات قذرة دبرت للنيل من سمعتى.. وفى نفس الوقت كان هيكل يستقبل فى بيوته رجال الأعمال الذين كشفت صفقاتهم المريبة

وثرواتهم الحرام.

ولو كان ما تقدم ملاحظات سريعة لم أشأ الدخول فى تفاصيلها لأننى طرف مباشر فيها فإنى أترك الصورة الدقيقة والكاملة ليرسمها مخرج وكاتب سينمائى ومؤرخ مخضرم هو أحمد فؤاد درويش.

لقد تابع درويش ما نشرت من مقالات عن هيكل فى «الفجر» وتفضل بالتعليق عليها عبر رسالة من ١٠ صفحات.. وصلتنى عبر البريد الالكترونى.. كتبها بعنوان «تحولات هيكل من التهافت إلى تهافت التهافت».. أ تصور أنها ستكون رؤية خارجية لما بينى وبين هيكل من متشابهات واختلافات.. ولنقرأ ما قال :

إذا جال بخاطرك أن محمد حسنين هيكل وعادل حمودة كل منهما فى جيله، وإذا اتفقت أو اختلفت مع كتاباتهما وإذا بهرت «بخبطات صحفية» لكل منهما أو أعجبت بالكم المعرفى لأى منهما، وإذا كان هيكل أو حمودة هو الصحفى اللامع النافذ لصانع القرار والسياسى الماهر والمفكر الأعمق، فالسؤال : ألم يجل بخاطرك أيضا فيما يوظف كل منهما فطرته وموهبته؟. ما هو الوجدان المسيطر على عواطفه؟. إلى ماذا يهفو قلبه؟

كثفت فى ذهنى معانى المعلومات كمخرج سينمائى وكاتب روائى فاهتديت إلى أن وجدانى هيكل وحمودة قد تشكل كل منهما فى العشرين من عمره.

أصبح هيكل يتطلع ليعيش «عيشة» الباشوات وهفا قلبه إلى الشاطئ الشرقى للولايات المتحدة حيث ترتفع فى نيويورك تمثال الحرية.. وعشق هيكل الأسطورة الأمريكية بالعاطفة أولا (فى سن العشرين) ثم أرتمى فى أحضانها بالمصالح ثانيا بعد أن أرشده مصطفى أمين الى روشتة كيف تحب أمريكا (كان محمد التابعى قد علم هيكل قواعد الحرفية الصحفية وأضاف إليه مصطفي أمين وعلى أمين الكثير منها).. وبصرف النظر عن السطحية الشديدة فى فكر مدرسة

«أخبار اليوم» التى ترى أن الخبر الأهم هو أن رجلا عض كلباً وليس أن الكلب عض رجلا، فلقد انقلب هيكل على أساتذته الثلاثة بطريقة سجلتها الروايات والمقالات، فى حين أحب حمودة «عيشة» الطبقة الوسطى المصرية ومال قلبه (فى سن العشرين ولايزال) إلى أفكار العدل الاجتماعى والسياسى فى مصر والعالم الثالث تجسدت فى سلطة أبوية ثورية وطنية وتمثلت فى إطلالة جمال عبدالناصر على جيل حمودة وزعامته لأمة عربية امتدت منذ المحيط الاطلنطى إلى الخليج العربى.

وهكذا.. ومنذ سنوات الأربعينيات وحتى اليوم لم يتغير وجدان هيكل من شاب من متوسطى التعليم علم نفسه بنفسه وأدرك أن مدرسة الرجل الذى عض الكلب لا قيمة لها أمام الفكر الوطنى والليبرالى والاشتراكى فى الاربعينيات واكتشف أنه يملك موهبة التعبير الأقرب إلى الأدب وليس الأدبى فلماذا لا يقترب من الباشا الفلانى ورئيس الوزراء العلانى أو حتى مولاى جلالة الملك المفدى ليوظف أفكارهم بأسلوبه الأقرب إلى القصة القصيرة وللالتفاف حول المنطق الفطرى الذى يتمتع به أى قارئ.. لإقناع هذا القارئ نفسه بعكس الحقيقة أو بحقيقة تمسك العصا من النصف أو قد يكون هدف القدرة على التعبير عند هيكل الوصول بالقارئ أو المشاهد فيما بعد ألا يفهم شيئا حتى ينصرف عن الموضوع مهما كانت أهميته، وقد أدرك الباشوات وحكام تالون لهم (يرى عادل حمودة أنهم ملك وسبع رؤساء والبقية تأتى) قدرته على التعبير فأسندوا إليه الدور الأثير إلى نفسه.. دور «باشكاتب الحاكم» فالتعبير يمرر السم فى التفكير.

ولما كنت قريبا جدا من محمد سيد أحمد (الأستاذ الحقيقى لهيكل فى استيعاب تطورات الفكر السياسى بمنهاج ديالكتيكى) منذ عام ١٩٦٩ فلقد أبلغنى أن عبدالناصر كان يطلب من هيكل صياغة كلمات جميلة ولكن واضحة.. ونجح هيكل فى ذلك عندما صاغ خطاب عبدالناصر إلى جون كيندى عام ١٩٦١ فى عبارات مثل «لقد أعطى من لا يملك وعدا لمن لا يستحق».

يكتب هيكل ويتحدث بأبيات من الشعرى العربى والانجليزى فى أمـور كثيـرة إلا أن المتابع عن كثب يلتقط نقطة الضعف التى يعانى منهـا منـذ شـبابه.. عنـدما يتحدث عن أمريكـا تختلـف نبـرة صـوته مـن الثقـة الى الاسـتكانة ويـردد كلمـة إمبراطورية عدة مرات ويؤكد أنها باقية على رأس كوكـب الأرض ٥٠ عامـا قادمـة على الأقل.. يدافع عـن أمريكـا أكثـر مـن دفاعـه عـن عبدالناصر أو يـدافع عـن عبدالناصر إذا وجد أن الدفاع عنه يكسبه نقاطـاً جديـدة فى الحلبـة.. ويـدافع عـن أمريكا أكثر من دفاعه عن مستقبل مصر فى جميع الحالات.

ولا أنسى أن مفكرا عظيما مثل ميشيل كامل (الأستاذ الحقيقى للطفـى الخـولى والسبب الرئيسى وراء كل ما حققته مجلة الطليعة من فكر عميق) كـان يؤكـد لى : (إن أمريكا تسكن عقل هيكل من أيام أخبار اليوم مثلما يسـكن الحـاكم عقلـه «فى كل العصور»).

وعن لطفى الخولى يقول ميشيل كامل : «لطفـى الخـولى مقـاول أنفـار اليسـار المصرى يوردهم لهيكل للتحفظ عليهم داخـل الأهـرام وقـد يكـون بعلـم جمـال عبدالناصر».

«أما عادل حمودة فلقد ظل وفيا لأبناء الطبقة الوسـطى فى مصـر ولم يـنس قـوى الشعب العامل من فلاحين وعمال وجنود وطلبة وظـل خصـما عنيـدا يرقـب أى فساد فى الرأسمالية الوطنية (حتى ١٩٧٥) وما تبعها مـن رأسـمالية غيـر وطنيـة.. رأسـمالية السماسـرة (الكـومبرادور) فى زمـن التراجـع عـن التقـدم والتنـوير (السادات) وزمن الانحطاط (مبارك) وزمن اللازمن والانهيار الكامل (الإخوان).

كانت مصر الزمـان والمكـان (جمـال عبدالناصـر) ومصـر الـوطن والمـواطن حاضرة دائما فى قلب وعقل حمودة.. وما تجربته فى روزاليوسف (قبل وبعد صلاح حافظ) إلى إبعاده إلى الأهرام إلى تأسيس جرائد عرفت به إلا شاهدا على عناده حتى لا يبيع نفسه وإصراره ألا يفقدها.

.. ويواصل المخرج أحمد درويش استعراضه لتاريخ هيكل ويسأل :

«كيف تحالف هيكل مع السادات مجندا خبرته وملكاته لخدمة تمكين السادات عضو الحرس الحديدى الفاروقى وصديق المخابرات الألمانية فى مصر وصاحب الحلم الأمريكى من ضرب وإبعاد وتشويه صورة رجال لا يقلون وطنية وكفاءة عن جمال عبدالناصر.. كيف يتفاخر هيكل بأنه «المهندس الحقيقى للثورة المضادة يوم ١٤ مايو ١٩٧١؟». لماذا نهش هيكل ورثة عبدالناصر وخطط لاعتقالهم وحبسهم؟. وبخلاف بوصلة واشنطن التى تحركه ويتحرك بها.. ما هى المصلحة الشخصية المباشرة (باستبعاد مصلحة الوطن طبعا).

ويضيف درويش : يمكننى أن أرى بخيالى أن هيكل هو الذى زين لعبدالناصر أسوأ قراراته وهو تعيين السادات نائب رئيس الجمهورية.. وكنت يومها (ديسمبر ١٩٦٩) فى بعثة بالأكاديمية المصرية بروما حيث استمعت إلى محطة إذاعة هناك وهى تعلن أن تل أبيب ترى أن هذا القرار هو إعلان للعالم أن مصر تفتقد إلى القيادات.

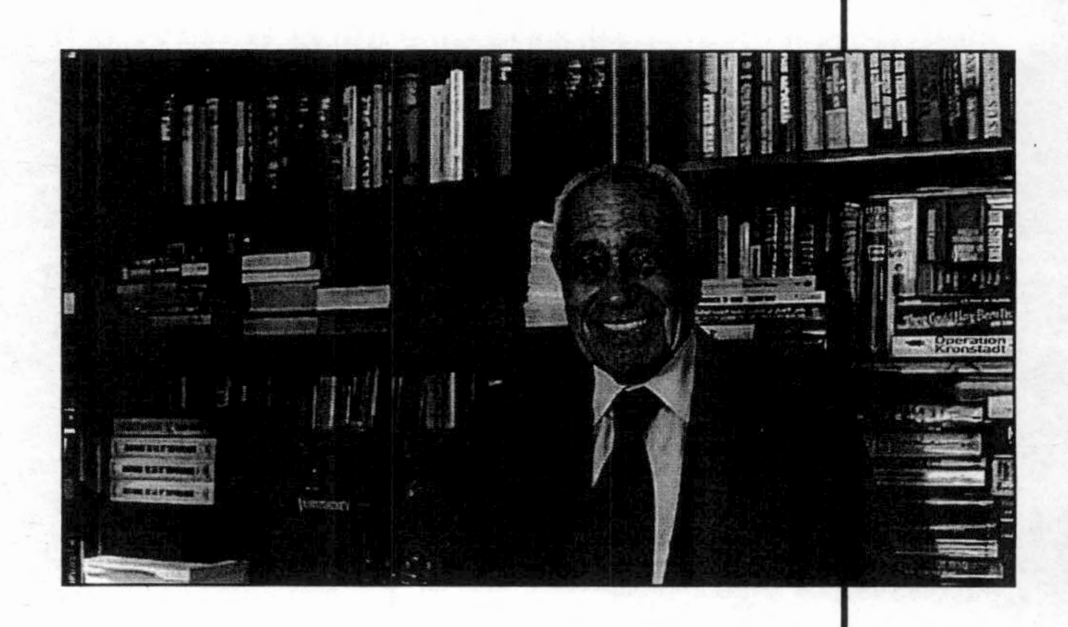
والمدهش أن إيقاع هيكل فى الكتابة وفى برنامج تجربة حياة على قناة الجزيرة القطرية وفى اتصالاته الشخصية متوافق وبهارمونية كاملة مع جماعات الإسلام السياسى ومع «البوب» محمد البرداعى المقرب لهيكل ومع المهندس مصطفى حجازى الذى وصفه فى صالون عبدالله السناوى بأنه مفكر.. وهكذا أصبح هيكل صديقا وناصحا وهاديا لقيادات تنظيم الإخوان الإرهابى.. وهو التنظيم الذى لم يذكره بكلمة واحدة فى الصالون الذى أضر بالسناوى أكثر مما نفعه.. هكذا.. كان علينا أن نصبر على الإخوان حتى يكمل مرسى ثلاث سنوات أخرى كنتيجة يأخذنا هيكل إليها.

ونحن نوافق حمودة على «مسئولية هيكل عن الكوارث الإنسانية التى لحقت بمصر طوال الأربعين سنة الماضية».. وإذا ما سألت هيكل سيرد : «أنا لا شأن

لى.. أنا مجرد جورنالجى» وفى عام ٢٠٠٢ كان هيكل يردد «أن السلطة شاخت فى مواقعها».. وفى هذا التوقيت ألقى محاضرته فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة حيث روج حواريوه وقتها أنه أول من تحدث عن توريث الحكم فى مصر.. ثم كانت محاضراته عام ٢٠٠٥ التى اتضح فيها مدى الضوء الأخضر الأمريكى لإزاحة مبارك وابنه والبديل جاهز فى الشارع.. تنظيم الإخوان دون أن يذكره هيكل بالطبع.. إن مشكلة هيكل هى رغبته فى الخلود.. لا يريد أن يعترف بأن كل من مروا بالدنيا من ملوك وكهنة وحكام وجنرالات وصعاليك ومجانين اختفوا بنفخة واحدة من الزمن وكأنهم مجرد ذرات تراب.

(٢٣)

أحب الكرة مثل المصريين لكن فرحتي الكبرى مع «الجبرتي» و«ابن إياس» !



تسأله لميس الحديدي في لقاء تلفزيوني تزامن مع بداية عام جديد (٢٠١٥) في سلسلة حوارات جاءت تحت عنوان مصر أين.. ومصر إلى أين.. وطلب منها بأسلوبه المهذب أن تتمسك هي بأسباب التفاؤل وان تترك له أسباب البحث عن الحقيقة.. ولكنه تحدث عن أبوابه الخاصة ومنها العودة إلى المؤرخين العظام في تاريخ مصر، وهم : ابن إياس، والجبرتي وهما من أرخا العصر المملوكي بمسافة ٥٠٠-٦٠٠ سنة، وهي السنوات التي أثرت بشكل كبير في الضمير المصري والأخلاق والسلوك والمعايير، وتلاحظين أننا لدينا استعداد لأن نفرح، لكن حياتنا بها أشياء كثيرة تسبب الضيق، والظروف قد تكون صعبة بعض الشيء، حتى ضمن المماليك كان هناك مماليك ومماليك صغار، ويقاس كل أمير بالطبلخانة التي أمام منزله، بعضهم أمامه طبلخانة ١٠، والآخر طبلخانة ٢٠، وهكذا حتى إذا جاءته مناسبة بعينها تبدأ عملية التطبيل، وكانت وقتهم تقاس بعدد الطبول أمام منزلهم، ومرات لما النساء تعز عليها الآمال في تحقيقها، يلجئن إلى الأوهام والإبهام، ويحاولن في ذلك تصديق أنفسهن ويبحثن عن الفرح، وقد شاهدتك في إحدى الحلقات، وأنت تتحدثين عن فرحة المصريين بالكرة.

وقالت لميس: أنا كنت أتحدث لأني أهلاوية؟

وأجاب: وأنا كذلك، لكني الآن كبرت سناً على الكرة، ولم ألعبها قط، لكني مهتم بها مثل بقية المصريين، وأعود لحلقتك، كنت تبحثين وقتها عن سعادة كبيرة، وليس ماتش كورة، وأنا أيضا أبحث عن فرحة، وأريد فرحة حقيقية، أريد أن أقول إننا لا نبحث عن الحقيقة، لكننا لم نبذل الجهد الكافي، ودائماً الناس عندما لا يقتربون بأنفسهم من الحقيقة هي تجدهم بنفسها، فالحقيقة لها قوة ذاتية، أن تدهم هؤلاء الغافلين عنها أو من لا يريدون أن يشاهدوها، أنا كنت قادم من السفر، وأنت تعلمين أنني أحاول في كل فترة من الفترات أن أخرج خارج مصر، حتى أطل عليها الخارج، ولأن الجو السياسي في مصر فيه التباس وبه تلوث.

وأضاف هيكل: في لندن مثلا هناك مسألة مهمة، عندما تسألين في الدوائر، هل تغيرت يا ترى سياسة الغرب تجاه النظام في مصر؟،.. هنا سوف تسمعين كلاما كثيراً جدا، وواقع الأمر لم تتغير، هو متقبل الأمر الواقع الذي حصل، حيث اقتنعوا لفترة من الفترات أن ثمة إسلام معتدل يمكن التعاون معه، وآخر لا يمكن التعاون معه، وهذا اتضح لكن مازالوا هم غير مقتنعين وخائفين جدا من التقاء القوات المسلحة مع الوطنية المصرية، كان باستمرار لديهم ولدينا أن الجيش المصري تحول إلى جيش السلام، وليس جيش الوطنية، من أول كامب ديفيد، لكن يشعرون أنه كلما اقترب من الحيوية الوطنية، ليسوا سعداء.

وتسأله لميس : وماذا وجدت في باريس بعد لندن يا أستاذ بشأن مصر. فقال هيكل :

في باريس ذهبنا للسوربون ومن حسن حظي أنه كان هناك مؤتمر ودائرة مستديرة لخمسة من الأساتذة ونسمع منهم عن مصر أكثر مما يمكن أن نسمع عنها لو مكثنا هنا عشرين عاما، ووفق البروفيسير جون ريكا وهو من أهم أستاذة العلوم السياسية في أوروبا، وقد بدأ حديثه فيما بدى لي وكأنه ألغاز للوهلة الأولى، حيث قال مصر محشورة بين العميق وبين الضروري، ما هو العميق والضروري، العميق هو الموروث الذي لا يمكن أن تتخلص منه، والضروري هو العصر الذي لا يمكن الابتعاد عنه، وما بين الاثنين هناك خاصية كبيرة في مصر، أنه لا يمكن لمصر أن تنسى شيئا، حيث تحولت إلى مخزن دولاب لا يرمي شيئا، القديم يدخل على الجديد، وهكذا.. لكن الأمم في وظيفة الأحزاب السياسية والتنظيمات السياسية، هناك وظيفة مهمة جدا هي فرز العقل العام ما بين وقت وآخر لكي نعلم ما هو حقيقي وما هو ضروري، في هذه اللحظة وما هو الذي يجب أن يتم مراجعته.

نجاح كامل

ووصل هيكل في حديثه إلى محطة السيسي وأكد أن نجاح هذا الرجل لابد أن يكون كاملا وشاملا وهو يحتاج إلى أشياء كثيرة، وحاولت لميس الحديدي أن تثير

شهية الأستاذ وسألته عن عودة رجال مبارك وهل هي مسألة تدعو للخوف؟.. وهل السيسي يستعد لذلك والى أي درجة.. وقال هيكل مستشهدا بتصريح للرئيس السيسي: لا عودة للوراء.. ولكنه يشعر بالشك تجاه هؤلاء الرجال، الذين يتسللون واحداً بعد الآخر.. وهنا تأكد قول هيكل حيث أراد احمد عز النزول إلى الانتخابات البرلمانية (٢٠١٦).. وعندما عادت تسأله عن وجود عز في حوار تلفزيوني على فضائية من الفضائيات دون أن تذكر اسمه قال هيكل:

أنا لا ألوم الصحافي الذي فعل ذلك لكن ألوم المناخ العام الذي سمح لبعض الفضائيات التي تحولت لأحزاب وألوم الجو الذي يقف خلف هذا لأني أعتقد أن أنياب المصالح ظاهرة بأكثر مما تقتضيه الأمور وهناك بيت شعر يقول إذا رأيت نيوب الليث بارزة.. فلا تظنن أن الليث يبتسم فالابتسامات التي أراها في كل مكان ضاحكة هي استعدادات للفتك وليس للضحك وبالطريقة الحالية أنا أرى أن الرئيس السيسي أن يقوم بثورة حتى على نظامه. وهذا ليس مستحيلاً فمستقبل هذا البلد يحتاج إلى نظرة متجددة.

ولما أرادت لميس أن تسأله عن لقاء جرى بين هيكل والرئيس السيسي جاءت الإجابة غريبة للغاية لأنه قفز إلى أمر يخص أولاده في واحدة من الإشارات النادرة التي تخص أولاده.. وهو الرجل الذي تعود على عدم الرد على كل الهجمات التي تعرض لها من جميع الاتجاهات ومن أقرب تلاميذه في مدرسته.. فقد قال: أنا رأيته مرة بالفعل، ولا أعرف لماذا تسألين في هذا الأمر، لكن هناك قاعدة أنا أترك للآخرين حرية الاتصال بي من عدمه، ولكن الرئيس مبارك لم أطلبه في حياتي سوى مرة، وأنا لم أرى سوزان مبارك ولا مرة، وهناك ناس تتطرق لهذا وهذا يضايقني، ويقولون أن أولادي شركاء أولاد مبارك، رغم أنهم لم يروهم ولم يعرفوهم أصلا، كل الناس في زمن من الأزمنة كانوا يريدون رؤية أولاد مبارك، أولادي لم يقتربوا، حتى من باب الحرج أن يفعلوا هذا ولا أريد العودة لهذه التفاصيل.

وتدرك لميس أن الرجل الحريص ربما اندفع في هذا الأمر.. ولأنها من

محاسبيه تعود على الفور إلى مجرى الحديث عن السيسي ويقول لها: أنا أعتقد أننا نتحدث عن رجل كان لديه تصور للمشاكل، لكن أنا أعرف أنه وجد ما لا يتوقعه، فهو صحيح يعرف كل شيء ويحفظ الأرقام كلها، وتصور الحقيقة في الأرقام، لكن الحقيقة أعمق من الأرقام.. وأنت تتساءلين لماذا لا يوجد حسم؟.. وعلى سبيل المثال أظن أنه ليس بوسع أحد أن يعرف لماذا الشباب غاضب بهذا الشكل؟ ولهذه الدرجة؟ انه شيء مفاجئ ولابد أن نكون منصفين، أن هؤلاء الشباب ابتعدوا عن العمل السياسي لفترة طويلة، سواء لظروف أنه وثق في عبدالناصر، وعاش في خنادق الحرب لسبع أو ثماني سنوات، ثم شاهد الانفتاح وذهل مما هو فيه، وأتحدث عن الشباب المستمر، وعندما نبتعد لجأ إلى الوسائل الاجتماعية الجديدة التي بها قدر كبير من المصائب بمقدار ما هي مفيدة.

الشباب الجديد الموجود الآن هو نافذ الصبر، فالظروف الاقتصادية والاجتماعية تمارس ضغوطا عليه ويشعر أنه لم يدرب على السياسة، وأتذكر قديما جداً أن هناك قسم اسمه قسم المخصوص، نلعب فيه الرياضة وأخر للمزيكا، وكان محمد عبدالوهاب مدرس مزيكا، لم يعد هناك شيء من هذا الآن، الشباب تربيته في التعليم جافة جداً لا يوجد شيء ذات معنى إطلاقا، لا يوجد سوى التخريف وعذاب القبر، فأنت أمام شباب غاضب، وأعتقد أن الرئيس السيسي الذي يحفظ أرقام المتعطلين لم يضع في اعتباره الحالة النفسية لهؤلاء المتعطلين، هناك شباب غاضب يشتم ولابد من النظر إليه بعين الاعتبار.

السن لها أحكام

في محاضرات هيكل بمعرض الكتاب أو في الجامعة الأميركية خاصة في زمن مبارك.. كان الشباب يحضره بقوة.. ربما بحثاً عن حكمة يقود به حماسة.. ولان الرجل يتكلم على راحته من خارج مؤسسة الرئاسة.. والشباب يعرفون بحكم شهرة هيكل وتاريخه.. انه يعرف كيف يكون قريبا من مصادر الأخبار.. حتى بعد

أن ترك هيكل قلمه.. وتفرغ لأحاديث تليفزيونية وأحيانا صحافية.. فيها من الحكي أكثر مما فيها من تأملات وربط وتفكيك وتحليل ومعلومة قد لا تجدها إلا في أوراقه فقط دونا عن غيره من أهل الأقلام.

ورغم ذاكرة الرجل القوية فإن الأجوبة غالبا ما تبحر به إلى محيطات واسعة من موجة إلى موجة.. وهنا تسعفه معلوماته وحكاياته وأبيات الشعر التي يزخرف بها أقواله.

ويذكرني هنا الأستاذ بأسلوبه الرشيق بسائق ميكروباص ماهر.. يعرف طريقه جدا.. ويجيد المناورة وسط الزحام باقتدار.. يعرف متى يسرع؟.. ومتى يبطئ؟.. ومتى يركن إلى جانب الطريق؟.. وهو دائما وأبدا يفخر بأن ميكروباصه يحمل شخصيات هامة وتواريخ خاصة وحكايات لن تجدها مع سواه.. إلى جانب وثائق قد لا تجدها إلا عنده ومع ذلك سألت نفسي مراراً وتكراراً: لماذا انقلب عليه تلميذه النجيب عادل حمودة؟.. هل لأنه استشعر بدرجة الاستاذية التي بلغها حمودة وأدرك أن سن الفطام قد وجب وان تكون له مدرسته الخاصة به.. وقد رأينا حمودة بلغة السنيما يعيش في الدور على أنه هيكل ٢ .. تعشيت مع فلان، قابلت فلانا في باريس أو لندن، طلبني المسؤول الفلاني.. وحمودة بلا جدال علامة صحافية ومدرسة تخرج منها إبراهيم عيسى ووائل الإبراشي وإبراهيم منصور وعبدالله كمال.. وهو على حد تعبير عيسى فإن حمودة كبيرهم الذي علمهم السحر أم أن حمودة عندما اقترب أكثر من هيكل رأى الصورة أوضح خاصة بعد تبدل العصور والأحوال في إيقاع سريع لم نعهده ولم نتوقعه أبداً في مصر.. مبارك الذي تم خلعه، والمجلس العسكري الذي حكم رغم انفه.. ومرسي الذي جاء من تحت الكوبري، وعدلي منصور.. الرئيس المؤقت الذي قاد الدفة في أصعب الأوقات وظل هادئاً ورزينا حتى في أكثر الأوقات اشتعالا ثم أخيرا المنقذ السيسي الذي أدار البوصلة إلى حيث تسترد مصر روحها المفقودة ومكانتها الرائدة.. وربما كشفت التحولات هذه أقنعة كثيرة راهنت على السلطان ونزلت بثقلها.. ثم فجأة وجدته يطير ويتغير.. فإذا بها تبحث بسرعة عن القناع المناسب للرئيس المناسب أنها لعبة

المصالح كما وضعها هيكل.. وكما صدق حمودة على هذا الوصف.

وقد امتدت علاقة هيكل مع حمودة لأكثر من عشرين عاما.. ونشر عنه كتابه الأول هيكل .. الحياة والحب والحرب ثم جمع بعض حواراته معاً في كتاب آخر لعبة السلطة في مصر.

ويسأل حمودة: ويجيب ما الذي يدفعني بعد كل هذا للاختلاف معه وجها أخر له؟ ما الذي جعلني أراه بعيون أخرى غير التي رأيته بها؟ ما الذي حرضني على التوقف طويلا عند تحولاته وانعطافاته وتغيراته؟

وعندما أراد هيكل أن يهديني كتابه زيارة جديدة للتاريخ جاء الإهداء على الوجيعة وقال فيها:

إلى هؤلاء الذين يملكون الجرأة على مراجعة المألوف والمعروف.. وأنفسهم.. وتصورت إنني امتلك النفس عملا بنصيحة الأستاذ.

وتشجع حمودة وقبل النصيحة.. وأراد أن يطبقها على صاحبها!!

من زاوية أخرى

هذه صورة أخرى لواحدة من مريدي هيكل أنها سيدة الكلمة سناء البيسي.. هذه الصورة رسمتها في مقدمة حوار طويل مع الأستاذ : لأن الرتوش والظلال والزوايا المختلفة تجعلنا نرى الصورة بشكل أفضل وقد كتبت البيسي تقول:

جاذبية هيكل آسرة.. ومغناطيسيته لا فكاك منها.. وسحره مسألة لا تقاوم والانبهار به يحلق فيه ناظريك، وشغله بحيويته المتدفقة لأبعاد الصورة الأربعة أمام أمر محتم.. فمقدرته أن يصبرك فاغرا فاك مأخوذا بذخائره، وتصبح فجأة مركزا لاهتمامه لكن عليك ألا تقع في براثن ظنك لنديته فقد يتغاضى عنك، أيضا فجأة ليتلاشى وجوده إلى حد ألا تكون عائقا لكل ما هو خلفك.. سطوته أن يخاطبك بصراحة فتقنع انك نلت الجواب إلى حد التخمة والبحث مهضم لامتلائك بينما

الحقيقة أن سؤالك مازال عاريا وغايتك في وجبة شافية، من ضروب المحال.. ويمنحك الأستاذ عبارة قصيرة لا تشفي وقتها لك غليلا لكنك ما أن تذيرها بغيظك وحدك حتى تتسع حروفها وتتمدد سطورها وتتشيد فقراتها وتتوالى عناوينها وتنقسم فصولها وتتعدد أبوابها لتغدو موسوعة تضم بين ضفتيها جميع الإجابات عما حيرك بأمسك وما ينغلق عليك بيومك، وما ترنو لمعرفته بغدك.

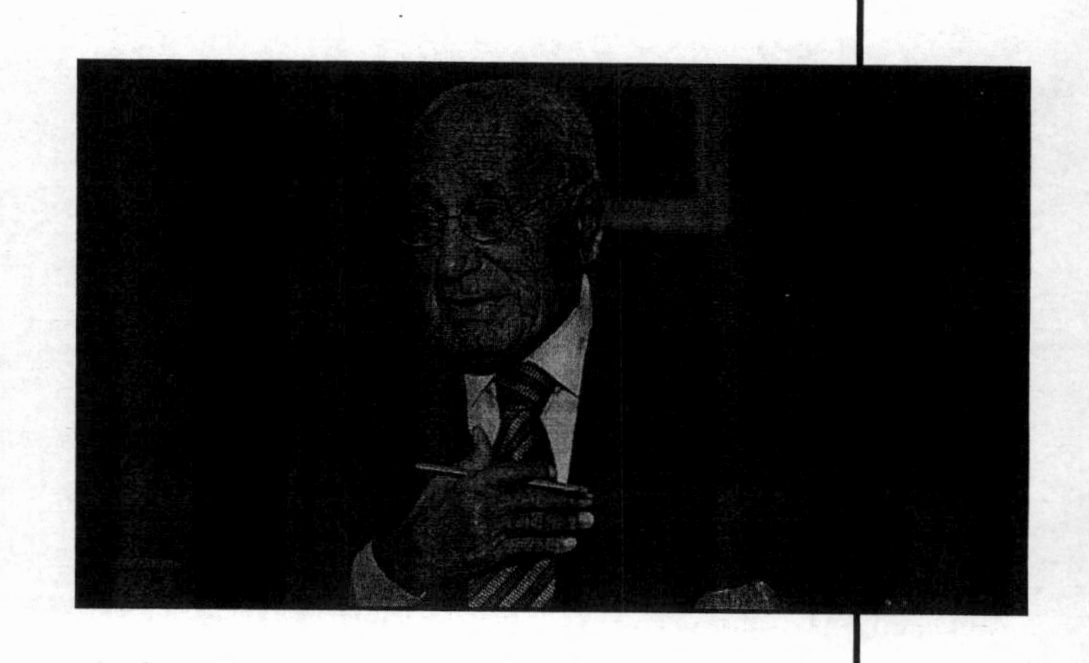
ولأن بداخلي سؤالا يسكنني تجاهه يستنفر على الدوام قوتي الشخصية فقد رددته لنفسي قبل لقائي به ولماذا لا أكون أنا؟! من لا تقع أسيرة منطقه الدامغ، من لا تكون فيشة سالبة في دائرته الكهربائية من لا تعدل مسارها لتتبع خطى وجهة نظره مهما غرقت في بحور دماثته وأبحرت في محيطات عذوبته وتنزهت على شواطئ معرفته واهتديت بمنارة مياهه الإقليمية وسافرت على متن بواخره العالمية.. لماذا لا اذهب إليه وأعود كما أنا وكما كنت ولكن!!

الطريق إليه يمر بحائط زرعه عجب.. مشاهير العالم كبيرهم وصغيرهم رؤساء وقادة وأصحاب صولجان وسكان تيجان وركاب ثروات ومفجري ثورات وألسنة ديانات في صور شتى قد التصقوا بالحائط في لوحة الفراشات المصبرة ينحنون في لقطاتها للأستاذ ويشدون على يده وتملؤهم الغبطة في النظر إليه ويمازحونه بالحديث الحميم الشجي: عبدالناصر، خروشوف، شاه إيران، انديرا غاندي، الخميني، بن بيلا، ذو الفقار علي بوتو.. الخ.. كلهم طالعين معه في الصورة وكان على العبدة الفقيرة لله مهمة المرور بجوار ذلك الحائط الإمبراطور مالكاشاهنشي للدخول بالقدم اليمنى من الباب اليمين للجلوس إليه وأنا من لا نيشان اعلقه على صدر ولا دماء زرقاء تجري في عروقي ولا نفر لطشاه الشمس يهب تعظيما لمقدمي.. لكن يبقى تصميمي لماذا لا أكون أنا؟! من ألقاه وأعود كما أنا وكما كنت ولكن!! وانتشيت بتميمتي وأعزو شجاعتي الدونكوشوتية إلى أن من ذهبت لأكتب عنه كان زاد رحلته أيضا القلم.

الصورة التي رسمتها البيسي.. فيها ملامح أخرى.

(٢٤)

وطلب من أم كلثوم أن تحول فرحه إلى حفل خيري وأن تغني وصلة واحدة فقط !



تكلمنا عن الرجل من كل الزوايا.. تكلم بطريقته ورد عليه من رد بطريقتـه أيضـا.. فيهم من اتفق معه حتى أصبح درويشا في محرابه يراه الأسطورة.. وفـيهم مـن اقتـرب ثم ابتعد وانتقد.. وفي كل الأحوال للأستاذ كل الاحترام مهما كانـت درجـة الخـلاف معه أو حوله.. وكل التقدير لمن أراد للصورة أن تكتمل بملامـح أو رتـوش أو زاويـة نظر مختلفة.. رغم الاسـتعراض للتـاريخ الشخصـي والمهنـي للجورنـالجي، إلا أن هناك الكثير من الأسئلة التي تشكل في مجموعها عملية استجواب طويلة ربما تضيف إلى اللغز الذي نعرفه المزيد.. لان اللغز حتى ساعته وتاريخـه فيـه الكثيـر في حضـوره وفي غيابه وحتى بعد رحيله إلى رحاب الله سنفترض هنـا استضـافة الأسـتاذ هيكـل في برلمان يضم تحت قبته محبيه ومريديه ومنتقديه.. هنـاك أسـئلة سـنأخذ إجابتهـا مـن مصادر عدة لان هيكل لم يجب عنها بشكل مباشر والأمانة تقتضي ألا نضع على لسـان الرجل ما لم يقله.. وهناك أسئلة ترك لها إجابـة في حـوارات.. ومجمـل هـذه الأسـئلة سوف يكمل لنا تفسير اللغز بقدر ما استطعنا، لأن محيط هيكل وتاريخه أعمق مـن أن نغوص في كل اتجاهاته وللرجل له ما له وعليه ما عليه...

(١)

- السؤال من مجدي الجلاد الكاتب الصحافي وتاريخه ٢٠٠٩ في لقاء صحافي من خلال جريدة المصري اليوم ووقتها كانت جماعـة الإخـوان محظـورة ولكنهـا تعمل وكان السؤال.

هل حسن البنا كان سيراجع نفسه في آخـر أيامـه عـلى فكـرة دخـول التنظـيم في ألعمل السياسي؟

** أنا كنت موجودا عندما جاء حسن البنا يقـدم بيانـه ليسـوا إخوانـا وليسـوا مسلمين لعبدالرحمن عمارة، وكيل وزارة الداخليـة ومعـه كـريم ثابـت المستشـار الصحافي للملك فاروق في دار أخبار اليوم، بعد اغتيال النقراشي باشا، لأنهم كانوا يريدون التنصل من المسؤولية، وحسن البنا أدرك أنه سوف يواجه انتقاما حقيقيـا، وهذا ما حدث بالفعل بقرار من الملك فاروق، يومهـا دخـل البنـا مكتبـي منتظـرا

عمارة بك، وكيل الداخلية وقتها، وكريم ثابت، ووجدته رجلا صانع تنظيم بلا جدال، وعنده كفاءات هائلة قريبة جدا من مشايخ الطرق الصوفية، لكن الفكر ناقص.. وهناك في الفكر الإسلامي الحديث الشيخ محمد عبده خلق فكرا إسلاميا حقيقيا، والشيخ حسن البنا أنشأ تنظيما إسلاميا، لكن الاثنين لم يلتقيا مع الأسف الشديد، لا الفكر التقى مع التنظيم، ولا التنظيم التقى مع الفكر.

(٢)

- هذا السؤال أيضا من مجدي الجلاد وأهميته انه فيه توقعات وسأترك للقارئ أن يفسرها كما يريد بعد ٧ سنوات من السؤال:

ماذا سيحدث في العامين القادمين ٢٠١٠ و٢٠١١؟

** لا شيء! سنسير في نفس الطريق.. نفس القطار يمشي على نفس القضبان إلى مشكلة أكاد أراها.

والقوى السياسية الموجودة على الساحة؟

أين هذه القوى؟

سأقول لك مرة أخرى.. الإخوان؟

أنت تبالغ في تقديرك للإخوان.. هم قوة بديلة.. قوة غيبة وليست قوة حضور، غيبة مجتمع مدني، وغيبة سياسية، حتى غيبت السياسة بهذه الطريقة، ضاعت شؤون الدنيا من أيدينا، وبقي عندنا شؤون الآخرة، لكن الإخوان لا يخيفون.

(٣)

ما طبيعة العلاقة بينك وبين الرئيس مبارك؟

** هو رجل أحترمه وأقدره وهو معي في منتهى الرقة، لكني ببساطة عندي رأي مختلف وبعض الناس يخلطون، فإذا كان يبدي نحوك مشاعر ودية فلا يحق لك أن

تخالفه في الرأي، وفى منطق الحكم في مصر إذا خالفتني في الرأي فأنت غير مريح.

وعندما أصبت بالسرطان وأجريت جراحة ناجحة والحمد لله والرئيس اتصل بي وقال لي لابد أن أعالجك على حسابي وليس حساب الدولة، ووقتها قدرت هذا العرض وسعدت به لكني اعتذرت عنه لأنني قادر والحمد لله على علاج نفسي، كما أن هناك غيري في البلد من هم أولى بمساعدة الرئيس والدولة. ولما أبديت بعض الآراء السياسية المخالفة فيما بعد إذا ببعض الذين يكتبون يقولون: ماذا يريد.. الرئيس سأل عليه وعرض المساعدة، إنهم يعايرونك بما اعتذرت عنه، فماذا كان سيحدث لو قبلت العرض؟

(٤)

- سناء البيسي تسأل عن سر شباب هيكل الدائم؟

** ويجيب هيكل: كرما منك أتمنى لو كان حقيقة ليس بالضبط شبابا وان بدا الاحتفاظ به فمرجعه أني والحمد لله أحاول قدر ما استطيع التعامل مع الزمن بمنطق الزمن الأجدى في العلاقة مع الزمن ألا تتركه يفوتك.. للزمن بصمته لابد كما يقول الشاعر العربي أقاموا زمانًا ثم بدد شملهم.. أخو فتكات بالكرام اسمه الدهر فظاعته مع البعض فقدهم لرؤاهم وتخلفهم وراءه العيش على هوامش عصرهم.. حاولت ألا أتخلف وراء الزمن وفي اللحظة التي تركت العمل في الأهرام كنت مصمما على أنني لن أعود مدركا تماما أن مرحلة قد ولت من حياتي لبداية مرحلة أخرى -منذ اليوم التالي، وحتى أكون أمينا- محدثي عاشق للتحديد والتوثيق.. قعدت ثلاثة أيام أو أربعة قولي أسبوعا لا التقى بالناس والزوار والأصدقاء لكني على الفور أدركت أنني لن استطيع المضي في ذلك فلدى مهام لابد من انجازها فقد كنت متعاقدا على كتاب الطريق إلى رمضان.. لم يكن لدى مكتب اجلس إليه فاستعرت ترابيزة صغيرة من البيت وضعتها أمامي وجلست اعمل وأتذكر هنا أن اللورد هارتويل صاحب جريدة التلغراف الذي تعاقدت شركته معي على الكتاب عندما قال لي برقة بالغة نحن نعرف قدرك وما تساويه

كصحافي لكنك جديد على الساحة كمؤلف للكتب وهذه قضية أخرى وعليك أن تعطينا في البداية عناصر سريعة لمحتويات مؤلفك، ولأني كنت احفر لنفسي مستقبلا من نوع جديد قدمت ما طلب مني ووقعت العقد.

وتبعا لمنهاج محدثي بتلخيص ما يقول في نقاط محددة استطرد حول رؤيته في كيفية التعامل مع الزمن أولا: عدم التخلف عن العمر وألا نتركه يسبقنا فكرا ولا رؤى.

ثانيا: أن تبقى منتجا على الدوام، ثالثا: النظام.

(٥)

- وماذا عن نظامك يا أستاذ وأسلوبك المضبوط مثل ساعة بيغ بن؟

** كل صديق يعرف انه مهما كان الأمر من الأهمية بشيء فان توقيتي المحدد لنهاية أي سهرة أو عشاء في الحادية عشرة تماما وقبل الثانية عشرة لابد وان أكون في سريري الذي قد أقرأ فيه قليلا.

وقد رجوت أولادي أو بالأحرى خطيباتهم (فيما مضى) أن يأخذن مني أي حاجة ليجنبني عناء مسألة الأفراح والحمد لله تم ذلك مع علي وأحمد وحسن.. الأفراح التي تقام في الفنادق الكبرى بها كمية من الادعاء يتقنها البعض الأخر.

من أسس نظامي أيضا أنني أصحو مبكرا وأمارس رياضة الجولف ويكاد يكون ذلك يوميا وأحاول أن اجعل وقت الرياضة لا يتعارض مع زمن العمل، فالأولى الساعة السادسة صباحا صيفا السابعة شتاء وادخل مكتبي على أكثر تقدير في الثامنة وأنا واحد من الناس الذين يعتقدون انه- ولا حتى الفن- يعنى الفوضى فالفن هو الأخير يعني الالتزام بقواعد وقوانين ونظام وهذا لا يزيل البهجة من الحياة، ولا يجعل منك إنسانا آليا.. الفوضى مع الهواية لا تنتج عملا عظيما ولا تبقى على الإبداع متواصلا. أما بخصوص نظامي في شنطة سفري وقت أن كنت مراسلا متجولا كان الأمر يسيرا رغم عدم إجادتي فن الحقائب والآن زوجتي كتر خيرها تتكفل عنى بذلك

وعندها من الكفاءة والإدراك بظروفي ما يجعلني بعد ربع ساعة فقط من وصولي إلى بعد ما أن ذهب تبعا لخبرتها، لموعد مهم ببذلة جاهزة ونظيفة ومكوية.

(٦)

- صورة تعيها الذاكرة من أيام الطفولة؟

** صورتي صغيرا اجلس في مندرة بيت جدي لأمي في حي الحسين بين الأشقاء والشقيقات وأطفال العائلة نتلقى دروس تحفيظ القرآن من الشيخ قاسم وكان الشيخ موظفا مستديما لدى جدي وكان من يحفظ جزءا كاملا من القرآن يجازى من الجد جزاء حسنا فإذا ما ختم المصحف فنصيبه جنيه ذهب.. كان يحضر معنا أحيانا دروس القرآن بعض أطفال بيوت جيراننا ومنهم بيت الرافعي وبيت الرزاز.

لقطة أخرى؟

وأنا في مقصورة سيدنا الحسين بجوار جدي الذي كان يصحب معه احد أطفال العائلة يقدمه لمجالس القرآن وكان من بين الجلوس جمع من العلماء وائمة قراء ذلك الوقت: الشيخ علي محمود والشيخ علي حزين والشيخ محمد رفعت والشيخ عبدالفتاح الشعشاعي.

.. وأنا جالس في مندرة الضيوف في البيت الكبير الذي تسكنه الأسرة وقد تحول معظمها إلى أكداس كتب جاءت لخالي من مكتبة صبيح وكان أصحابها أصدقاء له.. في يدي كتاب ضخم اقلب فيه برهبة عنوانه أدب الدنيا والدين.. مازلت اذكره ومازلت أحس رهبة قراءة أشياء لا استطيع فهمها ولكني أحاول.

.. وأنا طفل يهدهده ملاك النوم بين نبرات صوت أمي تهبط وتعلو بانفعال مواقف دراما السطور وهي تقرأ لوالدي سيرة الظاهر بيبرس والأميرة ذات الهمة.

وكانت في زمانها قارئة لعلها من الجيل الأول الذي تعلم ودخل المدارس فميلادها في أول القرن؟! وناقدة ظلت تتابعني إلى ثلاثة أعوام مضت عندما رحلت عني.. وأنا رقم اثنين بعد أخت اكبر مني.

(٧)

- ماذا عن الجذور في قرية باسوس قليوبية.. وماذا عن الخطط لطفل في العائلة ؟

** قبلها بلدة ديروط الشريف في الصعيد أتيناها قبيلة من قبل بلاد العرب عبرت وتركت فروعها في كل مكان حتى استقرت في صعيد مصر، ثم هاجر جدي لأبي إلى الشمال وجاء والدي بتجارته إلى القاهرة. واندم لمقاطعتي لأسفاره في زمن الطفولة حيث لا ينفع الندم.

وعاد هيكل للحظتنا على وجه السرعة ليقطع خيط مؤانسة سرد الذكريات بقوله: هذه الصور لم اذكرها لأي من قبل وان كنت قد وضعت في مخططي أن اكتبها في سيرة ذاتية إذا سمحت لي الظروف. وكان أبي يخطط لمستقبلي وخطته أن أكون في خدمة العلم، ونذرني للأزهر وانتظمت أولا في التعليم الأولى حتى حان الوقت للأزهر وكان لي اخوة اكبر مني من زوجة طيبة سابقة في الريف، وكان اخوتي يعملون معه في تجارته كان ذلك ما تفعله عادة اسر الطبقة المتوسطة في مجالات الزراعة أو التجارة، الجيل الأول من الأبناء مع الآباء والجيل الثاني للعلم والدين والجيل الثالث لوظائف الحكومة وتمنت أمي لي مستقبلاً آخر وما أن سافر أبي في رحلة لمدة خمسة عشر يوما حتى سارعت للاتصال بأخيها واتفقا على أن التحق بالمدارس الأميرية وبالفعل وهنا أتذكر صورة مشواري صغيرا معها لمحل في وسط البلد اسمه بلاتشي حيث أحضرت لي بدلتين جديدتين مع المناسبة الجديدة وبعدها بأيام كنت اجلس تلميذا في سنة أولى بمدرسة خليل أغا.. على فكرة كان إحسان عبدالقدوس وقتها في سنة رابعة.. أمي عملت انقلابا جذريا في حياتي.

(٨)

- كلمنا عن حبيبتك يا أستاذ؟

** إنها هدايت.. زوجتي رفيقة الدرب وسند الحياة تقابلنا لأول مرة عام ٥٤ وكانت بصحبة والدتها في بيت عائلة صديقة بمحض المصادفة، الطريف أن بداية

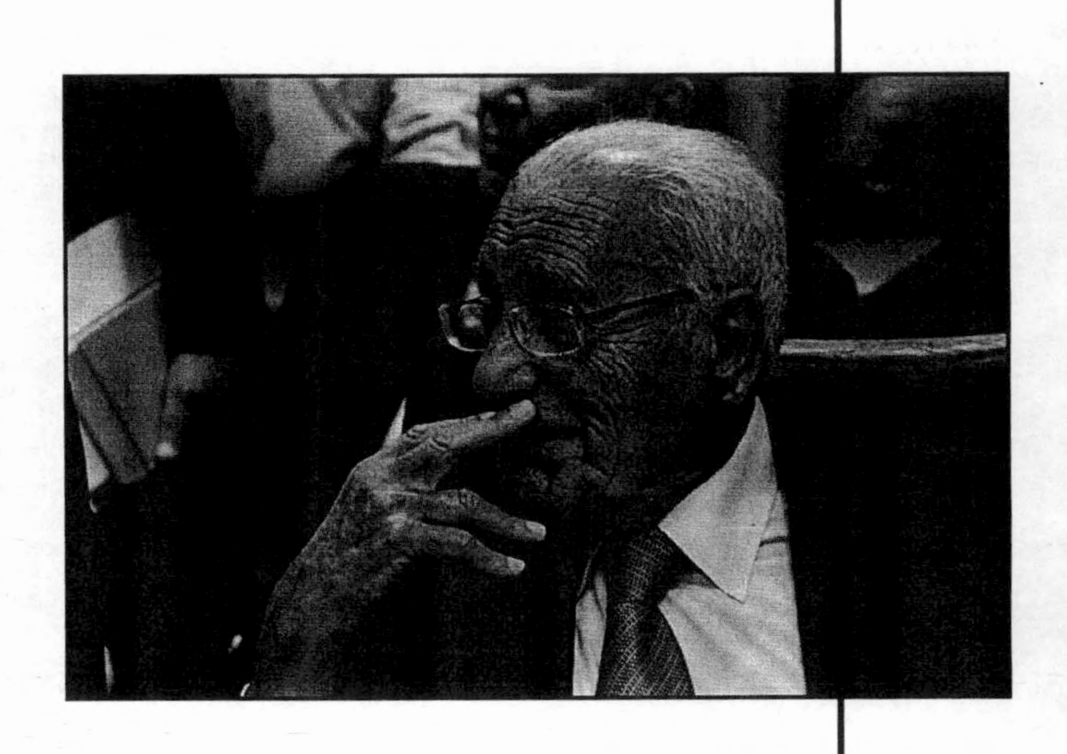
معرفتي بوالدتها كانت بخناقة عندما هاجمت جمال عبدالناصر أمامي بسبب قانون الإصلاح الزراعي لكننا فيما بعد أصبحنا صديقين حميمين وقتها كانت هدايت مثل كل شابات ذلك الوقت مهتمة بالعمل الخيري، وكانت نشيطة في الهلال الأحمر، وأكثر نشاطا في جمعية النور والأمل وقد استطاعت أن تنقل إلي هذا الاهتمام وساعدت فعلا في حملة واسعة لجمع التبرعات لهذه الجمعية استخدمت في بناء وإعداد منشآتها الكبيرة التي اتسعت لنشاط جمعية أصبحت من النماذج الباهرة للعمل الاجتماعي في مصر وخلال ذلك بدأ إعجابي بها. وصممت أم كلثوم أن تغني لي في الفرح لكننا اتفقنا أن يتحول إلى حفل لصالح جمعية النور والأمل لأنني لا أتحمل الجلوس متخشبا لساعات اسمع فيها تخت الغناء فقد ذهبت بعد الوصلة الأولى إلى غرفة أم كلثوم خلف الكواليس وأدركت بذكائها النادر وحسها المرهف والواثق من نفسه حالتي فقالت لي ضاحكة أنا عارفة وخلاص وبدون إحراج وكفاية عليك قوي وصلة واحدة.

وعاشت الزوجة الحبيبة في دائرة الظل في حياة الزواج رجل السياسية؟

وكيف لا وهذه ابنة أسرة ليس لها إطلاقا أي علاقة بعالم السياسة رغم أن كثيرين من أصدقاء العائلة كانوا من الساسة. وبينهم الدكتور محمد حسين هيكل باشا وفؤاد سراج الدين باشا وغيرهما وفجأة بارتباطهما بي وجدت نفسها في خضم المعمعة السياسية فقررت منذ اللحظة الأولى تحديد مجالها الذي تتحرك داخله كزوجة وأم وعضو مجلس إدارة جمعية خيرية فقط وكانت تسافر معي مرات وفي رحلة الهند شاهدت معي آثار ملوك المغول في فاتح بورسيكري ثم تصادف بعد ذلك رحلة إلى الأندلس وهناك بهرها الأندلس وحضارته.

(٢٥)

اسمها هدايت تيمور ولا يعرفون أنها زوجة الجورنالجي إلا إذا قالت ..!!



نواصل استجواب هيكل في برلمان محبيه ومنتقديه وقد وصلنا إلى السؤال رقم٩.

(٩)

- نعرف أن زوجتك تنتمي إلى عائلة تيمور الشهيرة فماذا عن اهتماماتها بخلاف أمور الزوجية؟

** عائلتها عندها عشق لدراسة العمارة والفن الإسلامي، ورأت أن تأخذ هوايتها جدياً وان تدرس موضوعها علميا وقررت أن تلتحق بكلية الآثار.. كانت قد أنهت تعليمها بالبكالوريا الفرنسية ولكن لدخول كلية الآثار كان لا بد لها من ثانوية عامة عربية، فبدأت من السنة الأولى وكان كثيرون من أصدقائنا في دهشة وبينهم الرئيس أنور السادات الذي قال لها : غير معقول أن تصبحي من جديد تلميذة في سنة أولى.. ونجحت هدايت في مراحل التعليم الثانوي والتحقت بالجامعة ونالت شهادة التخرج بتفوق ما أتاح لها أن تصبح في سلك التدريس الجامعي وأشك أن أحداً قد عرف أن زوجتي هي المعيدة ثم الاستاذة الجامعية هدايت تيمور واستمرت في منهجها فحصلت على درجة الماجستير وكان موضوع بحثها فيه العمارة العثمانية في مصر بعدها استعدت لدرجة الدكتوراه وكان الموضوع الذي اختارته يدور حول تاريخ وخطط بولاق لكن مشكلتها أن أصدقاءنا الكثيرين فتحوا أمامها كل الأبواب. وعلى سبيل المثال فقد كان احد أصدقائنا وهو السير دنيس هاملتون رئيسا لمجلس أمناء المتحف البريطاني وهكذا فإن جميع قاعات ومكتبات ووثائق المتحف البريطاني تفتحت أمامها وشيء من نفس النوع حدث لها في اللوفر في باريس فانكبت على البحث لتجد نفسها غارقة في مادة تصلح لعشرين دكتوراه.. وفي النهاية قررت أن لا جدوى من تلك الدكتوراه فهي في حد ذاتها ليست هدفها بل لقد ذهبت إلى ابعد من هذا بان استقالت من الجامعة أيضا لأنها لم تعد تستطيع الوفاء بواجباتها الجامعية والعائلية

والاجتماعية جمعاء إلى جانب اهتماماتها الثقافية والحقيقة أنها لم تخرج يوما عن دورها الذي وضعته لنفسها ولا الخط الذي رأت ألا تتعداه وقد فضلت دائما أن تتوارى عن الأضواء العامة.

(١٠)

- وكيف عاشت فترة اعتقالك ولو أنها قصيرة.. لكنها لا تتناسب مع خط سير حياتك واسمك وكيف جرى موضوع الاعتقال؟

** هدايت تعرف كل أحوالي ومواقفي من البداية وأنا مؤمن بأن الزواج مصير واحد لشريكين ومن ضروب المأساة أن يخبئ البعض عن زوجاتهم حقيقة أوضاعهم.. وقد رأيت بنفسي ما يحدث للزوجة بعد رحيل مثل هؤلاء الأزواج وما تواجهه من مشاكل لا حدود لها لكي تستطيع أن تلم أطراف أشياء لا تعرف عها شيئا قلت لهدايت : ألا تطلب من أي كائن من كان طلبا يخصني أو يخصها هي وأبنائنا، وألا تحادث سوى شخصين فقط هما الدكتور محمود فوزي كصديق هذا إذا ما أرادت الاستعانة بنصحه وأخذ رأيه في تصرف ما إلا إذا ما واجهتها مشكلة والشخص الثاني الأستاذ ممتاز نصار المحامي ومن سوء الحظ انه حين جرى اعتقالي كان الدكتور محمود فوزي قد رحل عن عالمنا.

أما عن ظروف الاعتقال فقد كنا عائدين من سفرة إلى الخارج في أواخر أغسطس ١٩٨١ ولم يكن بيتنا في القاهرة جاهزا لأننا انتهزنا فترة السفر لإعادة دهانه وعدنا ولم يكن العمل قد انتهى وكان مقررا أن نذهب إلى الإسكندرية فمكثنا يومين بفندق الهيلتون، بعدها تركتها مع ابننا علي المتزوج حديثا وقتها، وذهبت أنا مع أحمد إلى الإسكندرية حيث تم اعتقالي هناك وقال لها احمد في الصباح تفاصيل ما حدث بعدها أرسل لها الرئيس السادات صديقنا سيد مرعي ليسألها إذا ما كانت تريد شيئا فأجابت بأنها لا تبغي سوى التأكد من أنني أعامل معاملة طيبة لم يقل لها أحد عن مكاني كل العالم حاول الاتصال بها وبعض الأصدقاء في الخارج سألوها أن تأذن لهم بعمل حملة

من أجلي لكن رأيها كان أن مثل هذا التصرف تجاهي قد يفسر على سبيل الخطأ.. وقد استمر اعتقالي ثلاثة أشهر وقامت بزيارتي مرة واحدة بعد شهرين من الاعتقال احضر لها ممتاز نصار إذنا من المدعي الاشتراكي فزارتني مع الأولاد بحضور ثلاثة من الضباط احدهم من السجن واثنان من المباحث.

في اللحظة التي كنت اهبط فيها من الزنازين على السلم الحديدي متجها إلى البوابة الحديدية التي تفصل بين العنابر وحجرة المأمور كانت هي والأولاد يدخلون من باب السجن فتلاقت خطانا أمام باب الحجرة لنجلس بداخلها نصف ساعة التي سمح لنا بها كان استيعاب الموقف بهدوئه الظاهري وكأننا اتفقنا عليه مسبقا وتماسكت هي لتبدو مسيطرة تماما على أعصابها رغم ما اعلمه بما يجيش به تدفق عواطفها لقد شاهدت إلى جانبي الكثير مما حدا بها يوما إلى التفكير في كتابة يوميات تبدأ من ٢٧ يناير ١٩٥٥ هو يوم زواجنا وقد كنت صريحا معها من أول لحظة وقلت لها لست مطالبة بأية واجبات اجتماعية تجاه صداقاتي السياسية وبالنسبة للرئيس عبدالناصر وطبيعته بنشأته العسكرية لم نجتمع على المستوى العائلي ألا في حدود ضيقة وكانت صداقتي به حميمة لكنها صداقة معسكرات وليست صداقة صالونات والحقيقة أننا أصبحنا نرى قرينة الرئيس عبدالناصر أكثر بعد رحيله فقد كنا نحرص على زيارتها بطريقة منتظمة والحقيقة أن هذه السيدة الكريمة عاشت جزءا من حياتها في ظل زوجها وبعده عاشت وليست لها أمنية غير أن تلحق به في مثواه الأخير.

السيدة جيهان السادات سيدة مليئة بالحيوية والنشاط وكانت تقوم بدور كبير في الحياة السياسية والاجتماعية وكلانا كان يحبها ولايزال ولكن الطرق تفرقت وعلى أية حال فأنا في أحوال العالم الثالث عموما والعالم العربي بصفة خاصة أفضل أن تكون لقاءاتنا على مسافة كافية من علاقاتنا وصداقاتنا أو خناقاتنا. ولذلك لم تجد تعارضا بين لقب حرم حسنين هيكل أو مدام هدايت تيمور كلاهما إنسان واحد وان كان اسمها العائلي يعطيها استقلالها في مجال الخدمة العامة ويبعد عنها الأضواء ولأنها كأحد المؤسسين لجمعية النور والأمل لا يعرفها احد في أسواقها

الخيرية سوى باسم هدايت تيمور.

(١١)

- الجد هيكل كيف استقبل هذه المرحلة :

** الأمر في بدايته مأساة في بداية الحدودية كنت مرعوبا ولك أن تتصوري حجم الخوف لمعرفتنا من الدكاترة أن زوجة ابني علي الطبيب وكانت زميلته في الكلية ويسبقها بعام دراسي. حامل في توأم أتذكر عندما كلمتني زوجتي لتخبرني بأن زوجة الابن قد نقلت إلى مستشفى السلام في حالة وضع ودعتني أن اذهب إلى هناك وكانت الولادة قد تمت وأتى الأحفاد ولدا وبنتا محمد وهدايت على اسمي واسم زوجتي توجهت إلى الغرفة لرؤيتها فمنعتني الممرضة الايرلندية بحسم بحجة أنه غير مسموح لأحد بدخول غرفة الحضانة سوى للأب والأم فقط فعدت بخفي حنين ونزلت ليلاقيني ابني علي ويسألني عن رأيي في الأحفاد فذكرت له ما كان من أمر الممرضة فأسرع يأتيني بهما لقد كانت الرهبة وحدها هي جعلتني ألبي على الفور أوامر الممرضة الايرلندية أن تكون أبا إن هذا الأمر شيء عظيم لكن ساعة أن يكون لك أحفاد تحس أن نقطة تحول قد حدثت في حياتك وساعة أن تسمع احد ينادي عليك كجد تستغربها بشدة.. بعدها تكتشف انك دخلت عالما مختلفا تماما. أما عن حكاية اعز من الولد ولد الولد أولادك بالنسبة لك متعة ومسؤولية أما بالنسبة للأحفاد فهنا عنصر مختلف تماما فأنت في حالة الأبوة في اضطرار لتحمل هم تربيتهم وتعليمهم ومتابعة تقدمهم بينما ميزة الأحفاد أنهم متعة بدون مسؤولية وأنا ضعيف جدا مع أولادي علي واحمد وحسن وضعيف جدا مع أحفادي محمد وهدايت ومنصور.. ضعيف أمام أي طفل وبيني وبين الطفولة علاقة دافئة ليس أجمل في الدنيا من الجلوس إلى طفل معه تشاهدين الإنسانية في براءتها الأولى خطوات البداية في رحلة الاستكشاف.. اذكر أنني قمت برحلة لأميركا اصطحبت فيها أولادي لاكتشفها معهم من جديد ربما كان هدفي وقتها سياسيا إلى

حد ما فقد كنت شاعرا في ذلك الوقت أعوام ٧٥، ٧٦، ٧٧ بقوة الانبهار بكل ما هو أميركي أخذت أولادي معي لمشاهدة أميركا ارض الواقع ليعرفوا أنها ليست بالصورة التي تسكن خيالهم وليست بلاد المعجزات لقد اكتشفت العالم مرة أخرى مع أولادي وللمرة الثالثة اكتشفه مع أحفادي طبيعة كل جيل مختلفة تماما من خلال رؤية عيون الطفل تضعين يدك على فارق التفكير بين الأجيال، ذلك الفارق لمسته كمثال عندما جلس توفيق الحكيم إلى ابني علي يمتحنه بالفوازير.. سأله : مين يعدي البحر ولا يتبل؟ رد على بعفوية : أي واحد راكب طيارة.. قال له الحكيم لأ غلط ده يبقى العجل في بطن أمه.. بعدها سكت الحكيم متأملا وعاد يقول : الله ده حقيقي يا علي ثم التفت إلينا يقول : الدنيا تغيرت.

(١٢)

- وما هي رؤيتك عن الطفولة عموما؟

** الطفولة عالم هائل.. الحيوية والبراءة والخبث الإنساني كله.. الصورة الحية للإنسانية جمعاء بتنوعاتها وتنويعاتها المتناقضة أو المتناغمة داخل كيان إنساني قريب منك تستطيع قراءته والفرجة عليه وتأمله. والطفولة في مصر معذبة ومهدرة.. في مشواري للريف كل أسبوع تستوقفني دائما وجوه أطفالنا في القرى وأرى بينهم وجوه علي مبارك ورفاعة الطهطاوي ومحمد عبده وطه حسين وجمال عبدالناصر.. بينهم نبتة رجل يستطيعون صنع تاريخ كامل لكنهم للأسف في ضياع.. الطفولة اكبر استثمار لبلد يحترم تاريخه ويعينه مستقبله.. الشباب العظيم لن يوجد ما لم تسبقه طفولة عظيمة والخطوة من نصف الطريق للنهوض بالشباب ما هي سوى قفزة تتعدى البداية الحقيقية عند الطفولة.

(١٣)

- تحدثنا عن البنون فماذا عن المال؟

** علاقتي بالمال محدودة بشيئين أولهما اعتبار المال أداة وليس غاية في حد

ذاته.. ثانيا قاعدة أساسية ألا ننفق إلا في حدود الموارد وفيما يتعلق بي قد أصل إلى صرف ١٠٠٪ من مواردي لكني لا أتخطاها.. أما عن قيمة الكاتب المادية فان القارئ هو الذي يضعها وهو الحديث المتداول على مدى التاريخ بأن المال خادم جيد لكنه سيد سيئ أن يكون المال سيدك.. كارثة لما يترتب عن الوضع من فظائع.. ما لا تسمح به مواردي لا اطلبه.. زوجتي تقول انني دائما أرى أن ما عندي هو أحسن حاجة وهذا صحيح فكل شيء عندي هو الأحسن بصرف النظر عن عامل المقارنة بغيره فهذا لا يفرق معي.. أنا معتقد أن مكتبي أحسن مكتب وبيتي أحسن بيت.. الخ، أنا لا أطلب سوى الدعاء العظيم الذي كانت تدعو لي به والدتي بالصحة والستر.

وأضيف هنا أن الصحة تشمل جوانب عديدة الصحة النفسية والخلفية والبدنية وفيها أيضا الصحة العائلية هذا مع دعاء أن يبقى الواحد لغاية آخر لحظة من حياته قادرا على الإحساس بالجمال أينما يراه وفى اعتقادي أن الفارق بين الإنسان والإنسان بالدرجة الأولى هو الشعور بالجمال عند رؤيته وليس الاستحواذ عليه وهناك الجمال المشاع للجميع مثل أحاسيس الصداقة وعلاقة البشر بالطبيعة وبالخلق الغني وأفكار الآخرين.. إذا ما سألتنى ما هي متع الحياة؟ اعتقد أنها في الصحبة مع الصديق ومع الكتاب ومع الموسيقى ومع الطبيعة ومظاهر الخلق فيها وكثيرا ما لاحظت زوجتي نظرتنا المتبادلة أنا وكلبي فارس في بيتنا الريفي حقيقة بعد الصحة والستر يأتي الجمال.

(١٤)

- هل عندك تعريف للجمال بشكل عام أو جمال الأنثى بشكل خاص؟

** هناك أشياء لا تعرف وهذا يذكرني بقول هندريك فان لون أشهر ناقد في الخمسينيات بتعريفه العبقري.. العبقرية هي الإتقان مضافا إليه عنصر آخر مجهول يقول البعض عنه الإلهام.. الإحساس.. التوازن.. أو التناغم.. أو مليون

شيء يقال في هذا المجال لكنه صعب التعريف للغاية.

والجمال في الأنثى أيضا صعب تعريفه.. المشكلة هنا أننا عندما دخلنا عصر العلم أصبحنا راغبين باستمرار في تعريف الأشياء وتحديدها.. موافق على وجود أشياء تحدد، لكن ساعة أن نأخذ بهذه التحديدات إلى مداها وننظر إليها النظرة العلمية المطلقة نكون قد انتقلنا من تعريف الجمال مثلا إلى التشريح وعملية الفصل بين الأشياء.. لهذا نستعيض عنه بكلمة الجاذبية لبعض ما هو في الطبيعة من حولنا فساعة أن نعرف القمر مثلا بالمنظار المحدد العلمي لنقول عنه إنه كتلة من الحجر يقع عليها ضوء الشمس، نكون قد تخلينا عن جزء من إنسانيتنا ولجأنا لشيء مطلق ومجرد وهو العلم بقوانينه الجامدة.

أي أن مقاييس الجمال لا يمكن تعريفها.. من الممكن الحديث عن اللون والتوازن والتناسق.. مثل تلك العناصر والمؤشرات قد تعطى لمختص يزمع العمل في خلق فني، ولكن العبرة بالنهاية، فقد يطبق في عمله جميع القواعد لكنه لا يستطيع أن يخلق جمالا.. الجمال قضية، وتركيبة أخرى مرتبطة بالشعور، ولا داعي أن نحكم العقل في هذا المجال، فلو حكمناه تصبح مشكلة كبيرة جدا.

وفى بيتي ستجدون لوحات الفنان راغب عياد والفنانة تحية حليم واعتز بلوحة عملاقة يبدو فيها النيل شامخا وصرح قلعة صلاح الدين أما عن الجمال المعماري للأسف النموذج الغربي لا يزال مسيطرا على البناء.. العمارة الإسلامية عمارة تنظر إلى الداخل، تدور كلها حول صحن أنا شخصيا أفضل مزيجا من خطوط متداخلة مع خطوط نستطيع أن نسميها خطوط بحر أبيض أفضل مزيجا معماريا مفتوحا على البيئة المحيطة به ومفتوحا لها في نفس الوقت.

الخلط المعماري، وبالتالي الحضاري عندنا شديد، وأكثر تأثرنا هو بما رأيناه في الغرب ومسخناه على هوانا.

في بداية الثورة وأثناء إحدى المناقشات أذكر أنني طرحت اقتراحا سبب لي

مشكلة.. كانت هناك عدة مجمعات ومصانع ومنشآت بلا حصر سوف تبنى ضمن مشروعات الثورة، وكان اعتقادي أن هناك عدة منشآت ارتبطت بعصر الملك فؤاد مثل مجمع المحاكم ومبنى التليفونات، إنها على طراز روماني حقا لكنه أصبح علامة للمباني لعهد معين في مصر، وقلت إن عثمان محرم باشا قد توصل قبل الثورة إلى طراز نجح في التوفيق بين العربي والفرعوني شيدت به كلية الهندسة بجامعة الإسكندرية، وأننا لو صممنا المنشآت الجديدة على مثل هذا الطراز نكون قد أعطينا المرحلة قسمات معمارية متميزة. لكن هذا الاقتراح عارضه جمال سالم ووجده مضيعة للوقت.

(١٥)

- هذه مجموعة من الأسئلة السريعة أولها ما هو لون هيكل المفضل؟

** الأزرق بمشتقاته.

- بيت الأزياء الذي تعود إليه أناقتك الظاهرة.. كاردان.. لوران.. لابيدوس؟

** ليست لي بها ولا بالجاهز علاقة، فجميع بدلي تفصيل.

- الكرافتة من يختارها لك؟

** كلانا.. أنا وزوجتي.

- أجمل هدية تقدم لك؟

** مشكلتي أن ليست لي طلبات كثيرة، وما يقدم لي من هدايا لا يخرج عن دائرة الكرافته أو السيجار أو الأقلام.. وعندما بحث لي أحمد ابني مرة عن هدية في باريس أهداني شيئا طريفا للغاية.. هراشة!!.. في زيارة لي لواشنطن وجدت محلا للهدايا للناس الذين يمتلكون كل شيء.

ربما.. ولكن هناك هدايا سهلة ومأمونة بالنسبة لي، كرافته مثلا أو علبة سيجار.

(١٦)

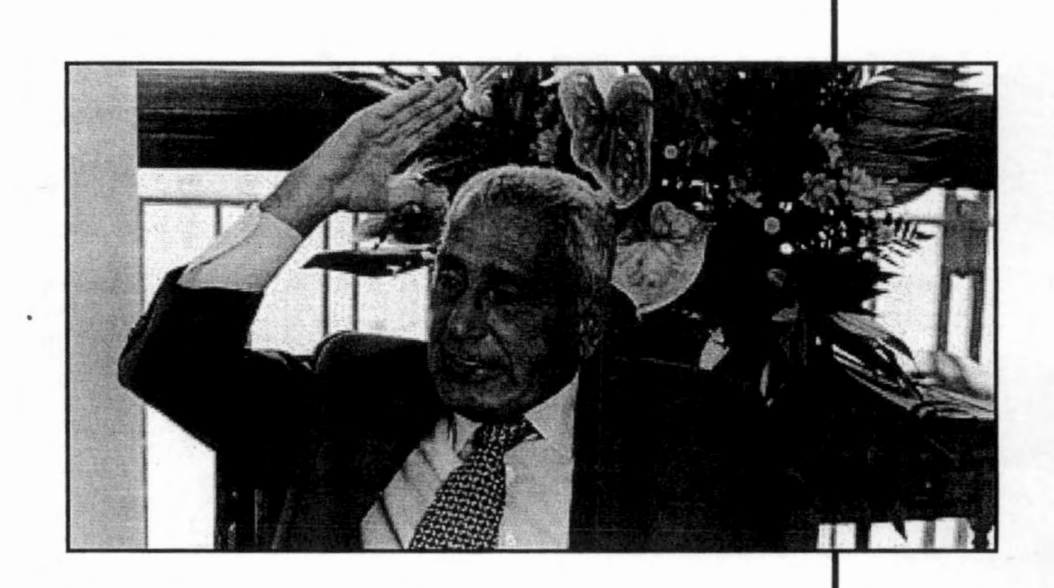
- ومتى بكى الأستاذ؟

** بكيت يوم جنازة عبدالناصر لأنه كان صديقا قريبا جدا مني وسيبقى اعتقادي به أنه ليس فقط إنسانا عظيما وإنما تاريخاً عظيماً أيضاً.. عن دموعي الثانية فقد كان أنور السادات، بصرف النظر عن أي شيء كانت بيننا علاقة الصداقة التي قال بنفسه عنها مرة في حديث صحافي له إنني كنت في الفترة من ٧٠ إلى ٧٤ اقرب إنسان له.. وهذا صحيح.. على المستوى الإنساني أنا أحب أولاده.. كان ابني حسن يتمشى من هنا إلى منزل السادات بالجيزة وهو رئيس ليقول له أي شيء يخطر له، وكانت هناك تعليمات من الرئيس بدخول حسن في أي وقت كواحد من أفراد الأسرة.. كانت بيننا تلك العلاقة الإنسانية.. من الممكن أيضا أن تكون مفاجأة علمي بوفاته السبب الذي أجرى دموعي.. لقد علمت بالنبأ في اليوم التالي لمقتله لأننا كنا معزولين داخل الأسوار عزلا كاملا عما يجرى خارجها، عندما صدرت التعليمات بإمكانية نقل نبأ الوفاة على أنها نتيجة لأزمة قلبية.. كان اضطرابي وقتها نابعا.. أولا من العنصر الإنساني، وثانيا لأنها الوفاة الثانية، بعد عبدالناصر، في تاريخ مصر نتيجة للأزمة القلبية.



(٢٦)

توفيق الحكيم أنكر هجومه على عبد الناصر .. وجاءت المباحث العامة بما كتب !!



ما يزال برلمان محبي ومنتقدي هيكل منعقدا يمطره بالاستجوابات والرجل يجيب وقد وصلنا إلى السؤال رقم ١٧ .. في محاولة لإضافة ملامح جديدة ودقيقة لصورة الرجل اللغز.

نعود إلى الموسيقى والأصوات التي تطربك..

لا تزال الموسيقى الكلاسيك الأفضل، وأنا مدين في حبي للموسيقى العالمية لزوجة الدكتور محمود عزمي الروسية التي كانت تجمعنا في بيته كل خميس نتكلم ونتناقش ونستمع إلى الموسيقى، وكانت خبيرة بها. بالنسبة للموسيقى العربية فهي في أعماق الموسيقى موجودة في تراثنا الديني بفنون التلاوة.. القرآن حفظ اللغة العربية، والتلاوة حفظت وطورت النغم الشرقي.. التلاوة.. المدائح. التواشيح، ثم المواويل، كلها حية في مشاعرنا.. مازال في سمعي نغم على وجه التحديد كنت أسمعه في بلدتنا، مجموعة من المنشدين الذين كانوا يفدون إليها كل سنة في مولد ولي اسمه سيدي سيف كانوا يجلسون على الجسر وينشدون كلاما يذكرون فيه الخلفاء والأولياء ومازالت إلى الآن اسمع أصواتهم في أذني وهم يرددون بنغم شجي عبارة (دول الأحبة الأربعة دول الأربعة دول الأربعة).. بالنسبة للفن الغنائي الحديث أنا تقليدي جداً فلا أزال واقف عند مرحلة أم كلثوم وعبدالوهاب، وفي مرحلة أيضا معينة قبل الخلط الذي طرأ على الأنغام والأداء، في السجن كنت دائما أتذكر أغنية عبدالوهاب الذي كتب كلماتها احمد شوقي وفيها يقول: الفجر شقشق ولاح على سواد الخميلة!

أمثال تلك الأغاني فيها موسيقى شرقية حقيقية لها بناء وفيها روح، بصرف النظر عن مسألة الطرب.. الموسيقى الجديدة، الروك مثلا، أقول أنها صرخة عصر مختلف قد لا أكون قادراً على استيعابه ولكنى أحاول أن أفهمه، وأعترف أنني عجزت عن ذلك إلى الآن على الأقل.. عبدالحليم حافظ يمثل مرحلة، فالتعبير الفني ما هو إلا تعبير عن حقائق اقتصادية واجتماعية وسياسية..

لابد لأية قيمة جيدة من أن تستند إلى قاعدة ثقافية حقيقية وتأملي كلام وألحان عبدالوهاب وأم كلثوم وعبدالحليم.. وكمال الطويل الذي أعطى عبدالحليم بعضا من أفضل ألحانه موجود بيننا ولكن.. سألته مرة: أنت فين؟!.. أجابني أنا أعمل في مناخ كامل ولا يوجد الفنان الذي يعمل بمفرده.. وهذا صحيح؟

- والآن نفتح الستار عن علاقتك بالمسرح؟ وبالمرة نسأل عن السينما؟

** آخر عهدي به مع الريحاني، وفي اعتقادي انه كان خرافيا، أعلن أن هناك قيما كبيرة موجودة الآن على عالم المسرح، إلا أن مشاهدتها ببساطة من الأمور المستعصية بسبب مواعيد المسرح التي تبدأ ما بين العاشرة والحادية عشرة وتنتهي مع الثالثة صباحا، وهذا معناه ألا أشتغل، وأنا رجل أحب أن أستيقظ في الخامسة صباحاً وأجلس إلى مكتبي في الثامنة أو الثامنة والنصف، فالفترة الصباحية هي أفضل الأوقات لدي للعمل، لو سهرت إلى الرابعة صباحا لن أستطيع تأدية عملي.. حقيقة من الممكن أن تفوتني أعمال مسرحية ممتازة لكني أقف حيال رؤيتها عاجزا.

وأقدر أقول آخر عهدي الحقيقي بالسينما كان مع فاتن حمامة.. لأن عملي يأخذ اغلب وقتي.

- وماذا عن المسلسلات التليفزيونية؟

** في ذاكرتي ليالي الحلمية.. وكنت أطلب أن تسجل لي الحلقات التي لم أتابعها، ومع عودتي شاهدتها كاملة..

أعتقد أن ليالي الحلمية خرج عن نطاق العمل الفني ليصبح حدثاً ثقافياً وسياسياً.. في بدايته الأولى عندما عرض مع مسلسل رأفت الهجان شعرت أن المسلسلين قد قاما بعمل يقظة في الضمير المصري الذي استيقظ للصراع العربي الإسرائيلي مرة واحدة، واستيقظت لديه خلجة التنبه.. لقد نجح ليالي الحلمية

لقربه الإنساني من الناس، إلى جوار فكرة ممتازة وحوار ممتاز وسيناريو رائع.

- وماذا عن الهجوم ضدك مع كل كتاب جديد؟

** يسرني جدا، لأن أي كلمة تقال ولا تحدث صدى لا أهمية لها.. يطمئنني عندما ينشر الكتاب ويحس به الناس ويضطرون لمناقشته، وحتى إذا ناقشوه بالشتائم فهذا يعطيني إحساسا بأن من لا يستطيعون المناقشة لا يجرؤون على السكون ولابد أن يتكلموا فيقولوا أي حاجة حتى الشتائم لكني لا أعترض ولا أرد عليها.. قد يدهشك إذا قلت لك أنني أقرأ ما يكتبه عني الآخرون وكأني اقرأ عن شخص ثالث لا علاقة لي به، بعض الناس يروي وقائع محددة.. يقول إنه قال لي وقلت له وكثير منه غير صحيح، وأنا لا أناقش ولا أتوقف، واعتبر القيل والقال من أوله إلى آخره يخص أصحابه ولا يخصني حتى وإن كنت أنا موضوعه.

- طيب والأرقام والتواريخ كيف تحتفظ بها الذاكرة؟

** لا يمكن الجلوس إلى سياسي لنقول له متى توليت السلطة مثلا.. أعيد القول بأن الصحافي يفقد الكثير ساعة ما يضع أمام السياسي ورقة وقلما وجهاز تسجيل وميكروفون.. سيتحول السياسي إلى شخص لا يريد أن تؤخذ عليه كلمة، لكن إذا ما كانت الجلسة بشرا لبشر فسيقال الكثير جدا.. ورغم أن وجودي أمامه يجيب عن سؤالي إلا إنني توجهت به إليه.

- هل توارثنا عن الأجداد مسألة طمس التاريخ؟

** ما كان ممكنا أيام الفراعنة لم يعد في حكم الممكن الآن.. لم يكن في وقتهم إعلام.. كان رمسيس الأول يستولي على ما خلفه والده وينسبه لنفسه، وكذلك عندما أتى رمسيس الثاني الذي استولى على منجزات والده سيتي، أو جده.. وتضيع هذه الحقيقة التي لم يعرفها سوى الكهنة، بينما الشعب العادي بعيد تماما عن تلك الأمور وقراءة الرسوم والنقوش والخراطيش، فهو يذهب كعادته دواليك إلى

المعبد الموجود لتلك الكوكبة من الملوك.

الأوراق هوايتي، وهذه مجموعة خطابات بخط يد اللورد كرومر وقت أن كان حاكما مطلقا في مصر كتبها لصديقه مون كريف ولآخرين.. ميزتها أنها بخط يده، كتبها من قصر الدوبارة.. لقد كان من الشخصيات الهامة جدا في تاريخ مصر.. عندما أجد مثل هذه الأوراق لا استطيع الوقوف أمامها مكتوف اليدين لتذهب إلى أيدي آخر لا تمثل لها أهمية مثلما تمثل لنا.. أتقدم لشرائها ما دامت لدى إمكانية الشراء.. اذكر أن والدي كان يقول عن أوجه صرف النقود بين أولاده أن أختي الكبيرة حريصة على تحويش الفلوس، أما محمد فكل ما عنده يشتري به أوراقا، وكانت في وقته كتبا ومجلات.. أنا رجل مهتم ببلدي مصر وبالكتابة عنها.. رأيت أوراقا كثيرة وصورتها، ولدي الكثير من الأصول لها، وابحث عن جهة ما في مصر اضمن أن أضعها فيها كلها.. تتساءلين ماذا سأفعل بها؟.. لم أصل إلى قرار بعد.. خطابات اللورد كرومر مثلا اشتريتها من لندن رغم أن كاتبها انكليزي لكنى حرصت على اقتنائها لأن صاحبها كشخصية أقامت في مصر وأنا مهتم جدا بكل ما يتعلق بمصر. ولذلك لم أهتم بشراء خطابات مسز سمبسون العاطفية التي تنازل ملك انكلترا من اجلها عن العرش أو وثيقة بتوقيع نابليون بونابرت لأني لست من هواة جمع الإمضاءات ولا خطوط العظماء.. أنا مهتم بالتاريخ المصري الحديث وكل ما يتعلق به بالدرجة الأولى، وهذا يأتي من منطلق اهتمامي بالمستقبل ولا استطيع أن أوسع إطار اهتمامي بالمستقبل ولا أستطيع القدرة عليه.. على الإنسان قصر وتحديد الهدف.. أنا أريد كل ماله تأثير على مستقبل مصر، وما له هذا التأثير هو تاريخها الحديث.. طبيعي أن كل ما هو غير ذلك هام جدا، لكنى في هذا المجال لست مؤرخا ولا أريد أن أكون، وإنما أنا صحافي وهذا ما أردته.

- نظرة عامة على عالم الكتابة عند هيكل نجدك قد أدخلت تغيرات جديدة في اللغة مثل.. القوتين الأعظم.. زائر الفجر.. النكسة..؟

** الدكتور إدوارد سعيد قدم رسالة في جامعة بوسطن بالولايات المتحدة حول التعبيرات السياسية التي أدخلتها في اللغة العربية.. لابد وأن ننحت كلمات جديدة قابلة للاستخدام في حياتنا الآن..

فيما يتعلق بلغتنا المتداولة الآن حدثت حركة تجديد في اللفظ والتعبير، فمثلا كلمة تجديد في اللفظ والتعبير، فمثلا كلمة تأميم نحتها الدكتور محمود عزمي، وقدم المجمع اللغوي اجتهادات في هذا الجانب ألا أنها لم تتداول لثقلها.. اللغة العربية لها قداستها ونزل بها القرآن الكريم.. أنا أتصور أن الصحافة أداة ووسيلة توصيل من الجامعة إلى الجمهور المتلقي، وهي حلقة الوصل بين الأفكار والحواس والتصورات والتطورات العلمية المفروض أن مكانها الجامعة للجمهور، وعليها أيضا عملية التبسيط والترجمة الضرورية للأفكار والتيارات، وبجانب مهمتها في تغطية الحوادث لابد لها من تغطية الأفكار، فالأفكار حوادث..

أهم سمات هذا العصر أن الأفكار فيه قد تحولت إلى حوادث تغطي أخبارنا، والقيمة الإخبارية هنا تؤثر في حياتنا شئنا أم لم نشأ.. جميع الأيديولوجيات كانت بالدرجة الأولى قيمة إخبارية كلها فاعلة ومؤثرة فينا في الناحية السياسية أو الثقافية أو الفكرية الخ.. لهذا هناك الحاجة لأخذ تلك الأفكار حيث تنتج من قبل الأكاديميين ليوصلها إلى جمهور المستهلكين فلو أوصلها هؤلاء ستصبح جادة لا يستطيع استيعابها الصحافة مطالبة وهي تنقل تلك الأفكار أن تعثر على تعبيرات تؤدي إلى هذه الأفكار.. وساعات الصحافة تفشل في ذلك.. ساعات كثيرة.

- قيل إن نجيب محفوظ ذكر أنه عند نشره لروايته أولاد حارتنا في الأهرام كان يحتمي بك لقربك من عبدالناصر وقتها، وهذه الرواية منعت بعدها من مصر..؟

** لم يكن هناك تهديد حتى تكون هناك حماية.. أولا جمال عبدالناصر كان يقدر نجيب محفوظ وهو يعرف ذلك تماما.. لقد قرأت الرواية ورأيت فيها عملا أدبيا

بديعا، وأدركت ما قد تحدثه من حرج ولهذا، ولأول مرة في الأهـرام تنشـر روايـة يوميا لأني أردت أن أفرغ من نشرها سريعا قبل أن تتنبه أحـد بـان هنـاك محظـورا وبالفعل بعدما وصلت إلى الجزء ٤٠ أو الـ٤٢ بدأت الضجة، ومع بدايـة الضـجة كانت الرواية قد انتهت.. كل أعمال نجيب محفوظ النقدية مثل اللص والكـلاب والسمان والخريف وميرامار نشرت في الأهرام وأنا رئيس تحريره وفى عصر جمـال عبدالناصر ودون أن تحذف منها كلمة.

- تعرضت للهجوم كثيرا.. لكن ماذا عن خلافك مع توفيق الحكيم وهو ينتمي إلى أسرة الأهرام وأنت من استقطبه هو وكبار الكتاب نجيب محفـوظ ويوسـف إدريس وثروت أباظة؟

** لم يحدث إطلاقا أن هاجمني توفيق الحكيم. بل على العكـس فقـد مـدحني كثيرا ودائما لقد ظلت علاقتنا جيدة حتى آخر يوم.. الإشكال الذي حدث بيننـا في فترة من الفترات نشأ بسبب كتابه عودة الوعي.. السـبب في زعـلي منـه أن الـرئيس السادات كلمني وقال: هل تعرف أن توفيـق الحكـيم يكتـب حاجـة يهـاجم فيهـا عبدالناصر قلت لا أظن..

وذهبت بدوري أسأل الحكيم هل تكتب حاجة فرد بالنفي.. وقتها كان الرئيس السادات يهاجم توفيق الحكيم بعبارات الحبر الأسود والحقد الأسود، وذلك لأن توفيق الحكيم كان قد كتب بيانا مع الأدباء، وهذا البيان تم وأنا بالخارج في الصين وأعطى لوزير الإعلام وقتها كان الدكتور عبدالقادر حاتم، وعند عـودتي فوجئـت بالضجة الموجودة حول البيان الذي اتهمني الرئيس السادات بالعلم به. وهذا غير صحيح فلم يكن لدي أي فكرة عنه.. في ذلك الوقت قال لي الرئيس السادات عـن حكاية مـا يكتبـه توفيـق الحكـيم مـن هجـوم عـلى الـرئيس عبدالناصـر.. بعـدها بأسبوعين أو ثلاثة أرسل لي الرئيس السـادات فصـلا مـن كتـاب توفيـق الحكـيم جاءت به المباحث العامة وقال لي: هذا هو الذي يقول لـك إنـه لم يكتـب.. قلـت

لتوفيق الحكيم: أليس هذا ما كتبت، قال لا هذه حاجة تجريبية، وكان زعلي أني عندما سألته لم يقل لي.. لكنه حتى في كتابته لعودة الوعي مدحني أكثر من مرة.. إنه خبأ عني، هذا هو ما آلمني أما ما بداخل الكتاب إذا كان هذا هو رأيه فهو حر فيه، وأنا لا أعترض..

عندما كتب بنك القلق وقرأت القصة قال لي إنه لا يريد نشرها متخوفا مما جاء فيها.. قلت لقد كانت لديك الشجاعة لكتابتها وأنا عندي الشجاعة لنشرها.. وبالفعل تم نشرها لتثير غضب المشير عبدالحكيم عامر وقتها الذي أثار ضجة كبيرة، فقد كانت تحوي نقدا للمخابرات.. كلمني الرئيس عبدالناصر يسألني عنه لأنه لم يقرأها.

فقلت له إني أعلم ما بها من نقد للمخابرات، فقال عبدالحكيم جاء لي وهو غاضب ولهذا أرى أن تحضرا لي معا بعد ظهر اليوم لتسوى المسألة حتى لا يكون هناك توتر.. وحتى حين الموعد أرسلت للرئيس بروفة ما سوف ينشر من الفصل القادم في القصة، والتقينا عنده أنا لم أقرأ ما كتب من القصة ولن أقرأ الجديد فيها، وقال موجها كلامه للمشير الذي كان يرى في القصة مساسا وتشكيكا في المخابرات..

قال الرئيس إنه إذا كان توفيق الحكيم قد كتب في عصر الملكية يوميات نائب في الأرياف فمن غير المعقول أن تمنع له قصة في العصر الجمهوري.. وأكملنا نشر القصة ولا شيء حدث رغم تخوف توفيق الحكيم.

لقد كانت هناك بالطبع مشاكل وتجاوزات، لكن كل شيء يجب أن يوضع في حجمه في وقته، وبالمقارنة مع مثيله في أوقات أخرى.

لا ينسى أحد أن الأهرام وقتها قد حاربت معارك أساسية ضد كل التجاوزات هناك البعض داخل الأهرام الذين جرى تخويفهم من جانب بعض أجهزة في قضايا الرأي.. كلهم من داخل الأهرام.

- وماذا عن أم كلثوم في عصرك وفى بيتك؟

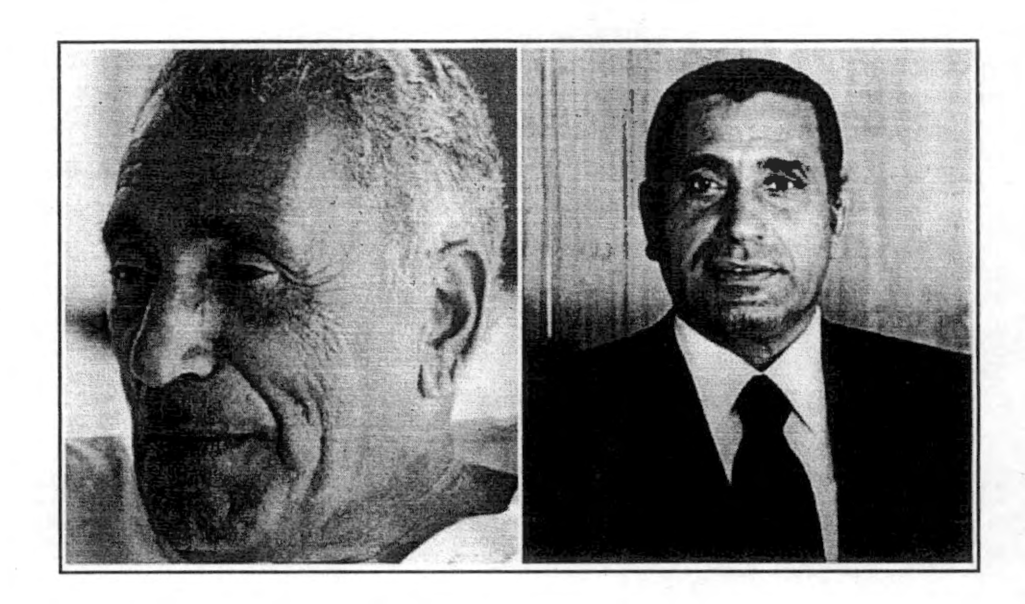
** أم كلثوم كانت موجودة في الوسط الصحافي والفني حيث كانت تجمعها علاقات بأغلب الصحافيين والأدباء وكان مصطفى أمين قد كتب في وصيته أن تكون عضوا بمجلس إدارة أخبار اليوم في حالة وفاته وأن أتولى أنا رئاسة التحرير.

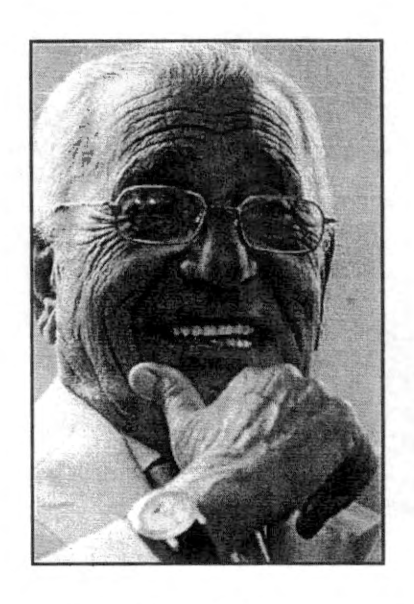
والأهم من صوت أم كلثوم أنها إنسانة رائعة.. واكتشفت معدنها الأصيل فقد كانت تزورني بعد خروجي من الأهرام مرتين أسبوعيا.

- وعلاقتك بعادل إمام؟

** هو فنان كبير له جمهوره.. وقد ارتبط عند الناس بأنه ابتسامة على وجه مصر وعلى المستوى الشخصي اقترب مني ووجدته لطيفا وابن بلد. وصنع نجاحه من الصفر ودارت بيننا حوارات طويلة.

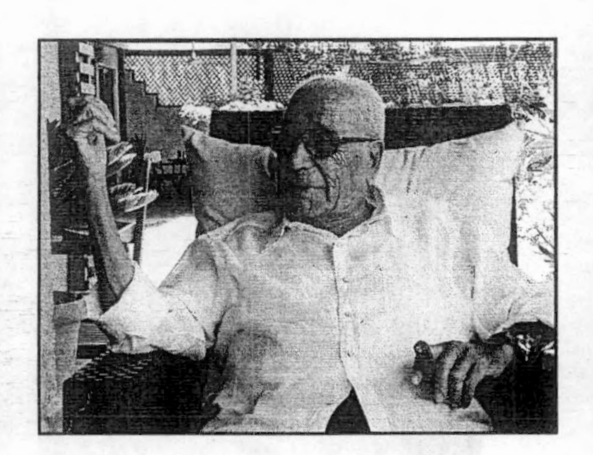
وجوه عديدة لرجل واحد





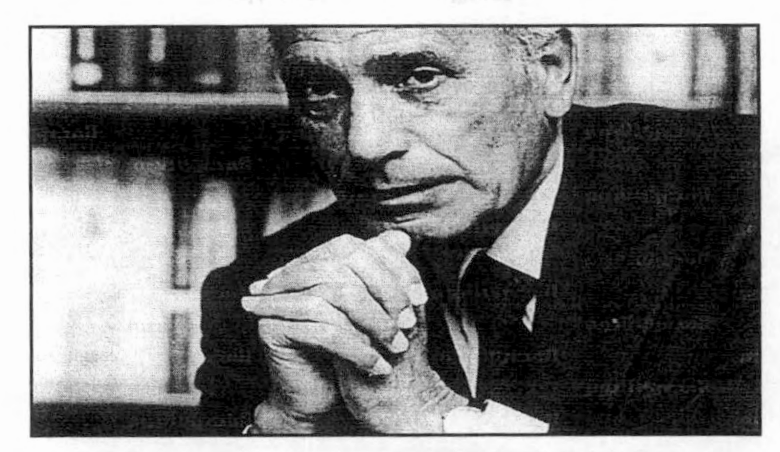




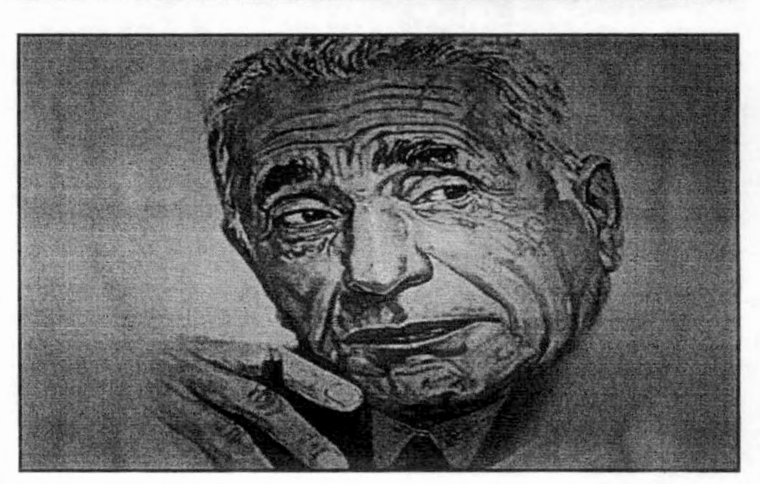
















العائلي





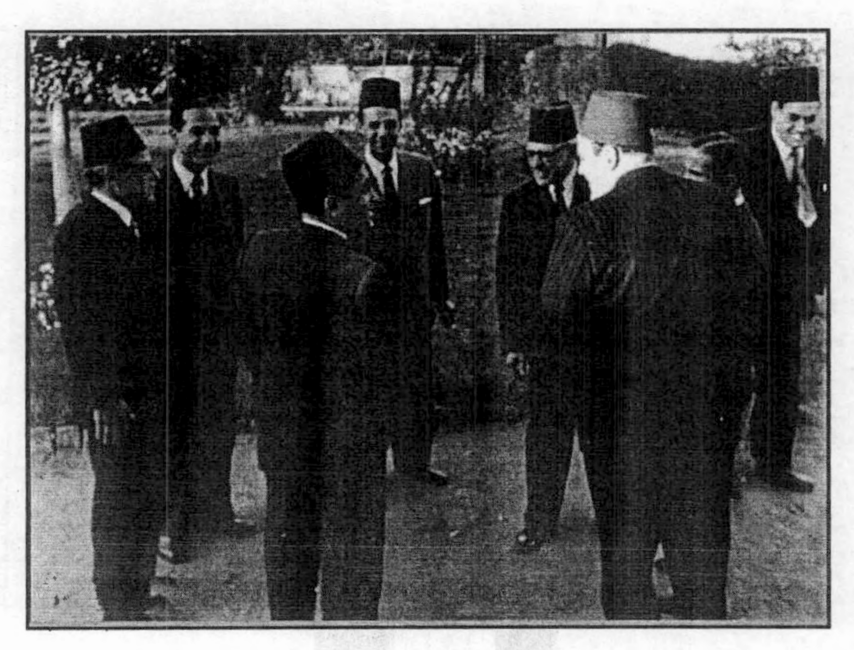
مع ناصر



مع الست



في أول الثورة



بالطربوش



مع المشير إسماعيل

مع ناصر في أي مكان



صداقته لا ينكرها أحد



مع الخوميني





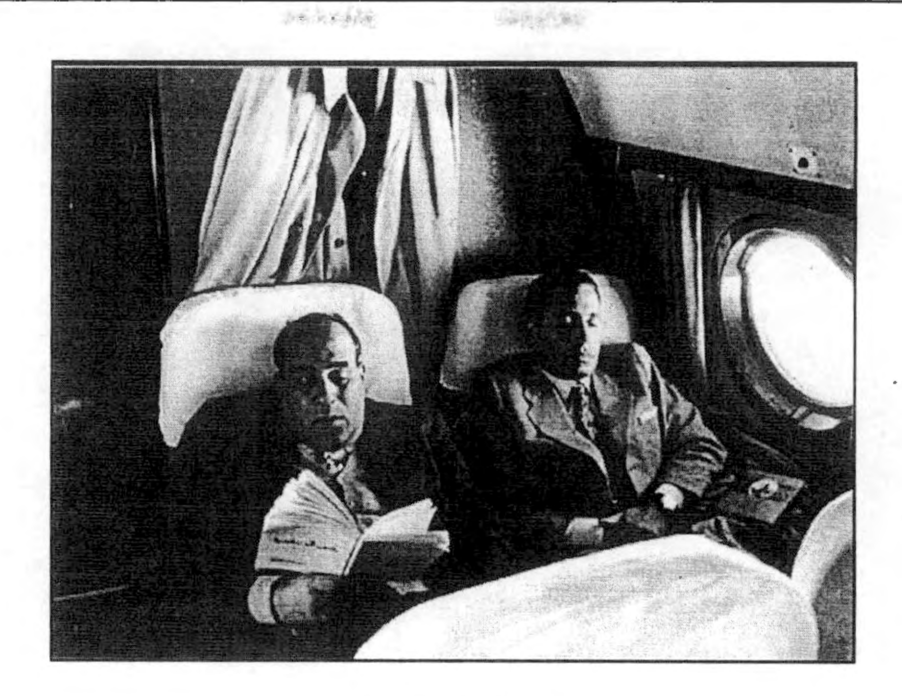
مع سارتر والحكيم







في زيارة ناصر للأهرام



في الطائرة مع علي أمين



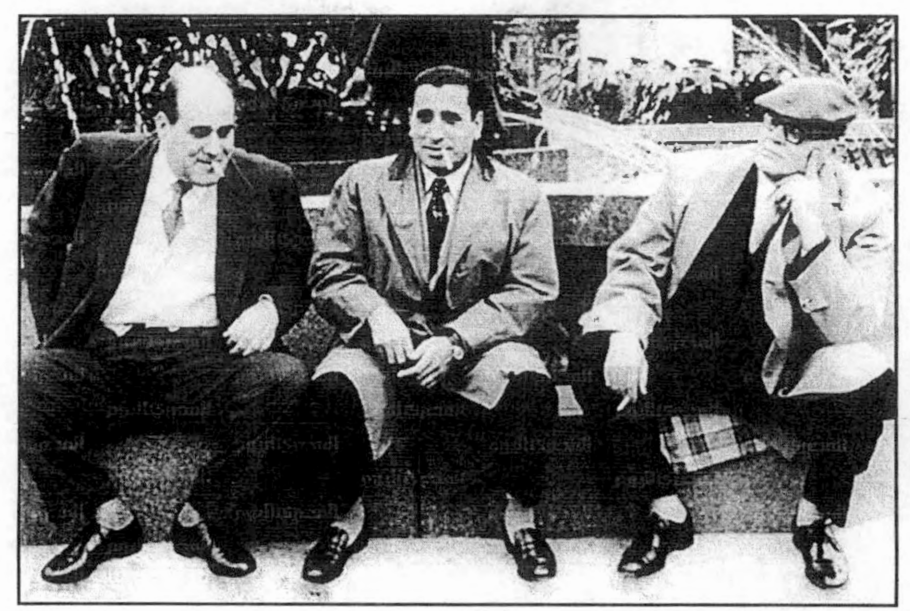
الضابط والصحفي



في المرآة



خلف ناصر والقذافي



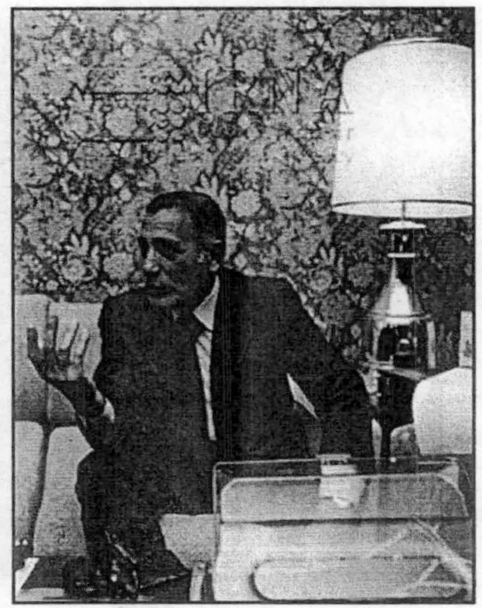
رحلة في بلاد بره



مع الصحافة والفن







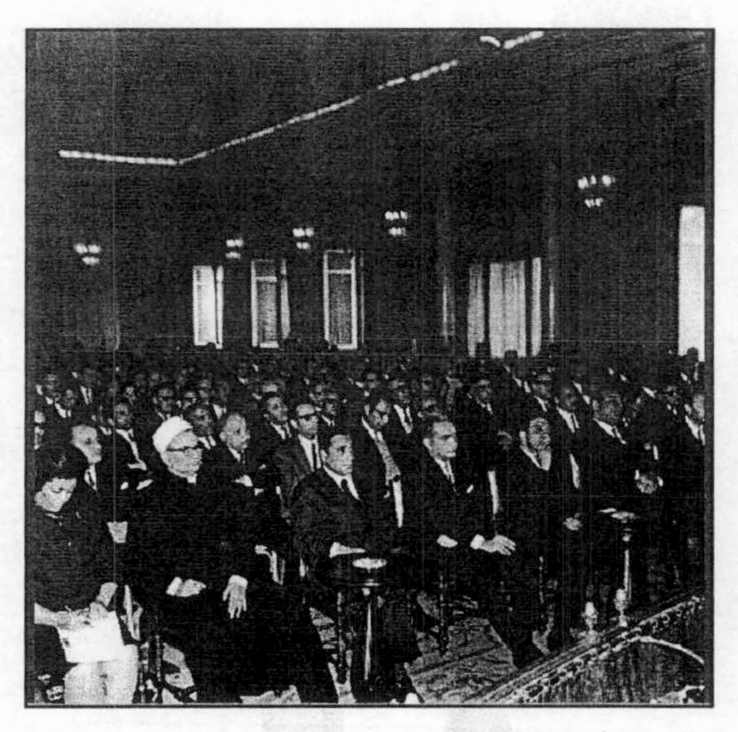
في الصورة دائمًا



لحظة صحفية مع جمال



لقطة عربية



في الصف الأول



في إيران



مع عرفات



الميكروفون بينهما



مع الملك حسين

حديث الوثائق





رجل كل عصر



بين حليم والست وأمين وهو رابعهم



رحلة في لندن



مع الرئيس العراقي عارف

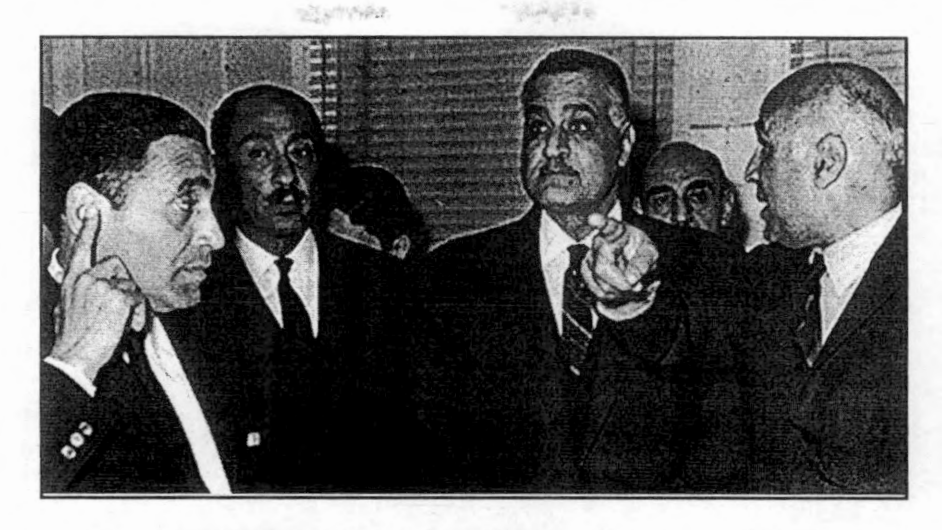
هنا الأهرام

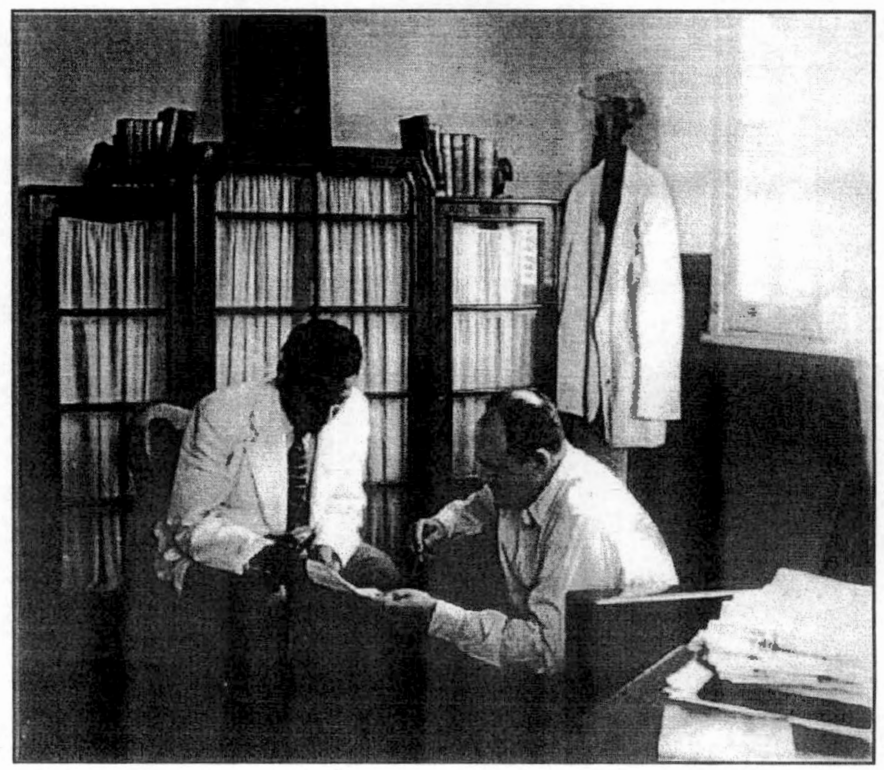












فلاش باك مع علي أو مصطفى أمين؟



هو يتكلم والرئيس يسمع



في إيران أرضًا



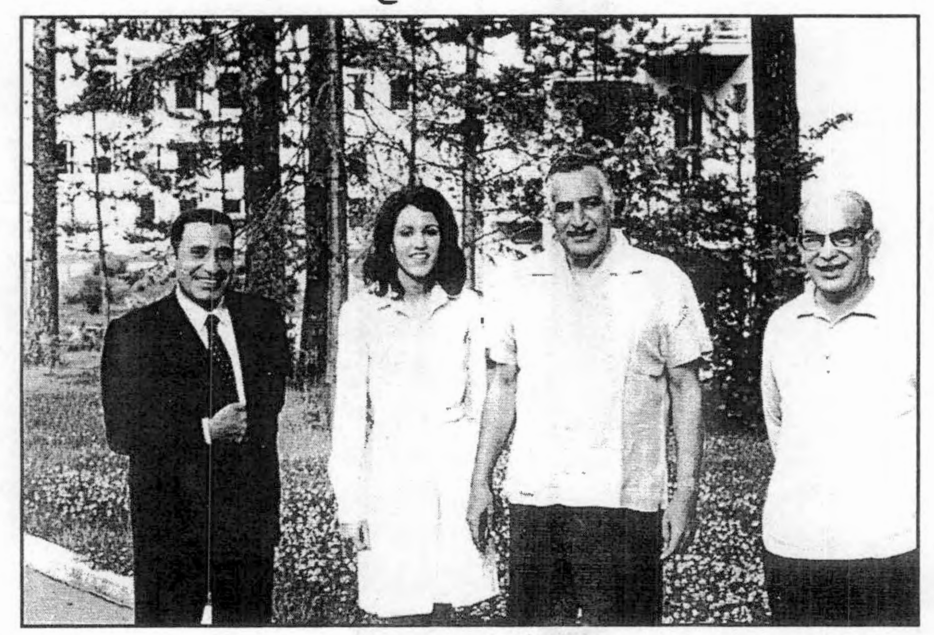
على الجبهة



أيام الطرابيش



يعرف كيف يستمع



في بيت ناصر



لحظة شعر مع الأبنودي



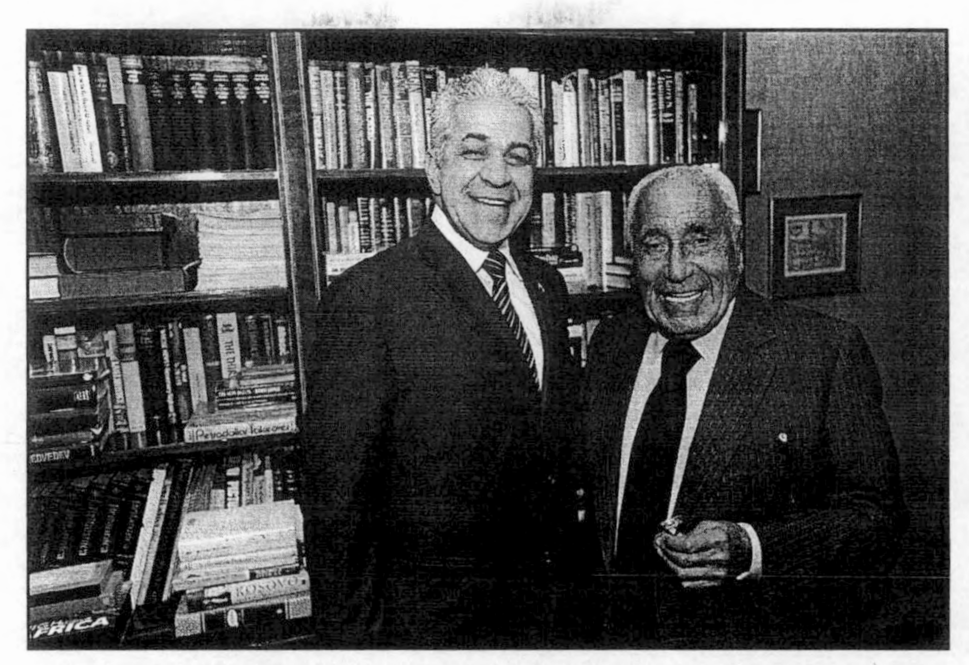
جدو

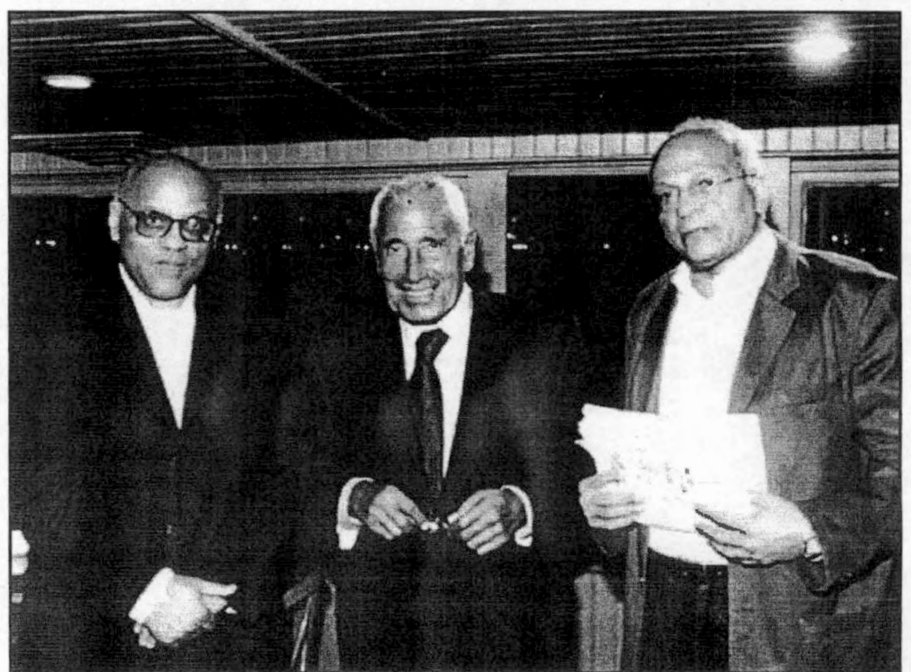


مع عمرو موسى



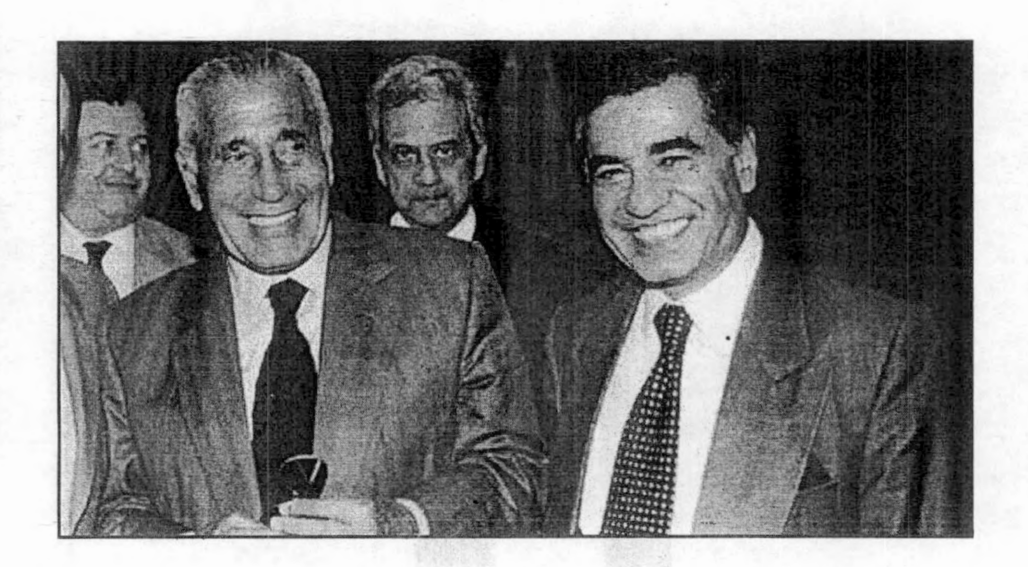
مع حسن نصر الله





مع حمدين صباحي وجمال الغيطاني ويوسف القعيد

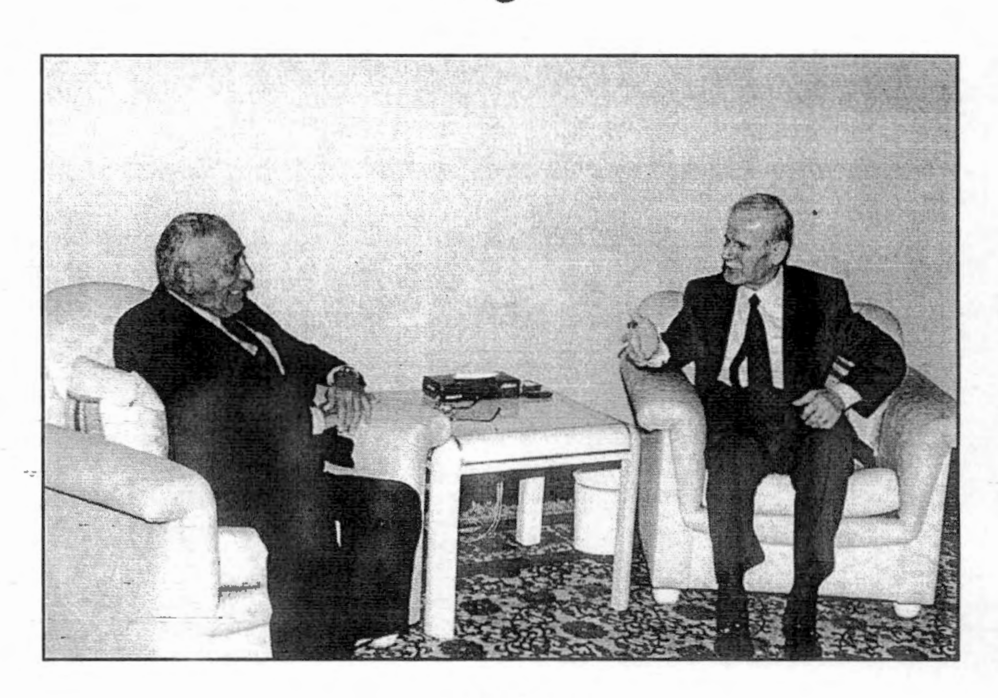




تكريم لبناني



دائمًا مع الورق



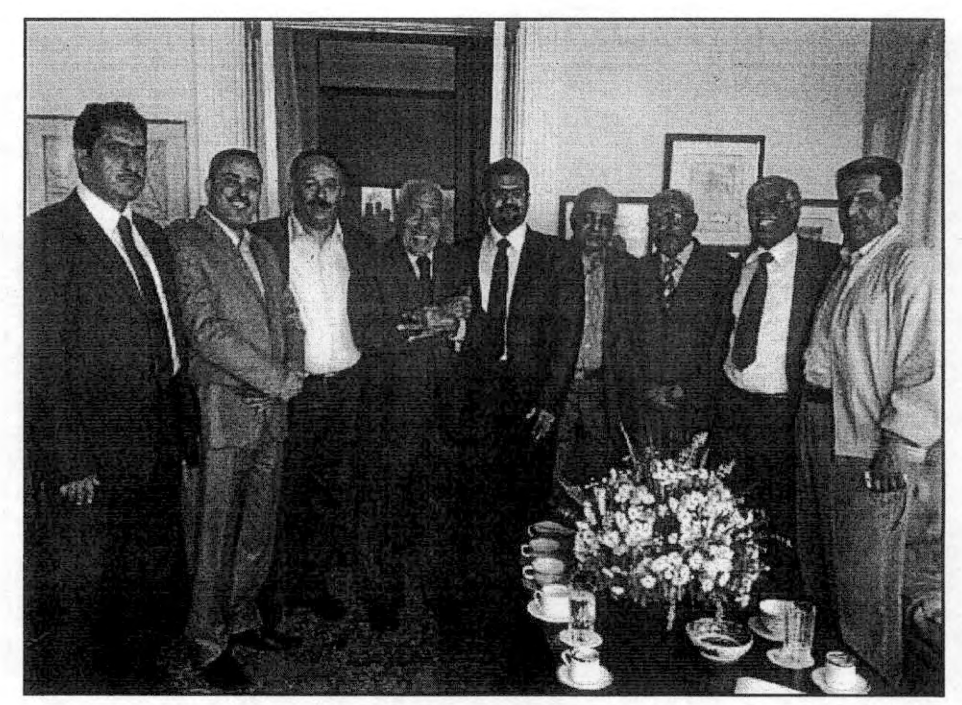
مع الأسد الكبير



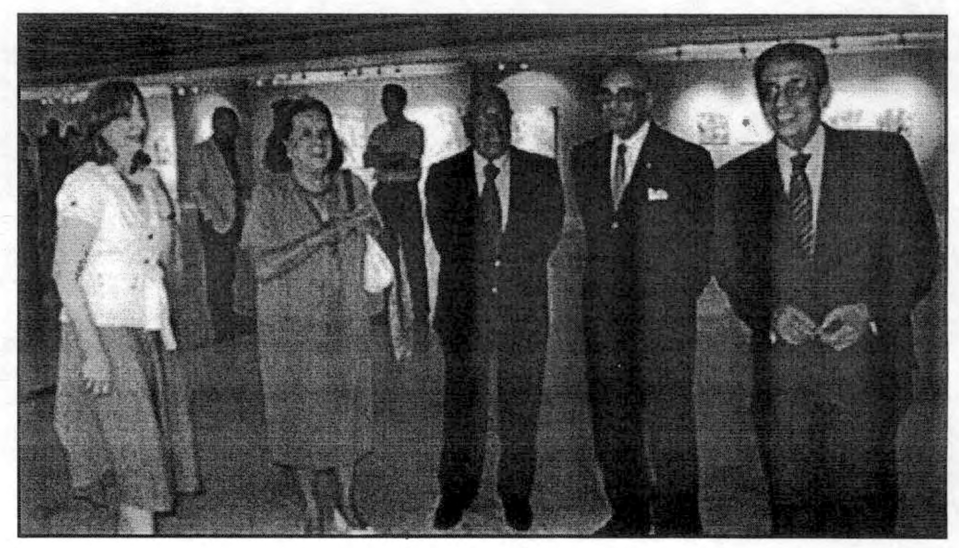
مع حكيم عبد الناصر



مع خالد يوسف



مع الصحفيين العرب



مع أهل السياسة





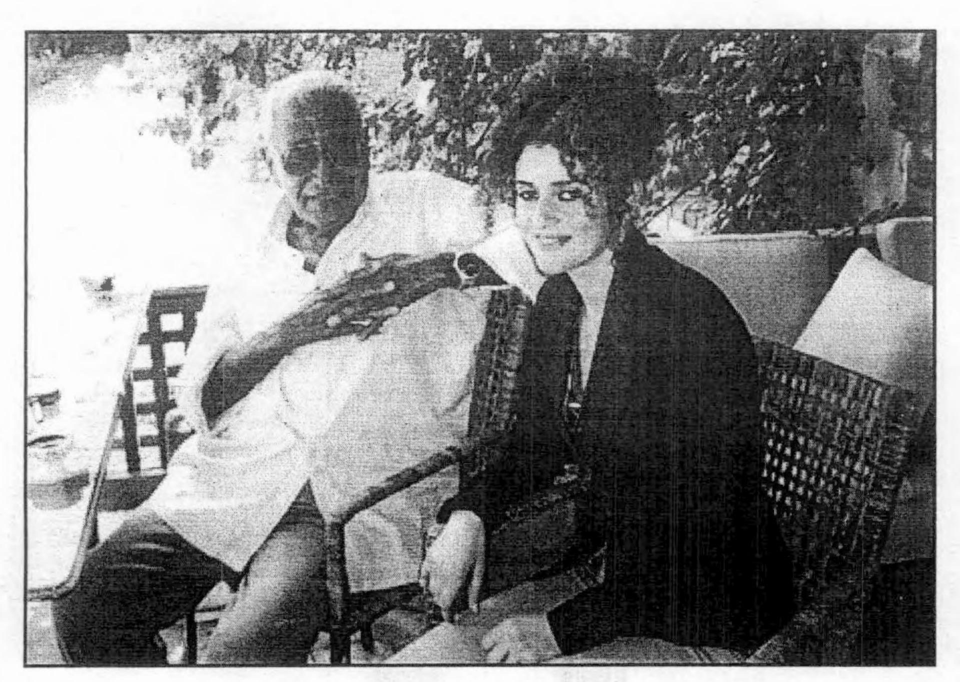
حوار أدبي فيه وحيد حامد وبهاء وطاهر والغيطاني



يعزي صلاح منتصر



ويشارك عادل إمام



لحظة عائلية



من فكري أباظة .. وصولاً إلى ياسر رزق



على الطاولة مع لميس الحديدي



وعلى راحته مع إمام



ماذا قال لمرسي؟

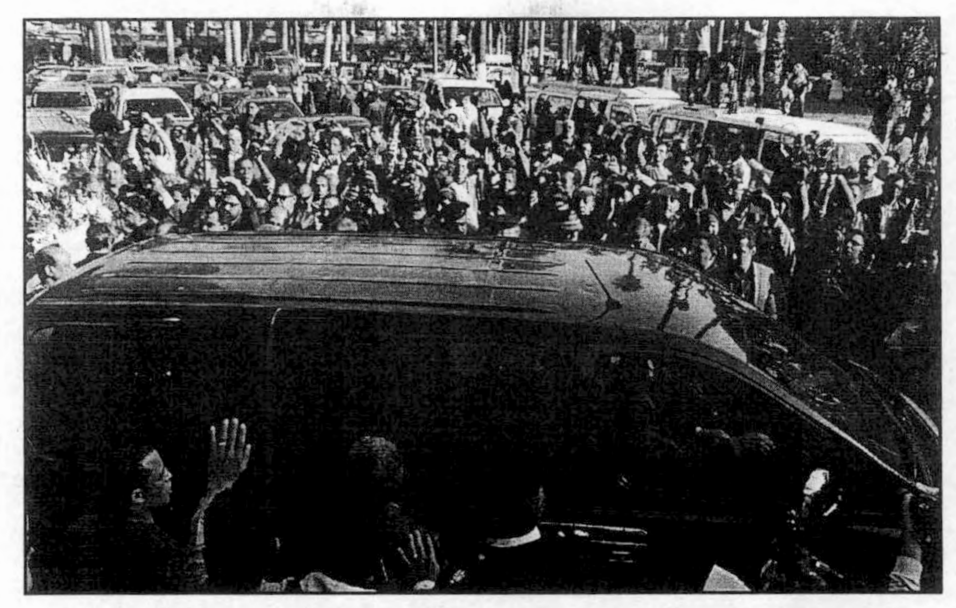


وماذا يقول له السيسي؟

مشاهد الوداع







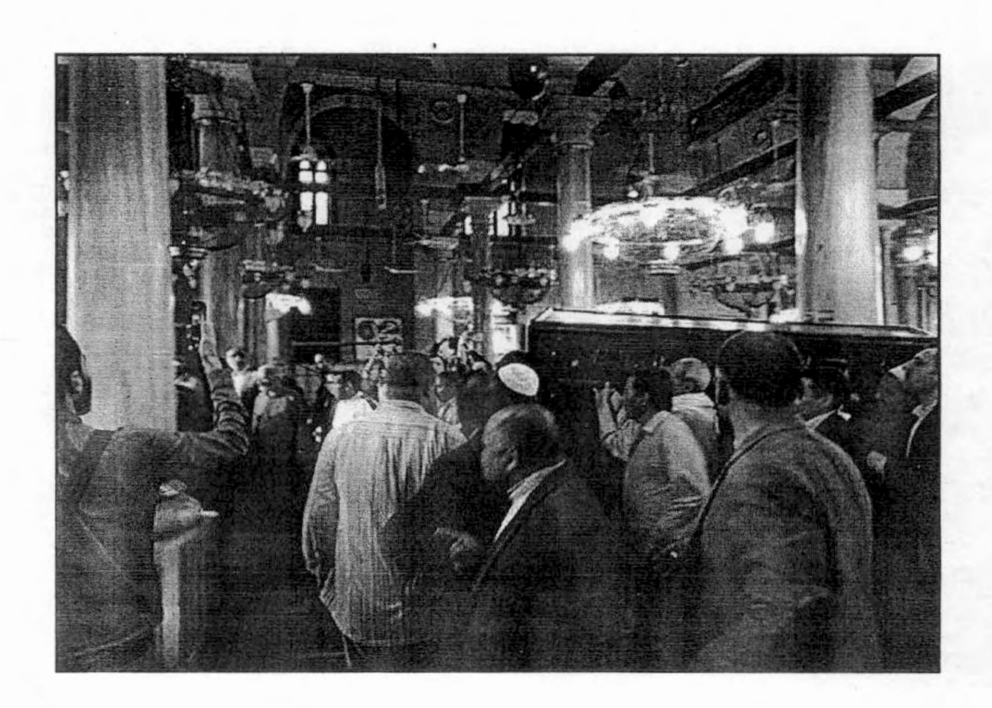




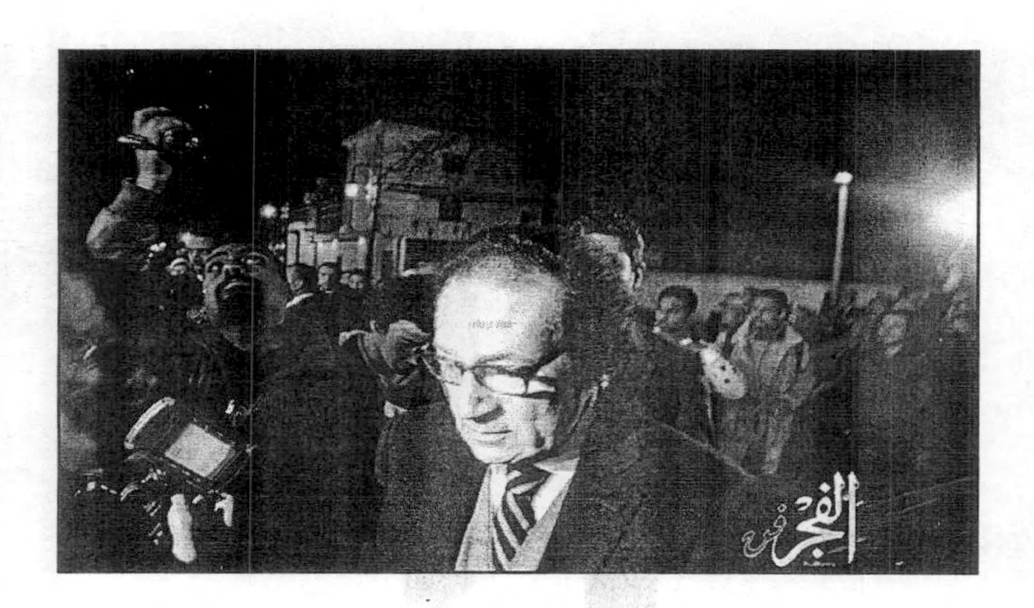











الفجر





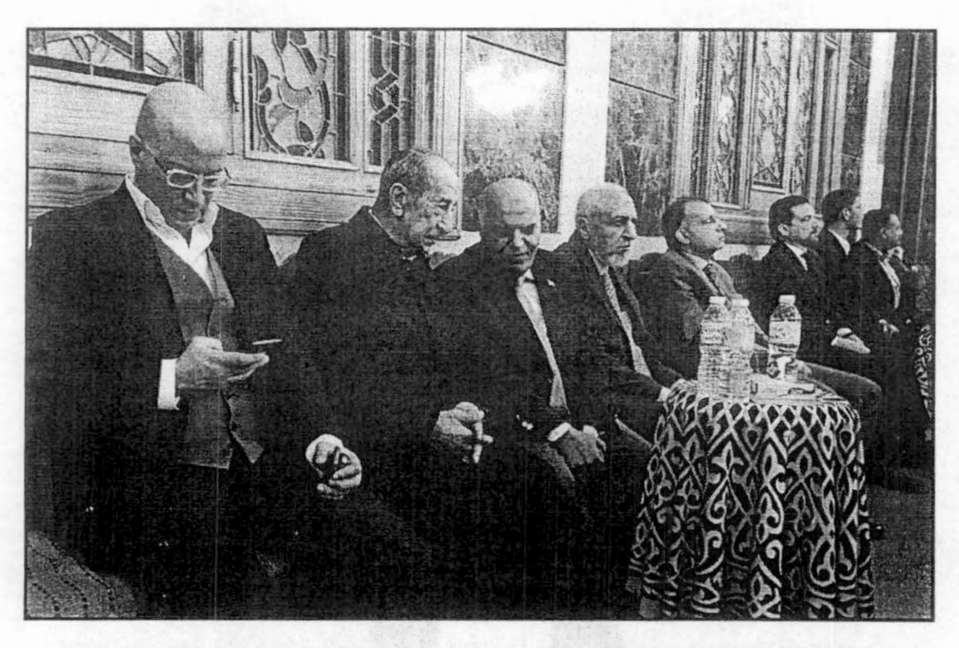

mashaheeri
Mashaheeri ©


mashaheeri
Mashaheeri ©







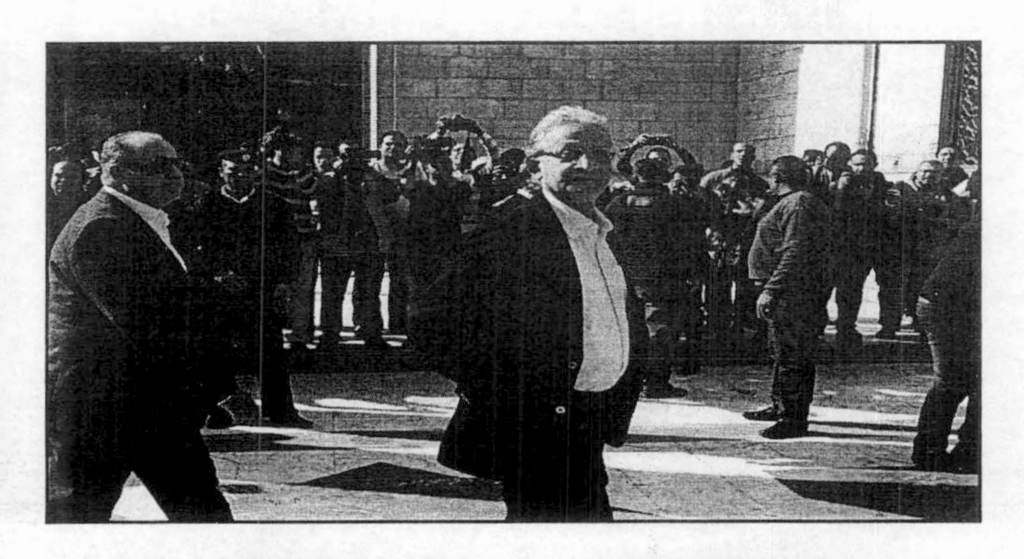


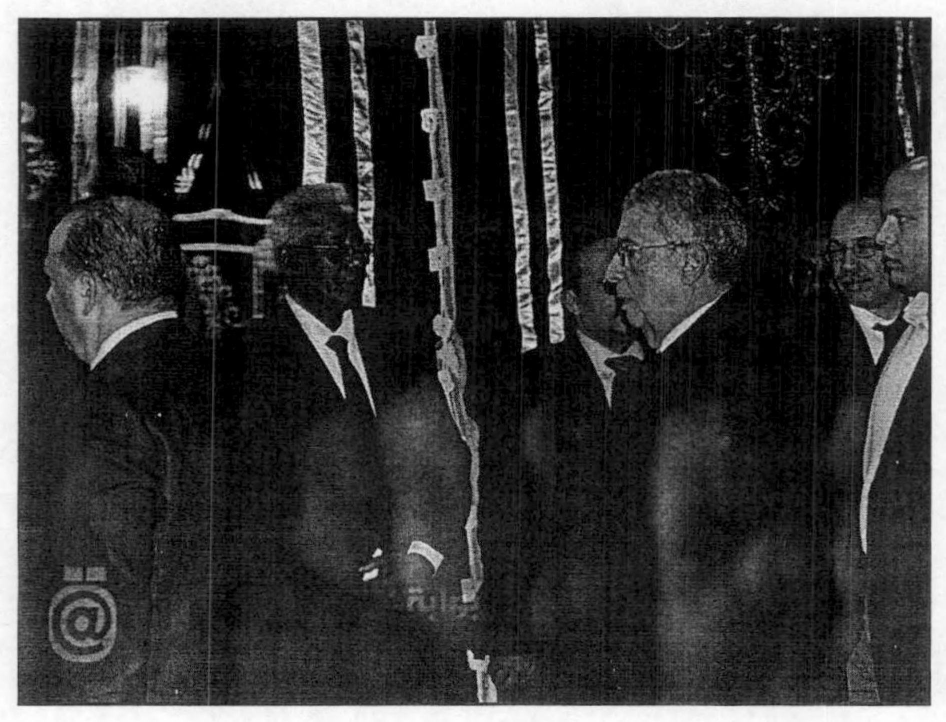












الفهرس